غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

المجلد الخامس والستون

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

نسخة مجانية

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

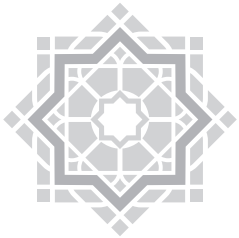

المِحْوَرُ السَّابِعُ

فِقْهُ الأُمَّةِ ودَعْوَتِهَا وصَحْوَتِهَا وحَرَكَتِهَا الإِسْلَامِيَّةُ

١٢٤ بيِّنات الحلِّ الإسلامي

١٢٥ أعداء الحل الإسلامي

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

المحور السابـع

فقه الأمة ودعوتها وصحوتها وحركتها الإسلاميَّة

غير مرخصة للطباعة

١٢٤

بيِّنات الحلِّ الإسلامي
وشبهات العِلمانيِّين والمتغرِّبين

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من الدستور الإلٰهي للبشرية

﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۞ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾

[المائدة: ٤٩، ٥٠].

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨].

غير مرخصة للطباعة

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن رافع بن خَدِيج رضي الله عنه قال: قدم نبيُّ الله ﷺ المدينة، وهم يأبِرُوْن النخل ـ يقولون: يُلَقِّحون النخل ـ فقال: «**ما تصنعون؟**». قالوا: كنَّا نصنعه. قال: «**لعلَّكم لو لم تفعلوا كان خيرًا**». فتركوه، فنفضت أو فنقصت، قال: فذكروا ذلك له. فقال: «**إنَّما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيءٍ من دينكم، فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيءٍ من رأيي، فإنَّما أنا بشر**». رواه مسلم.

عن أبي الدَّرْداء رضي الله عنه، رَفَعَ الحديث قال: «**ما أحلَّ اللهُ في كتابه فهو حلال، وما حرَّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله العافية، فإنَّ الله لم يكُنْ نَسِيًّا**». ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]. رواه الحاكم، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي.

عن حُذَيْفة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «**اكتُبوا لي من تَلَفَّظَ بالإسلام من الناس**». فكتبنا له ألفًا وخمسمائة رجلٍ، فقلنا: نخاف ونحن ألف وخمسمائة. فلقد رأيتُنا ابتلينا، حتَّى إنَّ الرجل ليُصلِّي وحده وهو خائف. متَّفق عليه.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة[١]

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الَّذين اصطفى.

(أمَّا بعد)

فقد شاء القَدَر أن يتأخَّر هذا الجزء عن موعده سنين طوالًا، فقد بدأتُ أكتب في سلسلة «حتميَّة الحلِّ الإسلامي» منذ قدمتُ إلى قطر أوائل ثمانينيات القرن الرابع عشر الهجري وأوائل ستينيَّات القرن العشرين الميلادي.

وكان دافعي الأوَّل في الكتابة في هذا الموضوع، هو الردُّ العلمي على التنادي بما سمَّوه «حتميَّة الحلِّ الاشتراكي» الَّذي أعلنه «الميثاق الوطني» المصري، الَّذي سمَّاه من سمَّاه «قرآن الثورة»!

ولم يكن إيماني بالحلِّ الإسلامي لمجرَّد أنِّي مسلم فقط، والمسلم لا يصحُّ إسلامه، ولا يتمُّ إيمانه، إلَّا بالرجوع إلى منهج الإسلام في مختلف جوانب الحياة، والرضا بحكم الله ورسوله فيها: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

(١) كتبتُ هذه المقدمة في الطائرة البريطانيَّة المتَّجِهة من الدوحة إلى لندن، مساء يوم الخميس ١٢ إبريل ١٤٠٨هـ الموافق ٣ ذو الحجة ١٩٨٧م.

QaradawiBooks.com

إنَّما كان إيماني بالحلِّ الإسلامي نتيجة الدراسة والتحليل والموازنة، وقراءة التاريخ، واستقراء الواقع لأُمَّتنا.

فإذا قرأنا التاريخ قراءة الفاحص المدقِّق، نجد أنَّ النصر والقوَّة، والامتداد والرقيَّ، والازدهار والاستقرار، مرتبطًا بمقدار القُرب من تعاليم الإسلام، وحُسن فَهمها، وحُسن تطبيقها في الحياة، كما تشهد بذلك مراحل تاريخيَّة متعدِّدة، تبدأ بمرحلة النبوَّة، ومرحلة الخلفاء الراشدين، وفترات خلافة عمر بن عبد العزيز، وإمارة نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، ومحمد الفاتح، وأمثالهم من أئمَّة العدل والإحسان.

كما أنَّ الهزيمة والضعف، والانكماش والانحطاط، والذبول والاضطراب، مرتبط بمدى البُعد عن تعاليم الإسلام فهمًا وتطبيقًا، كما تشهد بذلك أكثر فترات تاريخنا للأسف الشديد.

ومَنْ يقرأ بإمعانٍ وتأمُّلٍ كيف دخل الصليبيون إلى وطننا، وكيف احتلوا بيت المقدس، وكيف دخل التتار إلى ديارنا، وكيف دمَّروا بغداد، وقضوا على دولة بني العباس، وكيف طُرِد المسلمون من الأندلس، بعد ثمانية قرون أقاموا فيها حضارة رفيعة العماد، وكيف تحوَّلت الدولة العثمانيَّة الَّتي أرهبت أوربا كلَّها لعدَّة قرون إلى «الرجل المريض». مَنْ يقرأ ذلك كله وغيره: يستيقن أنَّ أُمَّتنا لم تُؤْتَ إلَّا من عند أنفسها قبل كل شيء، حين تتمسَّك بقشور من الإسلام وتدَع لُبابه وجوهره، أو تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض، اتباعًا لأهوائها، أو أهواء آخرين حذَّرها الله منهم حين قال لرسوله: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨].

QaradawiBooks.com

وإذا تركنا التاريخ لنستقرئ الواقع الملموس أمام أعيننا في بلادنا الإسلاميَّة، فلن نجد إلَّا واقعًا مرًّا، يشكو منه الجميع على كُلِّ الأصعدة، وفي كُلِّ المستويات، ومن كل الطبقات.

ومعنى هذا أنَّ نهضتنا ـ الَّتي اعتمدت على استيراد الحلول من غيرنا ـ لم تُؤْتِ أُكُلها، ولم تُحقِّق أهدافها، ولم تجنِ منها أُمَّتُنا الثمرات المرجوة، في دنيا الاقتصاد، أو الاجتماع، أو السياسة، أو العمران، أو غيرها من الجوانب المادِّيَّة والمعنويَّة.

وهذا ما بيَّنَّاه في الجزء الأوَّل من هذه السلسلة «الحلول المستوردة وكيف جَنَتْ على أُمَّتنا»، سواء أكان هذا الحلُّ يمينيًّا ليبراليًّا، أم يساريًّا اشتراكيًّا.

كما بيَّنَّا في الجزء الثاني من السلسلة أنَّ «الحل الإسلامي فريضة وضرورة»، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتِّمها الواقع. وبيَّنَّا في ذلك الجزء شروط الحل الإسلامي، ومعالمه، ومكاسبنا من ورائه، كما ألقينا الضوء على الطريق إلى الحل الإسلامي، نظرًا لاختلاف وجهات المهتمِّين بذلك، وتعدُّد طرائقهم، وقد ناقشنا هذه الطرق، وانتهينا إلى ضرورة وجود حركة إسلاميَّة شعبيَّة واعية تقوم على التخطيط والتنظيم، وتعمل على مستوى الإسلام، ومستوى العصر، ومستوى ما يعمله خصوم الإسلام.

ولكن جماعة العِلمانيِّين من دعاة اليسار، وأتباع اليمين، يوجِّهون اتهامات ـ أو قُلْ: يثيرون شُبهات ـ حول الحل الإسلامي، وهي في حقيقة الأمر شُبهات لا وزن لها، ولا تقوم على ساقين، ولكنَّهم من طول ما ردَّدوها ـ أو ردَّدها عليهم أساتذتهم ومُوجِّهوهم ـ صدَّقوها، أو

QaradawiBooks.com

أوهموا الناس أنَّهم مصدِّقون لها، وإن كانوا في قرارة أنفسهم مؤمنين بتفاهتها وهزالها.

وفي هذا الجزء رددتُ على شُبهاتهم الأساسيَّة والكبرى، وقد أجملتها في سبع، هي كما يصوِّرها أصحابها:

١ ـ كيف تدعوننا إلى حِلٍّ يعتمد على الدِّين في عصر العلم والتكنولوجيا، وقد انتهى عصر الدِّين وتقوَّضت خيامه، ولم يتقدَّم الغرب إلَّا بعد أن طلَّق الدين، وتحرَّر من رِبقة رجاله، واتَّجه إلى العلم والعقل؟

٢ ـ كيف نقبل حلًّا طابعه «الجمود» والوقوف في وجه «التطوُّر» في عالم تغيَّر فيه كل شيء، وفي عصر سريع التحوُّل، وكيف نجْمُدُ والدنيا تتحرَّك، وكيف نقف مكاننا والعالم يسير، والفلك يدور؟

٣ ـ كيف نرضى بحلٍّ «رجعيٍّ» يشُدُّنا إلى الوراء، ويعارض «التقدُّم» ويتنافى مع «المعاصرة والتحديث»؟

٤ ـ كيف تدعوننا إلى حِلٍّ غايته أن يقيم «دولة دينيَّة» ثيوقراطيَّة تتحكَّم في رقاب الناس وضمائرهم، عن طريق الكهنة ورجال الدين الَّذين يفرضون إرادتهم على الخلق باسم الخالق، وفي الأرض باسم السماء!

٥ ـ وكيف تُسيغ مَعِدة هذا العصر ـ في أواخر القرن العشرين ـ حلًّا كلُّ همِّه أنْ يقطع الأيدي، ويجلد الظهور، ويقتل الجناة، أو يصلبهم أو يرجمهم، وهو ما يُلِحُّ عليه دعاة تطبيق الشريعة، وخصوصًا في مجال «الحدود والعقوبات»؟

٦ ـ ثمَّ كيف نستجيب إلى حلٍّ غامضٍ، لم تُوضَّح معالمه، ولم

QaradawiBooks.com

تُبيَّن حدوده، ولم تُفصَّل برامجه، ولم يُقدِّم لنا العلاج التفصيلي لمشكلاتنا اليوميَّة؟

٧ ـ وأخيرًا، كيف تَنْسَوْن ـ أيُّها المسلمون ـ أنكم لستم وحدكم في هذه الأوطان العربيَّة والإسلاميَّة، فمعكم أقليات لا تدين بدينكم، ولا تؤمن بشريعتكم، فكيف تفرضون عليها حلًّا يُكْرِهها على غير ما تعتقد، مع أنَّه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وأهم هذه الأقليات هي الأقلية النصرانية، من أرثوذكس أو كاثوليك أو غيرهم؟

وقد رددتُ على هذه الشُّبهات واحدة واحدة بالتفصيل الملائم، معتمدًا على منطق العلم والعقل الَّذي علَّمناه الإسلام، والحمد لله، لقد تهاوت شُبهات العِلمانيِّين والمتغرِّبين أمام بيِّنات الحلِّ الإسلامي، وحُجَج الإسلاميِّين.

ولقد تبيَّنتُ من قراءة ما يكتبه دعاة العِلمانيَّة والتغريب في أوطاننا: أنَّ العِلمانيِّين يحاولون أنْ يغالبوا الإسلاميين بالتهويل والتضليل، والإرهاب الفكري والنفسي، إنَّهم يلقون حبالهم وعِصِيَّهم معتمدين على الغرب وقوته، ومساندته لهم، قائلين: ﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، يريدون أنْ يسحروا أعين الناس ويسترهبوهم، وربَّما أوجس بعض الإسلاميين خيفة، من كثرة حبالهم وعصيهم، وربَّما خُيِّل إليهم من سحرهم أنَّها تسعى! حتَّى إذا ما حلَّلوا هذه الشُّبهات في ضوء العلم والبرهان علموا أنَّها كيد ساحر، ولا يُفلح الساحر حيث أتى.

وصدق الله العظيم: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۞ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١، ٨٢].

QaradawiBooks.com

وصدق الشاعر الَّذي قال:

إِذَا جَـاءَ مُوسَـى وَأَلْقَـى الْعَصَا فَقَدْ بَطَلَ السِّـحْرُ وَالسَّـاحِرُ[1]!

وقد سبق هذا الكتابَ كتابٌ آخر هو أخ له، يردُّ على العِلمانيِّين عامَّة، وعلى الدكتور فؤاد زكريا خاصَّة، وهو كتاب «الإسلام والعِلمانيَّة وجهًا لوجه» وكلاهما يتمِّم الآخر، ويشُدُّ عضد أخيه.

وإنْ كانت مادة هذا الكتاب ـ في معظم فصوله ـ قد أعِدَّت من زمن طويل، وبعضها نُشِر منذ بضعة عشر عامًا، منه ما نُشِر في مجلة «الشهاب» اللبنانية، وما نُشِر في مجلة «منار الإسلام» الظبيانيَّة، وفي مجلة «الأزهر» المصريَّة، وفي مجلة «الدوحة» القَطَريَّة، وكان الفصل المتعلق بالدولة الدينيَّة هو الَّذي لم أكتبه إلَّا مؤخرًا، كما أضفتُ الفصل المتعلق بالحدود. وكم من كتب عندي شبه مكتملة لا ينقصها إلَّا جزء يسير، ربما كان فصلًا أو بعض فصل، أحاول أنْ أكملها، فتأبى الواجبات الآنية، والمشاغل العارضة، إلَّا أنْ تؤخرها إلى حين، حتَّى يوفق الله لإتمامها، وكلُّ شيء بأجلٍ مسمَّى.

وأودُّ أنْ أوضح نقطة هنا فهمها بعض الناس على غير ما أريد، وهي معنى «الحلِّ المستورَد» الَّذي أنكره. إنَّني لا أعني الحل الجزئي لمشكلة من المشكلات الَّتي تشكو منها مجتمعاتنا، مثل مشكلة المواصلات أو الإسكان، أو غلاء الأسعار، أو انتشار المخدِّرات، أو ضعف الإنتاج الحيواني أو الزراعي أو السمكي، أو تسيُّب العاملين في المؤسسات العامَّة، أو نحو ذلك من الآفات الَّتي ابتُلينا بها ولم نفتأ نشكو من ويلاتها.

(١) ذكره الثعالبي ولم ينسبه في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب صـ ٣١، نشر دار المعارف، القاهرة.

QaradawiBooks.com

فإذا وجدنا حلًّا لمشكلة من هذه المشـكلات في دولة من الدول، رأسماليَّة كانت أو شيوعيَّة، فلا يوجد مانع في شـريعتنا أنْ نستفيد من هذا الحل، وأنْ نقتبس ممَّا عند القوم.

وهذا ما ذكرته بوضوح فـي الجزء الثاني من هذه السلسـلة «الحلُّ الإسلامي فريضة وضرورة» وبيَّنتُ مشروعيَّة الاقتباس وحدوده، ورددتُ على الَّذين يرفضون أي فكرة جزئيَّة تقتبس من أي نظام آخـر، مثل فكرة الانتخاب والاستفتاء، وصولًا إلى أهل الشـورى أو أهل الحل والعقد، وفكرة الترجيح بالأكثريَّة العدديَّة في الأمور المباحة، وغيرها، ممَّا يمكن أخذه من الديمقراطيَّة.

كل ما هو مطلـوب هنا أنْ نقتبس ما يلائمنـا، وأنْ نصبغه بصبغتنا، ونُضفي عليه من روحنا وحضارتنا ما يجعله جزءًا من كياننا الحضاري، ويفقده جنسيَّته الأولى، ويكسبه الجنسيَّة الإسلاميَّة[1].

وقد زدتُ هذا الأمر بيانًا في هـذا الجزء في فـصـل «إسلامٌ متطوِّرٌ أم تطوُّرٌ مسـلم» حتَّى ذكـرتُ أنَّه يجوز لنـا أنْ نأخذ مـن نظريَّات أمثال «ماركـس» أو (فـرُويِـد» أو «دوركايـم» ما نرى أنَّه لم يَحِـدْ فيه عن الصواب، وإن كنَّا لا نقبل فلسفته الكُلِّيَّة.

ومن ثَمَّ يتبيَّن للقارئ المتفحِّص أنَّ «الحلَّ المستورد» الَّذي نرفضه هو «الحلُّ الكامل» الَّذي يتبنَّى منهجًا، أو اتجاهًا معيَّنًا، يمينيًّا أو يساريًّا، بأصوله النظريَّة، وجذوره الفلسـفية، وهذا ما قصدتـه، وما لا يُفهم من كلامي غيره لمَن قرأه كلَّه، ولم يكتفِ بأنْ يغترف منه غرفة بيده.

(١) انظر كتابنا: الحل الإسـلامي فريضة وضرورة صـ ٨٦ ـ ٩٠، تحت عنـوان: متى يجوز لنا الاقتباس من غيرنا، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٦، ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

على كلِّ حال، لقد أصبح مفهوم «الحلِّ الإسلامي» واضحًا بيِّنًا، وأصبحت كلمة «الحلِّ الإسلامي» مصطلحًا شائعًا، في كتابات كثير من الإسلاميين وغير الإسلاميين، بل نقل بعضهم عنوان السلسلة، وهو «حتميَّة الحلِّ الإسلامي» وجعلها عنوانًا لكتاب، كما أنَّ مصطلح «فريضة وضرورة» قد نقله كثيرون، واتخذت بعض الكتب عنوانًا له.

ولا يضيرنا ذلك، وإنْ كنَّا نودُّ أنْ يُنسب الشيء إلى أهله، كما قال سَلَفنا: «من بركة القول أنْ يُعْزَى إلى قائله».

ولا يسعنا بعد ذلك إلَّا أن نحمد الله الَّذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وندعوه تعالى أن يهدي أصحابنا المرتابين والمشككين في الحل الإسلامي، من دعاة العِلمانيَّة، الليبرالية والماركسيَّة، وأنْ يشرح صدورهم حتَّى يسمعوا ما نقول، ويقرؤوا ما نكتب، ولا يقولوا ما قال الأوَّلون: «قلوبنا في أَكِنَّة ممَّا تدعوننا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينكم حجاب»[1]! وحتَّى يقرؤوا ـ إذا قرؤوا ـ بعقليَّة الباحث عن الحقِّ، ويحكموا بروح مَنْ يتحرَّى العدل، ويسلكوا سلوك مَنْ يرجو الله والآخرة، ولا يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي

(١) ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

QaradawiBooks.com

الدِّين في عصر العلم

ينفر بعض الناس من الحل الإسلامي، لا لشيء إلَّا لأنَّه حل يعتمد على الدين، ويستند إلى الوحي، وهذا وحده كافٍ عندهم للإعراض عن هذا الحل، فنحن في عصر العلم، لا في عصر الدين، فقد أدَّى الدين ـ في رأيهم ـ دورَه، ولم يعد له في الحياة الحديثة مكان!

حُجَّة هؤلاء:

أولًا: أنَّ الحضارة لا قيام لها إلَّا بالعلم، والدين يعادي العلم، والغرب الحديث لم يبلغ ما بلغ من الرقي إلَّا حينما رفض منطق الدين، وآمن بمنطق العلم.

فإذا أردنا أنْ نجاري الغرب في مدنيَّته وحضارته، فعلينا أنْ نسير سيره، ونخلع رِبقة الدين من أعناقنا، وإلَّا بقينا في نطاق التخلُّف والانحطاط.

ثانيًا: التسليم بما ذهب إليه فيلسوف المدرسة الوضعيَّة الفرنسيَّة «أوجست كونت» من القول بقانون الأدوار الثلاثة الَّتي بدأت بالدِّين، وثنَّت بالفلسفة، وانتهت بالعلم، وهو غاية المطاف.

QaradawiBooks.com

ثالثًا: ترديد ما قاله «ماركس»: إنَّ الدِّين أَفْيون الشعب. فيتعيَّن منعه ومقاومته حتَّى يتخلَّص الشعب من الخنوع والتسليم والإذعان، وينهض للمطالبة بحقوقه، ويثور على الأوضاع الظالمة الفاسدة.

الحضارة والعلم:

أمَّا أنَّ الحضارة لا قيام لها إلَّا بالعلم، فهذا صحيح. وأما الربط بين قبول منطق العلم ورفض منطق الدين، واعتقاد أنَّ الدين يعادي العلم، فهذا غير صحيح.

الدين الَّذي عادى العلم، ووقف في وجهه، وحكم على رجاله بالموت أو بالحرمان من ملكوت السماء، هو دين الكنيسة الغربيَّة، الَّتي حجرت على الفكر، وعارضت العلم، وتبنَّت نظريَّات علميَّة قديمة أضفت عليها القداسة والعصمة، وحاربت كلَّ مَن انتهى بحثه إلى مخالفتها، ورمته بالزندقة والإلحاد.

هذا موقف دين الكنيسة، ولا أقول دين المسيح.

موقف الإسلام من العلم:

أما الإسلام، فهو دين قام منذ بزغ فجره على احترام العقل، والدعوةِ إلى النظر والتفكر في الأنفس والآفاق، في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، وخصوصًا أنَّ الله سخَّر للإنسان ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، كما قام على رفض كل دعوى بغير برهان، والإنكار على التبعية والتقليد، وعلى اتِّباع الظنون والأهواء، وتجريم السحر والكهانة والعرافة وما يلحق بها من الأباطيل، وإلى جوار ذلك الإشادة بالعلم والعلماء، وتفضيل درجة العلم على درجة العبادة،

QaradawiBooks.com

والترحيب بكلِّ علمٍ نافع دينيًّا كان أو دنيويًّا، بل فرضه فرض كفاية على الأُمَّة بقدر ما يحتاج إليه المسلمون، وأخذ الحكمة من أيِّ وعاءٍ خرجت. وبهذه المبادئ والتوجيهات الرائدة، صنع الإسلام «المناخ» النفسي والاجتماعي لازدهار العلم، وقيام حياة علميَّة مضيئة الجنبات.

و«العقلانيَّة» في الإسلام أمرٌ اعترف به كلُّ منصفٍ، ولو كان من خصوم الإسلام أنفسهم.

فهذا الكاتب الماركسي «مكسيم رودنسون» يقول في حديثه عن «العقيدة القرآنيَّة»: «القرآن كتاب مقدس تحتل فيه العقلانيَّة مكانًا جدُّ كبير. فالله لا ينفكُّ فيه يناقش ويقيم البراهين. بل إنَّ أكثر ما يلفت النظر هو أنَّ الوحي نفسه ـ هذه الظاهرة الأقل اتسامًا بالعقلانيَّة في أي دين، الوحي الَّذي أنزله الله على مختلف الرسل عبر العصور، وعلى خاتمهم محمَّد ـ يعتبره القرآن هو نفسه أداةً للبرهان، فهو في مناسبات عديدة يُكرِّر لنا أنَّ الرسل قد جاؤوا بـ «البيِّنات»... وهو لا يألو يتحدَّى معارضيه أنْ يأتوا بوحي مثله.

والقرآن ما ينفك يقدِّم البراهين العقلانيَّة على القدرة الإلٰهيَّة: ففي خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتوالد الحيوان، ودوران الكواكب والأفلاك، وتنوُّع خيرات الحياة الحيوانيَّة والنباتية، تنوعٌ رائع التطابق مع حاجات البشر: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠][1].

(١) كان الأولى الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ =

QaradawiBooks.com

وفعل «عَقَل» (بمعنى: رَبَط الأفكار بعضها ببعض، حَاكَم، فَهِم البرهان العقلي) يتكرَّر في القرآن حوالي خمسين مرَّة، ويتكرَّر ثلاث عشرة مرَّة هذا السؤال الاستنكاري، وكأنَّه لازمة: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟!، والكفَّار أولئك الَّذين يرفضون الاستماع إلى دعوة محمد، يوصفون بأنَّهم: ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ لأنَّهم قاصرون عن أيِّ جهدٍ عقليٍّ يهزُّ تقاليدهم الموروثة، وهم بهذا كالعجماوات والأنعام، بل أكثر عُجمة.. ولذلك يكره الله هؤلاء الناس الَّذين لا يريدون أن يعيدوا النظر في أسس تفكيرهم.

ولئن كان ـ يعني الله سبحانه ـ يرسل الآيات الدالَّة على وجوده وإرادته، وأهمها الآيات المنزَّلة على نبيِّه محمد، فلكي يفهمها الناس، ويجعلوا منها أساسًا لتفكيرهم، ونرى الله يقدِّم البيِّنة الفاصلة، ثمَّ يختتم البرهان بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]».

ويستمر الكاتب في بيان عقلانيَّة الإسلام مقارنًا هذه بما جاء في العهدين القديم والجديد، لليهود والمسيحيين، إلى أن يقول: «في مقابلة هذا تبدو «العقلانيَّة القرآنيَّة» صلبة كأنَّها الصخر»[1].

ومثل هذا المناخ العقلي الَّذي صنعته آيات القرآن ـ كما اعترف به الفكر الماركسي وغيره ـ يشكِّل أخصب بيئة لإنتاج علمي مثمر، قائم على استخدام أقصى الطاقات والمواهب البَشريَّة.

ولكنَّا نضيف إلى ما ذكر أمورًا مهمة في موقف الإسلام من العلم، منها:

= ﴿يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. فهي المطابقة لكلام المؤلِّف هنا، ويبدو من كلام المؤلف: أنَّه تتبع مادة: (عقل) فقط في القرآن، ولو تتبع كلمات أخرى في الموضوع مثل: (نظر) و(تفكر) و(فقه) و(علم) و(برهان) و(لُب) ونحوها لخرج بشيء كثير، وكثير جدًّا.

(١) انظر: الإسلام والرأسمالية صـ ١٣٤ وما بعدها، فصل: العقيدة القرآنية، ترجمة نزيه الحكيم، نشر دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

QaradawiBooks.com

١ ـ إشارة القرآن إلى استخدام «التخطيط» في السياسة الاقتصادية والتموينية للدولة، كما هو واضح في «الخطَّة الخمس عشريَّة» من قصَّة يوسف الصِّدِّيق عليه السلام في القرآن الكريم، وكيف كانت هذه الخطة الحكيمة سببًا في إنقاذ مصر وما حولها من الأقطار من مجاعة مهلكة. فليس التخطيط ـ إذن ـ منافيًا لعقيدة الإيمان بالقَدَر، كما يفهم بعض السطحيِّين[١].

٢ ـ استخدام النبي ﷺ لأسلوب «الإحصاء» منذ عهد مبكِّر من حياة المسلمين في المدينة، فقد روى البخاري: أنَّه ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة أمر بعض أصحابه أن يُحصوا له عدد الَّذين يلفظون بالإسلام. فأحصوهم، فكان عددُهم خمسمائة وألفًا[٢].

وبهذا نعلم أنَّ «الإحصاء» أسلوب إسلامي أصيل، وليس سلعة مستوردة من الغرب.

٣ ـ إقراره صلوات الله وسلامه عليه، لمبدأ التجربة في الأمور الدنيويَّة، والأخذ بنتائجها، وإنْ كانت مخالفة لرأيه ﷺ، كما وقع ذلك في حادثة تأبير النخل، وقوله لهم في ذلك: «**أنتم أعلمُ بأمرِ دُنْياكم**»[٣].

٤ ـ تشجيع الاقتباس، وأخذ النافع من الغير، في الأمور «التِّقْنِيَّة» والدنيويَّة، الَّتي لا تتعلَّق بالعقائد والقِيَم والآداب والشرائع ونحوها، ممَّا تتمايز به المجتمعات «الأيديولوجيَّة» بعضها عن بعض. ولهذا أخذ الرسول ﷺ برأي سلمان في حفر الخندق حول المدينة، مع أنَّه

(١) انظر: الإسلام والمنهج العلمي للدكتور عبد العزيز كامل صـ ١٧ ـ ٢٢، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٧٠م.
(٢) رواه البخاري في الجهاد (٣٠٦٠)، عن أبي حذيفة.
(٣) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

من أساليب الفُرس[١]، وصنع له نجَّار رومي منبرًا يخطب عليه[٢]. وقد رُوي عنه قوله عليه الصلاة والسلام: «**الحكمة ضالَّة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحقُّ بها**»[٣].

٥ ـ إشادة القرآن الكريم بقيمة الصناعة ودورها في الحياة، حتَّى إنَّ رسل الله والمصطَفَيْن الأخيار من عباده كانوا أصحاب حِرَف وصناعات أتقنوها وتفوَّقوا فيها. فنوح شيخ المرسلين يصنع السفن، وإبراهيم أبو الأنبياء وابنه إسماعيل بنَّاءان يرفعان القواعد من البيت «الكعبة»، وداود يصنع الدروع ويلين له الحديد، وسليمان يسيل الله له عين القِطْر، ويُسخِّر له الجنَّ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، وذو القرنين يقيم السدَّ العظيم من الحديد والنحاس المُذاب[٤].

وهذا كلُّه يبيِّن لنا طبيعة «المناخ» الَّذي هيَّأه الإسلام لظهور «المنهج العلمي» السليم، الَّذي لم يملك باحثو الغرب أن ينكروه.

يقول العلَّامة «رينيه ميليه»: «لقد جاء المسلمون بمبدأ في البحث جديد، مبدأ يتفرَّع من الدين نفسه، هو مبدأ التأمُّل والبحث، وقد مالوا

---

(١) تاريخ الطبري (٥٦٦/٢)، نشر دار التراث، بيروت، ط ٢، ١٣٨٧هـ.

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: أرسل رسول الله ﷺ إلى امرأة من الأنصار: «انظري غلامك النجار، يعملْ لي أعوادًا أُكلِّم الناس عليها». فعمل هذه الثلاث درجات. رواه البخاري في الجمعة (٩١٧)، ومسلم في المساجد (٥٤٤)، عن سهل بن سعد الساعدي.

(٣) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٧)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه. وابن ماجه في الزهد (٤١٦٩)، وضعَّفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٠٦)، عن أبي هريرة. ولكن معناه صحيح بالإجماع.

(٤) انظر كتابنا: الرسول والعلم صـ ٤٢ ـ ٦١، فصل: الرسول والعلم التجريبي، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

إلى العلوم وبرعوا فيها، وهم الَّذين وضعوا أســاس علم الكيمياء، وقد وجد فيهم كبار الأطباء»[١].

ويقول الدكتور «فرنتو رونثال»: «إن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبــدو لنا جليًّا في حقــل المعرفــة التجريبيَّة، ضمن دائــرة ملاحظاتهم واختباراتهم، فإنَّهم كانوا يبدون نشاطًا واجتهادًا عجيبين، حين يلاحظون ويمحِّصون، وحين يجمعون ويرتِّبون ما تعلَّموه من التجربة».

ويقول المؤرخ الفيلســوف الاجتماعي الشهير «جوستاف لوبون»: «إنَّ العرب هم الَّذين عَلَّموا العالَم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين»[٢].

أثر العلم الإسلامي في الحضارة:

ولا عجب أنْ قامت في هذا المناخ حضارة سامقة الذُّرا، جمعت بين العلم والإيمان، ومزجــت بين الدِّيــن والدنيا، حتَّى إنَّ أوربــا لم تُقِم نهضتها العلميَّة إلَّا حين مسَّها قبسٌ من نور هذه الحضارة، أخرجها من ســجن التقليد والدوران حول القديم، من القياس الأرســطي، والمنطق الصوري، إلى باحة الكشف والاستقراء والملاحظة والتجربة، وكل ذلك من أثــر المنهج العلمي الإســلامي الَّذي اكتشــفه المســلمون متأثرين بالإسلام قبل أي شيء آخر.

يقول المؤرخ والفيلسوف الاجتماعي الفرنســي الدكتور «غوستاف لوبون» في فصــل له عن «مناهج العــرب العلميَّة» مــن كتابه «حضارة

(١) من خطبة لمسيو رينيه ميليه، ألقاها في مؤتمر إفريقيا الشمالية بباريس، نقلًا عن مجلة المنار للعلامة محمد رشيد رضا (٨١٨/١١).

(٢) نقلًا عن الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للأستاذ الإمام محمد عبده صـ ٨٦، نشر دار المنار، ط ٨، ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

QaradawiBooks.com

العرب»: «ليست المكتبات والمختبرات والآلات غيرَ وسائلَ للدرس والبحث، وتكون قيمتها في معرفة الاستفادة منها، وقد يستطيع المرء أنْ يكون مطَّلِعًا على علوم الآخرين، وقد يبقى عاجزًا عن التفكير وابتداع أي شيء مع ذلك، فيظل تلميذًا غير قادر على الارتقاء إلى درجة أستاذ، وسيبدو من الاكتشافات الَّتي نذكرها في الفصول الآتية، مقدار ما اكتشفه العرب بما لديهم من وسائل الدرس.

والآن أقتصر على ذكر المبادئ الأربعة الَّتي وجَّهت أبحاثهم:

لم يلبث العرب بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان أنْ أدركوا أنَّ التجربة والترصُّد خيرٌ من أفضل الكتب، وعلى ما يبدو من ابتذال هذه الحقيقة، جَدَّ علماء القرون الوسطى في أوربا ألف سنة قبل أن يعلموها.

ويُعْزَى إلى «بيكون» على العموم أنَّه أوَّل مَن أقام «التجربة» و«الترصُّد» اللَّذَيْن هما ركن المناهج العلميَّة الحديثة مقام الأستاذ، ولكن يجب أنْ نعترف اليوم بأنَّ ذلك كله من عمل العرب وحدهم. وقد أبدى هذا الرأي جميع العلماء الَّذين درسوا مؤلَّفات العرب، ولا سيما «هَنبولْد» فبعد أن ذكر هذا العالِم الشهير أنَّ ما قام على التجربة والترصُّد هو أرفع درجة في العلوم قال: «إنَّ العرب ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة الَّتي كان يجهلها القدماء تقريبًا».

وقال «مسيو سيديُّو»: «إنَّ أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد في البداءة: هو روحها العلميَّة الصحيحة الَّتي كانت سائدة لأعمالها، وكان استخراج المجهول من المعلوم، والتدقيق في الحوادث تدقيقًا مؤدِّيًا إلى استنباط العلل من المعلولات، وعدم التسليم بما لا يثبت بغير تجربة، مبادئ قال

QaradawiBooks.com

بها أساتذة من العرب، وكان العرب في القرن التاسع من الميلاد حائزين لهذا المنهاج المجدي الَّذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الاكتشافات».

قام منهاج العرب على التجربة والرصد، وسارت أوربا في القرون الوسطى على درس الكتب، والاقتصار على تكرار رأي العلم، والفرق بين المنهجين أساسي، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلميَّة إلَّا بتحقيق هذا الفرق.

واختبر العرب الأمور وجرَّبوها، وكانوا أوَّل مَن أدرك أهميَّة هذا المنهاج في العالَم، وظلوا عاملين به وحدهم زمنًا طويلًا، قال «دولَنْبِر» في كتاب «تاريخ علم الفلك»: «تَعدُّ راصدين أو ثلاثة بين الأغارقة، وتَعدُّ عددًا كبيرًا من الرُّصَّاد بين العرب». وأما في الكيمياء فلا تجد مجرِّبًا يونانيًّا، مع أنَّ المجرِّبين من العرب فيها يُعَدُّون بالمئات.

ومنح اعتماد العرب على التجربة مؤلفاتِهم دقَّةً وإبداعًا، لا يُنتظر مثلهما من رجل تعوَّد درس الحوادث في الكتب، ولم يبتعد العرب عن الإبداع إلَّا في الفلسفة، الَّتي كان يتعذَّر قيامها على التجربة.

ونشأ عن منهاج العرب التجريبي وصولهم إلى اكتشافات مهمة، وسنرى من مباحثنا في أعمال العرب العلميَّة أنَّهم أنجزوا في ثلاثة قرون أو أربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حقَّقه الأغارقة في زمن أطول من ذلك كثيرًا، وكان تراث اليونان العلمي قد انتقل إلى البيزنطيين الَّذين عادوا لا يستفيدون منه منذ زمن طويل، ولما آل إلى العرب حوَّلوه إلى غير ما كان عليه، فتلقَّاه ورثتهم مخلوقًا خلقًا آخر.

QaradawiBooks.com

ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، فالعرب قد نشروها كذلك بما أقاموا من الجامعات، وما ألَّفوا من الكتب، فكان لهم الأثر البالغ في أوربا من هذه الناحية، وسترى في الفصل الَّذي ندرس فيه هذا التأثير أنَّ العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم النصرانية لمدة قرون، وأنَّنا لم نطَّلع على علوم قدماء اليونان والرومان إلَّا بفضل العرب، وأنَّ التعليم في جامعاتنا لم يستغنِ عما نُقِل إلى لغاتنا من مؤلفات العرب إلَّا في الأزمنة الحاضرة»[1].

وممَّا لا ينازع فيه أحد أنَّ العرب قبل الإسلام لم يكن لهم اهتمام كبير بالجانب العلمي، لغلبة الجانب الأدبي، والاهتمام بفنون القول عليهم.

فهذا الاتجاه العلمي الَّذي نوَّه به مؤرخو الحضارة الإسلاميَّة العربيَّة، إنَّما هو من صنع الإسلام، الَّذي حثَّهم على البحث والتأمل في آيات الله في الأنفس والآفاق، والنظر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، وهيَّأ ـ قبل ذلك ـ المناخ النفسي والعقلي الَّذي ازدهر فيه العلم هذا الازدهار.

فإذا كان مؤرخو العلم الأوربيون قد أنكروا فضل العرب الفلسفي، فإنَّهم لم يستطيعوا إنكار فضلهم العلمي، وإن كان الكثيرون منهم يعترفون به على أساس أنَّه نتيجة لعلوم اليونان. وليس هنا مجال مناقشة هؤلاء.

ونحن نعلم أنَّ أفكار «الحسن بن الهيثم» في علم «البصريَّات» عاشت في أوربا إلى زمان ليس ببعيد عنَّا، كما نعلم أنَّ أبحاث «الطوسي» في «الرياضيَّات» وتناوله لهندسة «إقليدس» ومعادلاته، بقيت زمنًا طويلًا

(١) حضارة العرب صـ ٤٣٥ ـ ٤٥٣، ترجمة عادل زعيتر، نشر عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط ٣، ١٩٥٦م.

QaradawiBooks.com

يتناولها علماء أوربا، وكذلك كتاب «ابن سينا» الطِّبِّي «القانون» بقي المرجع الأساسي لكليات الطب في أوربا حتَّى القرن السابع عشر.

وما زالت عناية الباحثين بالعلم العربي الإسلامي قائمة على أشدِّها، مهتمين ببيان مكانته في التراث العلمي العالَمي، وممَّن وجَّه الأنظار إلى قيمة هذا العلم مؤرخ تاريخ العلم الإنساني الأستاذ «جورج سارتون».

وقد لفت الأستاذ الدكتور «علي سامي النشار» الأنظار إلى أعمال هذا الباحث الكبير، وعلى الأخص في كتابه الممتاز: «تاريخ العلم».

فقد عرض في مواضع متعددة من هذا الكتاب لأهميَّة العلم العربي ـ الإسلامي ـ في العصور الوسطى، وقرر: أنَّ أعظم النتائج العلميَّة لمدة أربعة قرون إنَّما كانت صادرة عن العبقرية الإسلاميَّة.

كما بيَّن أيضًا: أنَّ معظم الأبحاث العلميَّة الممتازة ـ خلال هذه القرون الأربعة ـ إنَّما تمَّت في لغة العلم الكبرى حينئذٍ، وهي اللغة العربيَّة[1].

ويذكر الدكتور «النشَّار» في كتابه القيم «مناهج البحث عند مفكري الإسلام، واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي» نتيجتين هامَّتين لبحثه كله: «الأولى: أنَّ المُفَكِّرين المسلمين الحقيقيين، الممثلين لروح الإسلام لم يقبلوا المنطق الأرسطي الصوري؛ لأنَّه يقوم على المنهج القياسي، ولا يعترف بالمنهج الاستقرائي أو التجريبي.

(١) انظر: مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي للدكتور علي سامي النشار صـ ٣٢٧ ـ ٣٤٩، نشر دار النهضة العربية، بيروت، ط ٣، ١٩٨٤م، كما نبَّه د. النشار على كتاب: العلم القديم والمدنية الحديثة لجورج سارتون صـ ٧٨، ٧٩، ١٢٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ومواضع أخرى متعددة، ترجمة د. عبد الحميد صبرة، نشر المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط ١، ٢٠١٠م.

QaradawiBooks.com

والنتيجة الثانية: أنَّ المسلمين قد وضعوا هذا المنهج العلمي بجميع عناصره، وكانت أسبانيا هي المَعْبَر الَّذي انتقل خلاله من العالَم الإسلامي إلى أوربا.

وينقل مُفَكِّر الهند الكبير المرحوم الدكتور «محمَّد إقبال» عن «دوهرنج» قوله: «إنَّ آراء «روجر بيكون» عن العلم أصدق وأوضح من آراء سَلَفه. ومن أين استمدَّ «روجر بيكون» دراسته العلميَّة؟ من الجامعات الإسلاميَّة في الأندلس».

ويُقَرِّر الأستاذ «بريفولت» في كتابه «بناء الإنسانيَّة» أنَّ «روجر بيكون» درس العلم العربي دراسة عميقة، وأنَّه لا يُنسب له ولا لسَمِّيه الآخر «فرنسيس بيكون» أي فضل في اكتشاف المنهج التجريبي في أوربا. ولم يكن «روجر بيكون» في الحقيقة إلَّا واحدًا من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوربا المسيحيَّة.

ولم يكفَّ «روجر بيكون» عن القول بأنَّ معرفة العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة الحقَّة لمعاصريه.

ثم يذكر أنَّه ليست هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربي لم يكن للثقافة الإسلاميَّة تأثير أساسي عليها. ولكنَّ أهمَّ أثر للثقافة الإسلاميَّة في العلم الأوربي هو تأثيرها في «العلم الطبيعي» و«الروح العلمي»، وهما القوتان المميِّزتان للعلم الحديث، والمصدران الساميان لازدهاره.

ويُقَرِّر «بريفولت» في حسم وإصرار: إنَّ ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس هو ما قدَّموه لنا من اكتشافهم لنظريَّات مبتكرة غير ساكنة. إنَّ العلم يدين للثقافة العربيَّة بأكثر من هذا، إنَّه يدين لها بوجوده.

QaradawiBooks.com

إنَّ ما ندعوه بالعلم، ظهر في أوربا نتيجة لروح جديدة في البحث، ولطرق جديدة في الاستقصاء، طرق التجربة والملاحظة والقياس، ولتطوُّر الرياضيات في صورة لم يعرفها اليونان. وهذه الروح، وتلك المناهج إنَّما أدخلها العرب إلى العالَم الأوربي»[١].

الإسلام يوحِّد بين الدين والعلم:

وبهذا يتضح لنا أن لا مجال في الإسلام لدعوى التعارض أو العداوة بين الدين والعلم؛ فالدين في الإسلام علم، والعلم فيه دين. كما تشهد بذلك أصول الإسلام وتاريخه جميعًا. فالدين في الإسلام علم؛ لأنَّه لا يعتمد على الوجدان وحده، بل يقوم على النظر والتفكير ورفض التقليد الأعمى، والاعتماد على البرهان اليقيني، لا على الظَّنِّ واتِّباع الهوى.

والعلم في الإسلام دين؛ لأنَّ طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة، وهو فريضة عينية أو كفائية، تبعًا لحاجة الفرد أو حاجة المجتمع. والاشتغال بالعلم النافع ـ دينيًّا كان أم دنيويًّا ـ عبادة وجهاد في سبيل الله، وهذه حقيقة شهدها وشهد بها كثير من الباحثين والمؤرخين الغربيِّين. ولا بأس أنْ نذكر هنا بعض هذه الشهادات تأكيدًا وتثبيتًا لمن تهمُّهم أقوال الغربيِّين.

يقول العلَّامة «هورتن»: «في الإسلام وحده تجد اتحاد الدين والعلم، فهو الدين الوحيد الَّذي يوحِّد بينهما، فتجد فيه الدين ماثلًا متمكنًا في دائرة العلم، وترى وجهة الفلسفة ووجهة العلم متعانقتين، فهما واحدة لا اثنتان»[٢].

(١) مناهج البحث عند مفكري الإسلام صـ ٣٥٦، ٣٥٧.

(٢) انظر: استعداد الإسلام لقبول الثقافة الروحية للمستشرق الألماني هورتن صـ ٩، نقلًا عن مجلة المنار (١٤٠/٣٠) مقال شهادات علماء الغرب المنصفين للسيد محمد رشيد رضا.

QaradawiBooks.com

ويقول «إتيان دينيه»: «إنَّ العقيدة الإسلاميَّة لا تقف عقبةً في سبيل الفكر، فقد يكون المرء صحيح الإسلام، وفي الوقت نفسه حرَّ الفكر، ولا تقتضي حرية الفكر أن يكون المرء منكرًا لله. لقد رفع «محمَّدٌ» قَدْر العلم إلى أعظم الدرجات، وجعله من أوَّل واجبات المسلم.

ويقول: «يوزن يوم القيامة مِدَادُ العلماء بدماء الشهداء»[١]. ورفع فضل العلم على فضل العبادة»[٢].

مشكلة التعارض بين الدِّين والعلم وأين نشأت؟

وإذا كان هذا موقف الإسلام من العلم، فمن أين نشأت مشكلة التعارض بين العلم والدِّين؟

الحقيقة كما يقول الإمام الأكبر الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود: «إنَّ مشكلة التعارض بين الدين والعلم، إنَّما نشأت في أوربا بعيدة عن الجو الإسلامي. إنَّها تصوِّر نزاعًا في بيئة بعيدة كل البُعد عن الروح الإسلاميَّة، الَّتي حثَّت الإنسانيَّة على التعليم والتعلم، والتي نشأ المنهج العلمي ـ الَّذي يعتبرونه حديثًا ـ بين ربوعها، قديمًا بقدمها، والتي أنشأت على أساس من هذا المنهج حضارةً ضخمة، لا تزال تكشف كل يوم الكثير من أنحائها العميقة.

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٥٣)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م. وضعَّف إسناده العراقي في تخريج إحياء علوم الدين صـ ١٣، عن أبي الدرداء. والغالب أنْ يكون هذا من كلام أبي الدرداء، وليس مرفوعًا إلى النبي الكريم.

(٢) كحديث: «فضل العالِم على العابد كفضلي على أدنى رجلٍ من أصحابي». رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٥)، وقال: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٣)، عن أبي أمامة.

QaradawiBooks.com

وما من شـــكٍّ في أنَّ الحضارة الإســـلاميَّة هي ـ كما يقول الأستاذ «بريفولت» ـ الَّتي قَدَّمت إلى الحضـــارة الغربيَّة الحديثة المنهج العلمي وأصول العلم نفسه، أي الحقائق المكتشفة في المجالات المختلفة.

والأمر العام الَّـــذي نريد أنْ ننبِّه عليه، هو: أنَّ مســـألة التعارض بين الدين والعلم، إنَّما هي مسألة وهمية إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر:

ذلك أنَّ العلم وممثليه الحقيقيين: يعترفون في صراحة لا لَبْس فيها، وفي وضوح لا خفاء فيه: بأن دائرة أبحاثهم، إنَّما هي المادَّة، وإنَّما هي المُحَسُّ، وأنَّهم يعتمدون في ذلك على التجربة، وعلى الملاحظة. إنَّهم يعتمدون على الاســـتقراء على وجه العموم، وليس الاســـتقراء إلَّا تتبع جزئيَّات محسَّة، تتبعها بالملاحظة، أو بإجراء التجارب عليها. والمنهج العلمي إذن: إنَّما هو منهج لمعرفة كيفيَّات المادَّة، وإذا ما خرج الأمر عن دائرة المادَّة، فقد خرج عن دائرة العلم.

وعلى هذا الأســـاس: فليس للعلم مطلقًا دخل في أمور الدين، إثباتًا وإقرارًا، أو نفيًا وإنكارًا، وإذا ما قال قائل: إنَّ العلم يُثبت كذا من الأمور الروحيَّة. فإنَّـــه يكفينا منه هذه الكلمة، لنســـحب ثقتنا بـــه كعالم. وإذا ما قال: إنَّ العلم ينكر كذا من الأمور الرُّوحيَّة. فـــإنَّ هذه الكلمة تكفي أيضًا لسحب ثقتنا به كعالم؛ إذ إنَّ العلم في المجال الروحي، لا يثبت أو لا ينفي، وهذا واضح ممَّا سبق أنْ ذكرناه.

ومع ذلك فقد يتيح العلم بأبحاثه في ارتباط الكون وتنسيقه وإبداعه، والتناغم الَّذي يســـوده، والدقائق الباهـــرة الَّتي يبيِّنها «علم التشـــريح» ـ مثلًا ـ في التركيب الحيواني، قد يتيح العلم من كل ذلك لعلماء الدين موادَّ يبنون عليها تذكيرهم وعظاتهـــم، وبيانهم: أنَّ العالم لم يكن نتيجة

QaradawiBooks.com

الصدفة العمياء أو الاتفاق الأصم، يبينون من نتائج العلم أنَّ الآيات في مجال المادَّة نفسها تشهد أنَّها من صنع الله الَّذي أتقن كلَّ شيء: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]»[1].

العلوم لا تعارض الدين، بل تخدمه من جهتين:

ويزيد أستاذنا المرحوم الدكتور محمَّد عبد الله دراز هذا الأمر إيضاحًا حين يتحدَّث عن مراتب العلوم من حيث مقوِّمات موضوعاتها، فيبيِّن أن لا اشتراك بين الدِّين والعلم في موضوعٍ ما، ولهذا لا يعقل التعارض بينهما، وإنَّما يُتصوَّر التفاهم وحُسن الجوار على الأقلِّ، إن لم يكن التعاون والتضامن.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه القيِّم «الدِّين»: «ولو أنَّنا أخذنا في تصنيف موضوعات العلوم، لا باعتبار شرف غايتها المباشرة، بل بحسَب مقوِّماتها النوعيَّة، وتكامل عناصرها بالازدياد التدريجي، لحصلنا بينها على هذا الترتيب التصاعدي نفسه، إذ نرى كلَّ واحدٍ منها يحتوي ما قبله ويزيد عليه عنصرًا جديدًا: فالحياة النباتية تستلزم وجود الجسم بأجزائه، وجزئيَّاته، وعناصره، وذَرَّاته، وطاقاته، وتزيد عليه وظائف أخرى. والحياة الحيوانيَّة تحتوي الحياة النباتية بجميع وظائفها، وتزيد عليها، والحياة الإنسانيَّة فيها كلُّ الحياة الحيوانيَّة، وتزيد وظائف أعلى، وهذه الوظائف نفسها طبقات بعضها فوق بعض، وأعلاها الوظيفة الروحيَّة الَّتي تتطلع إلى الحقيقة الكبرى.

(١) منهج الإصلاح الإسلامي في المجتمع صـ ٩١، ٩٢، نشر دار الشعب، القاهرة، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

QaradawiBooks.com

هذا البيان يرينا على أيِّ وجهٍ يمكن أن نفهم الصلة بين العلم الإلٰهي (علم الدين) وسائر العلوم (طبيعيَّة، أو رياضيَّة، أو فلكية، أو نفسية، أو اقتصادية، أو منطقية، أو اجتماعيَّة، أو تاريخيَّة، أو لغوية، أو غيرها)، وأنَّها ليست صلة وحدة في الموضوع، ولا اشتراك في الأهداف، إذ مهما تعالج هذه العلوم من مشاكل، فليس واحد منها يتصدى لعلاج المشكلة الكبرى الَّتي انتهض الدين لحلِّها. إنَّها كلها تبحث عن الكائنات، وليس شيء منها يبحث عن مبدئها الأول، وغايتها القصوى. غير أنَّها كلها تستطيع أن تُزجي لهذا المطلب خدمة ما، من قريب أو بعيد، ولن يستغنيَ الدين عن العلوم إلَّا لو استغنت المقاصد عن وسائلها ومقدماتها، أو الدعاوي عن حججها وبيِّناتها، فكما أنَّ المجهول لا يُتوصل إليه إلَّا عن طريق المعلوم، والغائب لا يُدرك إلَّا على ضرب من القياس على الشاهد، كذلك الحقائق العليا لا يسهل الصعود إليها إلَّا على سلم من حقائق الدنيا.

فإنْ بعدت صلة بعض العلوم بالدين، وعجزت عن أن تقدِّم له مددًا إيجابيًّا ملموسًا، فإنَّها ـ بما تبدِّد من ظلمات الأوهام، وبما تبعث من النور في جوانب النفس ـ تقوم بوظيفة تطهير وتنقية، لا بدَّ منها لتهيئة جو عقلي صالح لاعتناق العقائد السليمة، حتَّى إذا ركن القلب إلى شيء كان ركونه إليه على بصيرة وبيِّنة، لا مدفوعًا بحمية الجهل، ولا منقادًا بسذاجة المحاكاة: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

ومهما يكن من أمر، فالمعقول أنَّه إن لم يكن بين العلم والدين تعاون من قريب ولا بعيد، كان بينهما على الأقل من التفاهم وحُسن التجاور ما بين فروع الصناعات المختلفة، إذ ليس يُعقل أن يكون هناك تعارض وتناقض بين أمرين لا اشتراك بينهما في موضوع واحد.

QaradawiBooks.com

تفسير المصادمات الَّتي وقعت بين العلم والدين:

وهنا يحقُّ لنا السؤال عن تفسير تلك المصادمات العنيفة، الَّتي ظهرت في التاريخ غير مرَّة، بين العلوم والأديان. لا نعني ذلك الصراع الصوري الَّذي يُسْتَغل فيه اسم العلم أو الدين أحيانًا، ليكون ستارًا للمقاصد الخفية، والمطامح المختلفة، من الثروة، والنفوذ، والجاه، وسائر المصالح العاجلة، كما لا نعني الصراع الحقيقي الدائم بين النزعات الروحيَّة السامية، الَّتي تدفع إلى التضحية وضبط النفس والاعتدال، وبين النزعات المادِّيَّة المضادَّة الَّتي تهدف إلى الفوضى والإباحة والاستئثار. وإنَّما نطلب تفسير تلك المعارضة الفِكْرِيَّة الَّتي تقع بحُسن نية بين المعسكرين العلمي والديني، فيقف كل واحد منهما موقف التكذيب والإنكار لما عند الآخر.

والجواب أنَّ هذه المعارضة تحدث فيما نعلم على إحدى صورتين:

الصورة الأولى: أنْ يقف أحد الطرفين موقف المعارضة لما عند الآخر جملةً، لا بناءً على حُجَّة تُدحِضه، أو شُبهة تُضعفه، بل عفوًا واعتباطًا، أو لمجرد جهله به، ظنًّا منه أنَّ كل ما لم يدخل في دائرة علمه في الحال فليست له حقيقة. وهذا لعمري من قصر النظر، بل من الجهل والغرور؛ فإنَّ التكذيب بما لم يحط الإنسان بعلمه، ولم يأتِهِ تأويله، خطأ لا يرتكبه الراسخون في العلم والدين، وإنَّما يقع فيه المغرورون من العامَّة أو «أنصاف المتعلِّمين»، وهؤلاء أشد خطرًا من الجهلاء؛ لأنَّ علمهم في الحقيقة جهل مركَّب، وإنَّما الإنصاف أن يكون كل امرئ عارفًا بقدر نفسه، واقفًا عند حدِّه، بنَّاءً غير هدَّام، والسبيل القاصد في ذلك أن يثبت كل فريق ما وصل إليه، ولا ينكر ما لم يصل إليه.

QaradawiBooks.com

وقد رأينا العلماء المتخصِّصين في فرع من العلوم الطبيعيَّة أو العقليَّة يعتمدون النتائج الَّتي وصل إليها المتخصصون في فرع آخر منها ـ كل في نطاق تخصصه ـ ولا ينتظـرون أن يعيدوا كلهـم ما جرَّبه أو برهنه بعضهم، وهذا هو الوضع السليم الَّذي تتقدم به المعارف الإنسانيَّة، إذ لو وجب أنْ يعيد كل عالِم بحث كل مسـألة بنفسه، لما تقدَّمت العلوم خطوة واحدة.

وكذلك ينبغي أن يكون الشأن بين حملة العلوم وحملة الأديان.

ألم يُجْمِع العلماء الآن على إمكان تحطيم النواة الذَّرِّيَّة، واستخدام طاقتها الجبارة في صنع الأعاجيب، مع أنَّه لم يباشـر هذه التجربة منهم إلَّا نفر قليل؟ فماذا يمنعنا أن نؤمن بالتجـارب الروحيَّة المتكررة الَّتي شهدها الأنبياء وأرباب البصائر النيِّرة في مختلف العصور، وإن لم يشهد الناس منها إلَّا نتائجها الخارقة؟

إنَّه إذا كان من واجب الأديان أنْ تهادن العلوم ولا تنابذها، وكان من الخير لها أنْ تستثمر كافة المعارف البَشريَّة وتتسـلح بنتائجها، فإنَّ من الخير للعلـوم كذلك أنْ تـدَع الأديان تُكمل ما فيها مـن نقص، وتملأ ما تتركـه في النفوس مـن فـراغ، بما يملأه من الحقائق الروحيَّة، فإنْ لم تفعل فلا أقل من أنْ تلتزم شـقة حياد، فلا تعـادي الأديان ولا تنكرها جملة، فإنَّ إنكار الدين جملة إنكارٌ ضمنيٌّ لأمور واقعيَّة تحتويها الأديان كلها، ولا يحتويهـا علم من العلوم، ألا وهي عناصـر الإيمان بالحقيقة العليا وتقديسـها وعبادتها.. معان هي من مادة الحياة الَّتي قد يفسِّـرها العلم، ولكنَّه لا يخلقها، وقد ينقب عن أطوارها ويتفهَّم نشـأتها، ولكنَّه لا يستطيع أنْ يتجاهل وجودها، أو يدَّعي لنفسه أنَّه يحل محلها.

QaradawiBooks.com

الصورة الثانية: أنْ تكون هناك مسألة أو مسائل معيَّنة تنطق فيها العلوم والأديان بحكمين متناقضين. وإنَّما يحدث ذلك حينما تتناول الأديان إلى جانب عنصرها الروحي شيئًا من موضوعات العلوم وحقائق المشاهدات، وتذهب في ذلك مذهبًا معيَّنًا، تفرضه على المتديِّنين بها فرضًا. فهذا الجانب وإن كان عرضيًّا في الأديان، وكان سبيله في الغالب سبيل الوسائل لا المقاصد، إلَّا أنَّه يُعَدُّ معيارًا لمقدار ما في كل دين من صحة أو فساد، على قدر اتفاقه مع مقررات العلم الصحيح، وقضايا العقل السليم، أو اختلافه معها، فإنَّه إذا كان الدين حقًّا والعلم حقًّا، وجب أنْ يتصادقا ويتناصرا. أما إذا تكاذبا وتخاذلا، فإنَّ أحدهما ـ لا محالة ـ يكون باطلًا وضلالًا»[1].

ومصداق ذلك أنَّ الكنيسة الغربيَّة في العصور الوسطى عندهم تبنَّت نظريَّات وآراء معيَّنة في الفلك والفيزياء والجغرافيا وغيرها من العلوم، وأضفت على هذه الآراء لونًا من القداسة الدينيَّة، وأصبحت جزءًا من معتقداتها، الَّتي يشبُّ عليها الصغير، ويهرم عليها الكبير. فلما بزغ فجر النهضة العلميَّة في أوربا، على أيدي جماعة من علمائهم ومفكريهم الأحرار ـ الَّذين تأثروا بالمنهج العلمي الَّذي كان معروفًا في العالم الإسلامي ـ اصطدمت أفكارهم ومكتشفاتهم اصطدامًا مباشرًا بتلك النظريَّات المقدَّسة. وكان النزاع المرير المعروف في الغرب بين العلم والدين[2].

(١) الدين للدكتور محمد عبد الله دراز صـ ٧٤ ـ ٧٨، نشر دار القلم، الكويت، ط ٢، ١٩٧٠م.

(٢) انظر: الإسلام والنصرانيَّة مع العلم والمدنية للأستاذ الإمام محمد عبده صـ ٣١ وما بعدها، فصل: مقاومة النصرانية للعلم.

QaradawiBooks.com

دور الدين لم ينتهِ ولن ينتهي:

بقى ما يقال من أنَّ الدين قد انتهى دوره، وأخلى مكانه للعلم الحديث: ما مدى صحة هذا الزعم؟ وهل يمثِّل حقيقة علميَّة أو منطقية أو واقعيَّة؟

والذي نجيب به مطمئنين كل الاطمئنان: أنَّ هذا الزعم غير صحيح على الإطلاق؛ فالدين ليس شيئًا طارئًا على الإنسان، ولا أمرًا على هامش الحياة، بحيث يُستطاع اطِّراحه والاستغناء عنه في عصر من الأعصار.

مناقشة نظريَّة (أوجست كونت):

ولقد جاء زمن راجت فيه لدى بعض الناس نظريَّة «الأدوار الثلاثة» الَّتي ذهب إليها الفيلسوف الفرنسي «أوجست كونت» مؤسِّسُ المدرسة الوضعيَّة التقليدية (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧م)، وتتلخَّص في أنَّ العقل الإنساني قد مَرَّ بمراحل أو أدوار ثلاثة، هي: الدور اللاهوتي أو الديني، والدور الميتافيزيقي أو التجريدي، والدور الواقعي أو الوضعي ـ وهو الدور العلمي ـ وهذا هو ما يُسَمَّى «قانون الدورة الثلاثيَّة».

في الدور الأوَّل كان العقل يبحث في كُنْه الموجودات وأصلها ومصيرها، معتمدًا على الخيال، فالظواهر تحدث بفعل كائنات غير منظورة تختفي وراء الطبيعة المنظورة، كالآلهة والشياطين.

وفي الدور الميتافيزيقي ارتقى العقل، فتخلَّى عن الكائنات غير المرئيَّة، ليردَّ الظواهر إلى علل مجرَّدة خفيَّة، يتوهَّمها في باطن الأشياء، وهي معانٍ مجرَّدة، وبذلك أحلَّ «المُجَرَّد» مَحَلَّ «المُشَخَّص»، ووضع الاستدلال موضع الخيال. أما الملاحظة والمشاهدة فتحتل فيه مكانًا ثانويًّا.

QaradawiBooks.com

وفي الدور الثالث ـ الواقعي ـ يتجنَّب العقل البحث عن أصل الكون ومصيره، وعلله الخفية رأسًا، ولا يهتم إلَّا بمعرفة الظواهر واكتشاف قوانينها، والعلاقات المطَّردة بينها، ويقيمها على أساس من الملاحظة والتجربة، لا من الخيال، ولا من الاستدلال، وبهذا يهتم العلم بالإجابة عن السؤال: كيف حدث الشيء؟ وليس عن السؤال: لماذا حدث[١]؟

وعلى هذا يكون طور التفكير الدينيِّ يمثِّل في نظر «كونت» مرحلة الطفولة للعقليَّة الإنسانيَّة، على حين يمثل طور الفلسفة الميتافيزيقيَّة مرحلة المراهقة.

أمَّا طور العلم التجريبي فيُمَثِّل مرحلة الكهولة والرشد، إذ ما عدا قضايا العلم الواقعي الحِسِّيِّ لا يعدو أنْ يكون خيالًا أو كلامًا في كلام.

ويعبِّر عن ذلك فيلسوف ألماني تأثَّر بـ «كونت» وهو «لودفيج فويرباخ» (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢) فيقول: «الله كان فكرتي الأولى، والعقل كان فكرتي الثانية، والإنسان ـ بمحيطه الواقعي ـ هو فكرتي الثالثة والأخيرة»[٢].

هذه هي النظريَّة الَّتي لا زال بعض الكاتبين في ديارنا يردِّدونها، ويتشَّبثون بها، معلنين ـ في تعَالُم وغرور ـ أنَّ عهد «الغيبيَّات» قد طويت أعلامه، بعد أنْ قامت دولة العلم، وسقطت كلُّ قضية لا يمكن اختبارها في المعمل! هذا مع أنَّ المفكرين والنقاد ـ في الغرب ذاته ـ قد بيَّنوا زيف هذه النظريَّة الوهمية وبطلانها، وأتوا على بنيانها من القواعد.

---

(١) انظر: أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل صـ ١٩٤، ١٩٥، ط ٣، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

(٢) انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي صـ ٢٨١، ط ٢، نشر دار القلم، القاهرة.

QaradawiBooks.com

ومن أبرز الأدلَّة على بطلان هذه النظريَّة ما يلي:

إنَّ «كونت» وأنصاره جعلوا من نظريَّته قانونًا يستوعب التاريخ كلَّه في شوطٍ واحد، قطعت الإنسانيَّة ثُلُثَيْه بالفعل، ونفضت ـ أو كادت تنفض ـ يدها منهما إلى غير رجعة، فلن تعود إليهما إلَّا أن يعود الكهل إلى شبابه وطفولته.

ولو أنَّهم جعلوا منه سلسلة دوريَّة، كلَّما ختمت البَشريَّة شوطًا، رجعت عودًا، لكان الخطأ في هذه النظريَّة أقلَّ شناعة[1]، وربَّما كان «تاريخ المعرفة» في الغرب يُؤَيِّد ذلك.

«فقد كانت معرفة الإنسان قبل تفلسف الإغريق ذات طابع ديني، ثمَّ أصبحت على عهد «سقراط» و«أفلاطون» عقليَّة، ثمَّ مالت بعد ذلك على عهد «أرسطو» إلى التجربة والواقع.

ثم ابتدأت تجربة أخرى من جديد، فاعتبر الدِّين في القرون الوسطى مصدرًا للمعرفة، ثمَّ جعل للعقل اعتباره ـ بدلًا من الدِّين ـ في عصر التنوير في القرن الثامن عشر، ثمَّ قوي الميل إلى اعتبار المعرفة الحِسِّيَّة أو الوضعيَّة وحدها ـ دون العقل والدِّين معًا ـ في القرن التاسع عشر.

هذه دورة ثلاثيَّة لـ «اعتبار المعرفة» في تاريخ الإنسانيَّة. فإذا كانت هذه الدورة الثلاثيَّة قانونًا لا يتخلَّف للمعرفة، أو بالأحرى لاعتبار مصدر المعرفة، فالمنتظر ـ بناءً على سير التاريخ ـ أن يعود الاعتبار إلى الدِّين من جديد، بعد أنْ قويت موجة الواقعيَّة أو الوضعيَّة في القرن التاسع عشر، فتنكسر حِدَّتها، فتضعف، فيقل اعتبارها، وعندئذٍ يعود

(١) انظر: الدين للدكتور محمد عبد الله دراز صـ ٨٤، ٨٥.

QaradawiBooks.com

الاعتبار في المعرفة للدِّين وحده»، كما قال أستاذنا الدكتور محمَّد البهي في كتابه القيم «الفكر الإسلامي الحديث»[١].

هذا هو منطق التاريخ الَّذي استخدمه «كونت» نفسه، ولكنَّه لم يستخدمه بإنصاف وتجرُّد وموضوعيَّة، كما هو منطق «العلميَّة» الَّذي ينادي به، بل كان في أكثره ـ كما يقول الأستاذ «فندلبند» في كتابه «تاريخ الفلسفة» ـ يقوم على الهوى، وعدم المعرفة، والحكم المغرض[٢].

وهذا الَّذي ذكرناه مبني على افتراضنا التسليم بوجود أدوار تاريخيَّة ثلاثة متعاقبة. والحقيقة أنَّ هذه دعوى لم يقم عليها برهان صحيح، بل هي في اعتمادها على التاريخ تحرِّف التاريخ، وفي ادعائها الاعتماد على الواقع، تصادم الواقع.

وماذا يقول فيلسوف الوضعيَّة في عصر ازدهار الحضارة الإسلاميَّة، وفيه نرى الدِّين والعقل والعلم، تنمو وتزدهر وترتقي كلُّها جنبًا إلى جنب، فتجد الفقهاء والمفسِّرين والمحدِّثين والمُتصوِّفة، وبجوارهم الفلاسفة والمُتَكَلِّمين، وإلى جانبهم العلماء من الأطبَّاء والكيميائيِّين والفلكيِّين والفيزيائيِّين والرياضيِّين.

بل ربَّما تجد الشخص الواحد يجمع النواحي الثلاثة في شخصه، كما يتَّضح ذلك في سيرة ابن رشد الحفيد، صاحب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه الإسلامي المقارن، وأكبر شارح لفلسفة «أرسطو» في تلك العصور، وصاحب كتاب «الكُلِّيَّات» في الطبِّ.

(١) الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي صـ ٣٢٤، ٣٢٥.
(٢) المصدر السابق صـ ٣٢٣.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وكثير من علماء المسلمين التجريبيِّين كانوا فقهاء ومتصوِّفة.

وهذا ما وقع ويقع في تاريخ الأمم كافَّة، إلى اليوم.

فنحن ما زلنا نسمع ونرى في كلِّ عصرٍ فريقًا يُقَدِّس الروحانيَّات، وآخر مشغوفًا بالمعقولات الكُلِّيَّة والنظرة التجريديَّة، وغيرهما لا يُعنى إلَّا بالحوادث الجزئيَّة ومعرفة ما بينها من ترابط وجودي.

والملحوظ أنَّ الدور الأوَّل ـ الَّذي يقولون: إنَّه يتمثَّل في عصر ما قبل التاريخ وبدء العصر التاريخي ـ قد اخترعت فيه صناعات عن طريق المشاهدة ومعرفة طبائع الأشياء.

وفي الدور الفلسفي ـ الَّذي يقال: إنَّه شمل العصور القديمة ـ قد وُجِدت فيه مشاهدات فلكية ومدنيات شرقية، وعُرِفت هندسة إقليدس، وطب أبقراط، وطبيعيَّات أرسطو، وكيمياء العرب وفلكهم وطبِّهم وسائر علومهم التجريبيَّة (كما ذكر لوبون وبريفولت وغيرهما).

وفي الدور الوضعي ـ الَّذي هو طابع العصور الحديثة فيما يقولون ـ توجد كثرة غفيرة من دعاة الدِّين والقِيَم الأخلاقيَّة والتأمُّل الفلسفي[1].

بل نرى كثيرًا من رجال العلم التجريبي نفسه وأقطابه في القرن العشرين يؤيِّدون بأسلوب علمي حقائق الدِّين، وينادون في صدقٍ واقتناعٍ بوجوب العودة إلى الإيمان.

ونذكر من هؤلاء الأستاذ (كريسي موريسون) رئيس أكاديميَّة العلوم في نيويورك وصاحب كتاب «الإنسان لا يقوم وحده» المعرَّب تحت عنوان «العلم يدعو إلى الإيمان».

(١) أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل صـ ٢٠٩.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومنهم عالِم النفس التجريبي الدكتور «هنـــري لنك» صاحب كتاب «العودة إلى الإيمان» الَّذي طُبِع حوالي خمسين مرَّة في أمريكا وحدها.

ومنهم ثلاثون عالمًا أمريكيًّا في مختلـــف الاختصاصات، كتب كلُّ واحدٍ منهم مقالـــةً يبيِّن بها كيف عرف الله واهتدى إليه بوســـاطة علمه. ومن هذه المقالات تكوَّن كتـــاب «الله يتجلَّى في عصر العلم» الَّذي نُقِل أيضًا إلى العربيَّة.

فالواقع أنَّ الحالات الثلاث الَّتي يُصَوِّرهـــا «كونت» لا تُمَثِّل أدوارًا تاريخيَّة متعاقِبة، بل تُمَثِّل نزعات وتيَّارات متعاصرة في كلِّ الشـــعوب، وليست متناقضة ولا متضادَّة بحيث إذا وُجِدت إحداها تنتفي الأخرى.

بل نقول ما قال أســـتاذنا المرحوم الدكتـــور دراز: «إنَّ هذه النزعات الثلاث متعاصرة متجاورة في نفس كُلِّ فرد، وإنَّ لها وظائف يُكمل بعضها بعضًا في إقامة الحياة الإنســـانيَّة على وجهها، ولـــكلِّ واحدةٍ منها مجالٌ يُوائمها. ففي الوقت الَّذي نُفَسِّر فيه الحوادث بأسبابها المباشرة خارجيَّة وداخليَّـــة، فنقول: هلك فلان بضربةِ ســـيف، أو لشـــيخوخةٍ أو لمرض، لا يزال كلُّ واحدٍ مِنَّا يُفَسِّر الحوادث الشاذَّة الخارقة بالقضاء والقَدَر، أو بسببٍ غيبيٍّ مجهول»[1]، أي مع إيمانه بالعلم الوضعي الواقعي.

إنَّ المعرفة العلميَّـــة الواقعيَّة القائمة على تتبع الجزئيَّات وتســـجيل الظواهر والعلاقات بينها، ليســـت هي قمة المعرفة الإنســـانيَّة، ولا غاية النضج البَشـــري. فإنَّ المعرفة العلميَّة التجريبيَّة نفسها تحتاج إلى أساس فلســـفي، فإنَّ الفلســـفة ـ بمعنى النظر في العلل والكُلِّيَّـــات، وما وراء

(١) الدين للدكتور محمد عبد الله دراز صـ ٨٥، ٨٦، وانظر: أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل صـ ٢٠٨، ٢٠٩.

QaradawiBooks.com

الظواهر والجزئيَّات ـ هي الَّتي تقوم بتفسير الملاحظة والتجربة وغيرها من مقوِّمات العلم، بل إنَّ العلم نفسه ليس إلَّا حقيقة من الحقائق الَّتي تعالجها الفلسفة في نظريَّة المعرفة: كيف يكون العلم ممكنًا، وتحت أي ظروف نتصوَّر هذا العلم، وما أدوات العلم وما طبيعته؟...، أي أنَّنا نحتاج إلى «علم العلم»: إلى تحليل العقل وقوانينه. وهذه كلُّها موضوعات تدخل في مجال ما بعد الطبيعة[١].

ومن هنا يُقَرِّر المرحوم الدكتور دراز[٢] أنَّ الأمر على عكس ما ذهب إليه «كونت» تمامًا أنَّ النظرة الواقعيَّة تقع في مبدأ الطريق لا في نهايته، وأنَّها تُمَثِّل مرحلة الطفولة النفسيَّة، لا مرحلة النضج والكمال، ذلك بأنَّ مبعثها الحاجة العاجلة وضرورة الحياة اليوميَّة، وبأنَّها وظيفة الحسّ لا العقل، وبأنَّها من معدن القابلية والانفعال، لا من معدن الفاعلية والإنشاء.

أمَّا نظرة التعليل بالمعاني العامَّة فإنَّها تنبثق في النفس على أثر ذلك، متى استيقظت ملكتا التجريد والتعميم في التصورات والأحكام، فلا يكتفي الذهن حينئذٍ بجمع الحوادث المترابطة في سلسلة متعاقبة، كما تُجمع الأعواد في الحزمة، بل يحاول ربطها برباط معنوي تدور في فلكه، ويكون كالسلك الداخلي الَّذي ينتظم حبات العِقد.

ونؤكد أنَّ المعارف الإنسانيَّة لا تستحق اسم العلم حتَّى تأخذ بنصيب قليل أو كثير من هذا التجريد والتعميم، الَّذي يضع كل مجموعة في نطاق يضبطها، تحت لقب مشترك يسهل به استحضارها،

(١) انظر: أسس الفلسفة صـ ٢٠٧ ـ ٢٠٩.

(٢) الدين صـ ٧٦، ٨٧.

QaradawiBooks.com

ويكون لها بمثابة قانونٍ كُلِّيٍّ تعلل به جزئيَّاتها، بل العلوم الواقعيَّة تسعى الآن جاهدة للاندماج برمَّتها في منظمة تنسقها وتُخضع جميع ظواهرها لناموس واحد، وهذا هو ما يُسمَّى بمبدأ «وحدة الوجود» بمعناه العلمي «Monism Scientifique» وسواء أبَلغت العلوم هذا الهدف قريبًا أو بعيدًا أم لم تبلغه أبدًا، فالذي لا شك فيه هو أنَّ هذه النزعة إلى استنباط المعاني الكُلِّيَّة لم تفتر بل تزداد قوَّة.

بقيت النظرة الروحيَّة أو الدينيَّة، وواضح أنَّها لا تولد في النفس إلَّا حينما يتَّسع أفقها، فتتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه، فهي أوسع النظرات مجالًا، وأبعدها مطلبًا.

وهكذا ينقلب الترتيب الَّذي تخيَّله الفيلسوف رأسًا على عقب، وتعود الحاجات النفسيَّة الثلاث إلى أوضاعها الطبيعيَّة المعقولة: حاجة الحس، فحاجة العقل، فحاجة الروح، وإنْ شئت قلت: حاجة الحسِّ، فحاجة العقل القانع، فحاجة العقل المتسامي.

على أنَّ الَّذي يعنينا هنا ليس هو الوضع التقويمي لكل واحدة من هذه النزعات، وإنَّما هو دخولها جميعًا في كيان النفس الإنسانيَّة. فكما إنَّنا لا نجد أمارة واحدة تدلُّ على قرب زوال النزعة الاستقرائية أو النزعة التعليلية، كذلك لا نرى أمارة واحدة تشير إلى أنَّ فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الإنسان! يقول الفيلسوف الفرنسي (سالمون رياناك): «ليس أمام الديانات مستقبل غير محدود فحسْب، بل لنا أنْ نكون على يقين من أنَّه سيبقى شيء منها أبدًا؛ ذلك لأنَّه سيبقى في الكون دائمًا أسرار ومجاهيل، ولأنَّ العلم لن يُحقِّق مهمَّته على وجه الكمال»[1].

(١) انظر: الدين صـ ٨٧.

QaradawiBooks.com

ويقول الدكتور «ماكس نوردوه» عن الشعور الديني: «هذا الإحساس أصيل يجده الإنسان غير المتمدين، كما يجده أعلى الناس تفكيرًا، وأعظمهم حدسًا، وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانيَّة، وستتطور بتطورها، وستتجاوب دائمًا مع درجة الثقافة العقليَّة الَّتي تبلغها الجماعة»[١].

ويقول (أرنست رينان) في تاريخ الأديان: «إنَّ من الممكن أنْ يضمحلَّ كلُّ شيءٍ نحبُّه، وأنْ نبطل استعمال العقل والعلم والصناعة. ولكن يستحيل أن ينمحي التديُّن، بل سيبقى حُجَّة ناطقة على بطلان المذهب المادِّي، الَّذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضيَّة»[٢].

ملاحظة جديرة بالتنبيه:

بقيت هنا ملاحظة جديرة بالتنبيه والتسجيل، وهي: أنَّ إيمان «أوجست كونت» وأنصاره وأمثاله بالعلم وحده، ورفضهم للأفكار الَّتي تأتي عن طريق «الفلسفة» و«الدين» إذا حللنا دوافعه وظروفه التاريخيَّة إنَّما يعني في الحقيقة أمرين:

رفض تخرُّصات الفلسفة الميتافيزيقيَّة:

الأول: رفض تخرُّصات الفلسفة الميتافيزيقيَّة وتناقضاتها.

الفلسفة الَّتي تطلب لنفسها الثقة والاعتبار العام فيما تذكره من أفكار وآراء عن الوجود، وهي الَّتي شرَّق فلاسفتها وغرَّبوا، وبحثوا في كل

(١) راجع: دائرة معارف القرن العشرين للمرحوم محمد فريد وجدي (١٠٦/٤)، مادة (د. ي. ن)، نشر دار المعارف، بيروت، ط ٣.

(٢) انظر: الدين صـ ٨٧.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

شيء ولم يكادوا يتفقون على شيء. وهذه ـ في الواقع ـ هي حدود طاقة العقل البَشري، إذا سلك هذه المفازة ـ ما وراء الطبيعة ـ وحده، دون دليل من هَدي الله ووحيه المعصوم.

وهذا ما جعل الفيلسوف الألماني الكبير «كانت» يُشبِّه العبارات «الميتافيزيقيَّة» بأنَّها «ورق نقد بدون ضمان»؛ وذلك ليبيِّن أنَّ صنعة العقل الإنساني فيما بعد الطبيعة لا تأتي بيقينٍ حقيقيٍّ؛ لأنَّ العقل ـ إذا اجتاز مرحلة الإنسان ودائرته الحِسِّيَّة إلى دائرة فوقها أعلى منها ـ لم يستطع أن يأتي إلَّا بالظنِّ والتخمين. فالعقل ـ بحكم أنَّه محدَّد بالبيئة والمكان والزمان والثقافة الخاصَّة والجوِّ الطبيعي والاجتماعي والسياسي ـ لا يملك أنْ يأتي بيقينٍ عن الوجود المُطْلَق غير المحدَّد بالمكان أو الزمان أو بشيءٍ ممَّا يُحدَّد به الإنسان[1]. فالموجود المحدود لا يستطيع أن يتصوَّر غير المحدود، وكلُّ ما يفعله أن يقيس وجوده على وجود نفسه، وذلك ظنٌّ، وليس بيقين. بل هو في الحقيقة قياسٌ فاسد؛ إذ ليس ثَمَّة جامع مشترك بين المقيس والمقيس عليه.

وما انتهى إليه «كانت» هو نفس ما انتهى إليه ـ أو إلى ما يشبهه أو يقرب منه ـ كثير من الفلاسفة والمُفَكِّرين قديمًا وحديثًا، وهو الجانب الَّذي أطلق عليه المُفَكِّر العربي المعاصر الدكتور زكي نجيب محمود: «خرافة الميتافيزيقا»[2]!

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي صـ ٢٨٣، ٢٨٤.

(٢) وقد ردَّ عليه شيخنا الدكتور محمد البهي في كتابه القيم: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي صـ ٢٨٥ ـ ٢٩٦، ط ٢، ١٩٦٠م.

QaradawiBooks.com

بـــل إنَّ هذا يشـــبه ما انتهى إليه جماعـــة من أئمَّة علـــم الكلام من المســـلمين الَّذين خاضوا لجج العلوم العقليَّة، فلم يظفروا منها بطائل، حتَّى إنَّ بعضهم تمنَّى في ختام عمره إيمانًا كإيمان العجائز[١]!

ومن أجل هذا قال أحد أســـاتذة الفلســـفة: إنَّ الفلســـفة لا رأي لها. وذلك لأنَّها في مسائل ما وراء الطبيعة وما شابهها من القضايا الكبرى، تقول الشـــيء وضدَّه، وتُصدر الحكـــم ونَقِيضَه[٢]. يعنـــي: أنَّ ما يقوله فيلسوف ينقضه آخر، وما يبيِّنه واحد يأتي آخر في عصره أو بعده فيهدمه من أساسه. وبهذا لا تستطيع الفلسفة البَشريَّة أن تعطي رأيًا واحدًا محددًا في قضية كبرى. فلا غرو أن يكون الوضعيُّون معذورين في موقفهم من الفلسفة الميتافيزيقيَّة. وهذا هو وضعها.

المراد بالدِّين (دين الكنيسة الغربيَّة):

الأمر الثاني: إنَّ رفض الدين والتنديد به إنَّما يراد به: دين الكنيســـة الغربيَّة حينذاك، وما تتبنَّاه من أفكار يرفضها العقل، وينكرها العلم. وهذا ما جعل عددًا من الفلاسفة يؤمنون بالله وبالدين، وينكرون ـ في الوقت نفسه ـ المسيحيَّة، مسيحيَّة البابا والكنيسة والكهنة[٣].

---

(١) ذكره الســـبكي في طبقات الشـــافعية الكبـــرى (١٨٥/٥)، ترجمة الإمـــام الجويني، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي، نشر دار هجر، ط ٢، ١٤١٣هـ.

(٢) هو الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ الفلســـفة بجامعة الأزهر وعميد كلية أصول الدين، ثم وكيل الأزهر فوزير الأوقاف وشؤون الأزهر، فشيخ الأزهر أخيرًا.
مقال الفلسفة للشـــيخ عبد الحليم محمود (١٤١/٥)، مجلة البحوث، العدد (٥)، من المحرم إلى جمادى الثانية ١٤٠٠هـ.

(٣) انظر: فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها للدكتور توفيق الطويل صـ ٢٤٥، ٢٤٦، ط ٣، نشر دار النهضة العربيـــة، القاهرة. وفيه: أن (كونـــت) ـ رغم إعجابه بدعوة المســـيحية إلى الإيثار والمحبة ومســـاعدة الضعفاء ـ أخذ عليها أنَّها جمدت والعالم يجـــري في ركاب العلم، إذ =

QaradawiBooks.com

وليس أدل على هـذه الحقيقة من أنَّ زعيم المذهـب الوضعي الواقعي ـ أوجست كونت ـ نفسه، الَّذي كان يتنبَّأ بأنَّ فناء الديانات سيكون هو النهاية الحتميَّة لتقدم العلوم، قد عاد فـي آخر أمره متصوِّفًا عجيبًـا! وكلَّل حياته بوضع ديانة جديدة، معبودها الأكبر هو: «الإنسـانيَّة». وقد طبع هذه الديانة على غرار النظام الكنسـي للكاثوليكيَّة، في عقائدها، وطقوسها، وأعيادها، وطبقات قساوستها. رواية كاملة أعاد فصولها ولم يغيِّر إلَّا أشخاصها[1]!

ولعلَّ «كونت» وكبار مدرسـته لو عرفوا حقيقة دين كالإسلام ـ الَّذي اتَّسمت تصوُّراته وأخلاقه وأنظمته بالشمول والتوازن والإيجابيَّة والواقعيَّة، وفسح المجال للعقل والعلم إلى أبعد مدى ـ لما وجد نفسه محتاجًا إلى اختراع دينٍ جديد، ولَوَجَدَ في الإسلام ما يَنْشُده وفوق ما يَنْشُده[2].

ومهما يكن الأمر، فإنَّ موقف «كونت» آخرًا، لَشـهادةٌ ناطقة على أنَّ الدِّين لم ينتهِ دوره كما زعم، ولن ينتهي دوره ما بقي الإنسان.

فالدِّين جزءٌ أصيل من فِطرة الإنسـان، وحاجة بَشريَّة حقيقيَّة لا غِنى عنها. وربَّما أمكن الإنسان أن يسـتغنيَ عن العلم، كالبدائيِّين من البَشر، ولكن لم نرَ جماعة في مكان ما أو زمان ما، استغنت عن الدين.

= ارتبطت بالكاثوليكية التي تعثرت في مسـايرة التقدم العقلي، ومتابعـة ما تقتضيه مناهج البحث العلمي. ثم ما لبثت أنْ جمـدت وتصدَّت ـ دفاعًا عن وجودهـا ـ لمقاومة التقدم وعرقلة سيره. ومن هنا نشـأ النزاع الذي أتى على الأخلاق المسيحية، فراحت هذه ضحية الروح الكاثوليكية وجمودها. ومن أجل هذا انصرف (كونت) عن اتخاذ المسـيحية أساسًا للأخلاق الجديدة، وتطلع إلى إقامتها على أسس علمية وضعية. اهـ.

(١) انظر: الدين للدكتور دراز صـ ٩٤.

(٢) قلت هذا عن (أوجسـت كونت) ونشـرته منذ سـنوات، ولم أكن أعلم أنَّ الرجل قرأ عن الإسلام بعض الشيء، واعترف له بالعلمية والواقعية، وهذا ما سجله المفكر العربي المسلم الدكتور رشدي فكار في بعض بحوثه.

QaradawiBooks.com

وقد نجد من الناس مَن يتمرَّد على الدين، ويثور على التدين، ولكنَّه في الواقع إنَّما يتمرَّد على الزيف والتحريف في الدين. إنَّما يثور على دين وضعي أو دين محرَّف منسوخ، كما وجدنا طبيب النفس الأمريكي الشهير الدكتور «هنري لنك»، مؤلِّف كتاب «العودة إلى الإيمان» الَّذي ثار على الكنيسة الغربيَّة، ثمَّ رجع إلى الدِّين بعد تجارب ومشاهدات ردَّته إلى رحابه، ولكنَّه في الواقع لم يعُد إلى دينه القديم، كما حدَّثنا هو عن نفسه، بل عاد إلى دينٍ فِطريٍّ هو عند التحليل أقرب ما يكون إلى عقيدة الإسلام[١].

فمن الخطل البيِّن القول بأنَّ الدِّين قد وَلَّى الأدبار، أو أصبح «في خبر كان». فربَّما صَحَّ هذا القول بالنظر إلى أوربا في القرن الثامن عشر أو التاسع عشر، أمَّا القرن العشرين، فيسوده اتِّجاه قويٌّ للعودة إلى الإيمان، والرجوع إلى القيم الروحيَّة، والهداية الإلٰهيَّة الَّتي جاء بها رسل الله.

إنَّنا نرى رجلًا مثل «توينبي» ـ أكبر مؤرِّخي هذا العصر وأحد أقطاب الفكر العالمي ـ يقول عن نفسه: إنَّه من المؤمنين بأنَّ الدِّين هو أهمُّ ما في الوجود[٢].

ويقول: «الدِّين إحدى الملكات الضروريَّة الطبيعيَّة البَشريَّة. وحسْبنا القول بأنَّ افتقار المرء إلى الدِّين يدفعه إلى حالة من اليأس الرُّوحي، تضطره إلى التماس العزاء الديني على موائد لا نملك منها شيئًا»[٣].

(١) انظر كتابنا: الإيمان والحياة صـ ٢٩٥ ـ ٣٣٠، فصل: بين العلم والإيمان. وخصوصًا: الطب النفسي في موكب الإيمان صـ ٣١٩ ـ ٣٣٠، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١٨، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

(٢) مختصر دراسة التاريخ (١٧٣/٣)، ترجمة فؤاد محمد شبل، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ١، ١٩٦٠م.

(٣) المصدر نفسه (١٧٩/٣).

QaradawiBooks.com

ونجـد كاتبًا مطلعًا على الفكـر العالَمي واتِّجاهاتـه المعاصرة مثل المرحوم عبَّاس محمود العقَّاد، يُحَدِّثنا عن جمٍّ غفيرٍ من أنصار الإيمان، ودعاة الرُّوح في كتابه «عقائد المُفَكِّرين في القرن العشرين».

وفي كتاب «الله يتجلَّى في عصر العلم» نجد ثلاثين عالمًا أمريكيًّا في شتَّى تخصُّصات العلوم الكونيَّة والرياضيَّة وغيرها، يكتبون ـ من خلال علومهم ـ مؤيِّدين للإيمان.

وينقل أحد هؤلاء عن العالِم الطبيعي والكاتب اللامع «أوليفر وندل» قوله: «كلَّما تقدَّمت العلوم ضاقت بينها وبين الدِّين شُقَّة الخلاف، فالفهم الحقيقي للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله»[1].

حاجة الإنسان إلى الدِّين:

إنَّ حاجة الإنسان إلى الدِّين ليست حاجة ثانويَّة ولا هامشيَّة، إنَّها حاجة أساسيَّة أصيلة، تتَّصل بجوهر الحياة، وسرِّ الوجود، وأعمق أعماق الإنسان.

وفي أقصى ما يمكـن من الإيجاز ـ غيـر المخلِّ ـ نُبيِّـن هنا وجه الحاجة إلى الدِّين في حياة الإنسان:

حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى في الوجود:

١ ـ حاجة الإنسان إلى عقيدة دينيَّة تنبثق ـ أوَّل ما تنبثق ـ من حاجته إلى معرفة نفسه ومعرفة الوجود الكبير من حوله. أي إلى معرفة الجواب عن الأسئلة الَّتي شغلت بها فلسفات البَشر ولم تقُل فيها ما يشفي.

(١) الله يتجلى في عصـر العلم لنخبة من العلمـاء الأمريكيين صـ ٥٨، ترجمـة د. الدمرداش عبد المجيد سرحان، نشر دار القلم، بيروت.

QaradawiBooks.com

فالإنسان منذ نشأته تلحُّ عليه أسئلة يحتاج إلى الجواب عنها: من أين؟ وإلى أين؟ ولِمَ؟! ومهما تشغله مطالب العيش عن هذا التساؤل، فإنَّه لا بدَّ واقف يومًا ليسأل نفسه هذه الأسئلة الخالدة:

(أ) يقول الإنسان في نفسه: من أين جئتُ وجاء هذا الكون العريض من حولي؟ هل وُجِدتُ وحدي أم هناك خالق أوجدني؟ ومَن هو؟ وما صلتي به؟ وكذلك هذا العالم الكبير بأرضه وسمائه، وحيوانه ونباته وجماده وأفلاكه. هل وُجِد وحده أم أوجده خالق مُدبِّر؟

(ب) ثمَّ ماذا بعد هذه الحياة، وبعد الموت؟ إلى أين المسير بعد هذه الرحلة القصيرة على ظهر هذا الكوكب الأرضي؟ أتكون قصَّة الحياة مجرَّد «أرحام تدفع، وأرض تبلع» ولا شيء بعد ذلك؟ وكيف تستوي نهاية الأخيار الطاهرين الَّذين ضحوا بأنفسهم في سبيل الحقِّ والخير، ونهاية الأشرار المُلَوَّثين الَّذين ضَحَّوا بغيرهم في سبيل الهوى والشهوة؟ أتُختتم الحياة بالموت؟ أم هناك وراء الموت حياة يُجْزَى فيها الَّذين أساؤوا بما عملوا والذين أحسنوا بالحسنى؟

(جـ) ثمَّ لماذا وُجِد الإنسان؟ لماذا أُعطي العقل والإرادة وتميَّز عن سائر الحيوان؟ لماذا سُخِّر له ما في السماوات وما في الأرض؟ أهناك غاية من وجوده؟ ألَهُ مهمة في حياته؟ أم وُجِد لمجرد أن يأكل كما تأكل الأنعام، ثمَّ يَنْفُق كما تَنْفُق الدواب؟ وإن كانت هناك غاية من وجوده فما هي؟ وكيف يعرفها؟

أسئلة تُلِحُّ على الإنسان في كلِّ عصر، وتتطلَّب الجواب الَّذي يشفي الغَلِيل، ويطمئنُّ به القلب، ولا سبيل إلى الجواب الشافي إلَّا باللجوء إلى الدِّين، إلى العقيدة الدينيَّة الصافية. الدين هو الَّذي يعرِّف الإنسان ـ أوَّل

QaradawiBooks.com

ما يعرِّفه ـ أنَّه لم يخرج من العدم إلى الوجود صدفة، ولا قام في هذا الكون وحده، وإنَّما هو مخلوق لخالقٍ عظيم، هو ربُّه الَّذي خلقه فسوَّاه فعدله، ونفخ فيه من رُوحه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وأمدَّه بنعمه الغامرة، منذ كان جنينًا في بطن أُمِّه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٣].

وهذا الكون الكبير من حوله ليس غريبًا عنه ولا عدوًّا له. إنَّه مخلوق مثله لله لا يسير جزافًا ولا يمشي اعتباطًا، كل شيء فيه بقَدَر، وكل أمر فيه بحساب وميزان. إنَّه نعمة من الله للإنسان ورحمة، ينعم بخيراته، ويستفيد من بركاته، ويتأمل في آياته، فيستدل به على ربه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣]. ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

بهذه العقيدة يرتبط الإنسان بالوجود الكبير، وبربِّ الوجود كلِّه، ولا يعيش منطويًا على نفسه، معزولًا عمَّا حوله، أو خائفًا منه.

والدِّين هو الَّذي يُعرِّف الإنسان: إلى أين يسير بعد الحياة والموت؟ إنَّه يعرِّفه أنَّ الموت ليس فناءً محضًا، ولا عدمًا صرفًا، إنَّما هو انتقال إلى مرحلة أخرى، إلى حياة برزخيَّة بعدها نشأة أخرى تُوفَّى فيها كل نفس بما كسبت، وتُخَلَّد فيما عملت، فلا يضيع هناك عمل عامل من ذكر أو أُنثى، ولا يُفْلِت من العدل الإلٰهي جبَّار أو مستكبر: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦ ـ ٨] بهذا يعيش الإنسان بوجدانه في الخلود، ويعلم أنَّه خلق للأبد، وإنَّما ينتقل بالموت من دار إلى دار.

QaradawiBooks.com

والدين هو الَّذي يُعرِّف الإنسان: لماذا خُلِق؟ ولماذا كُرِّم وفُضِّل؟ يُعرِّفه بغاية وجوده، ومهمَّته فيه. إنَّه لم يُخلق عبثًا، ولن يُترك سدًى، إنَّه خُلِق ليكون خليفة في الأرض، يعمرها كما أمر الله، ويُسخِّرها لما يحب الله، يكشف عن مكنوناتها، ويأكل من طيباتها، غير طاغٍ على حقِّ غيره، ولا ناسٍ حقَّ ربِّه، وأول حقوق ربِّه عليه: أن يعبده وحده، ولا يُشرك به شيئًا، وأنْ يعبده بما شرع، على ألسنة رسله، الَّذين بعثهم إليه هداةً معلمين، مبشِّرين ومنذِرين، فإذا أدَّى مهمته في هذه الدار المحفوفة بالتكليف والابتلاء، وجد جزاءه هناك في الدار الآخرة: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

بهذا يدرك الإنسان سرَّ وجوده، ويستبين مهمَّته في الحياة، بيَّنها له بارئ الكون، وواهب الحياة، وخالق الإنسان.

إنَّ الَّذي يعيش بغير دين ـ بغير عقيدة في الله والآخرة ـ إنسان شقيٌّ محروم حقًّا. إنَّه في نظر نفسه مخلوق حيواني، ولا يفترق عن الحيوانات الكبيرة الَّتي تدبُّ على الأرض من حوله، والتي تعيش وتتمتع، ثمَّ تموت وتنفق، بدون أنْ تعرف لها هدفًا، أو تدرك لحياتها سرًّا. إنَّه مخلوقٌ صغيرٌ تافهٌ، لا وزنَ له ولا قيمة، وُجِد ولا يعرف: كيف وُجِد، ولا مَن أوجده؟ ويعيش ولا يدري: لماذا يعيش؟ ويموت ولا يعلم: لماذا يموت؟ إنَّه في شكٍّ ـ بل في عمًى ـ من أمره كلِّه: محياه ومماته، مبدئه ومنتهاه، كالذين قال الله فيهم: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

وما أقسى حياة إنسان يعيش في جحيم الشكِّ والحَيْرة، أو في ظلمات العمى والجهل، في أخصِّ ما يخصُّه: في حقيقة نفسه، وسِرِّ وجوده، وغاية

QaradawiBooks.com

حياته. إنَّه الشقي التعيس حقًّا، وإنْ غرق في الذهب والحرير وأسباب الرفاهية والنعيم، وحمل أرقى الشهادات، وتسلَّم أعلى الدرجات.

وفرق كبير بين إنسان كعمر الخيَّام يقول في حال حَيْرته وشَكِّه[١]:

لَبِسْتُ ثَوْبَ الْعُمْرِ لَم أُسْتَشَرْ وَحِرْتُ فِيهِ بَيْنَ شَتَّى الفِكَرْ!
وَسَوْفَ أَنْضُو الثَّوْبَ عَنِّي، وَلَم أَدْرِ: لِمَاذَا جِئْتُ، أَيْنَ الْمَفَرّْ؟

وبين آخر يقول في يقين وطمأنينة:

وَمَا الْمَوْتُ إِلَّا رَحْلَة، غَيْر أَنَّها مِنَ الْمَنْزِلِ الفَانِي إِلَى الْمَنْزِلِ البَاقِي[٢]

ويقول عمر بن عبد العزيز: «إننا خُلِقنا للأبد، وإنَّما ننقل من دار إلى دار»[٣].

إنَّ حاجة الإنسان إلى الدِّين تنبثق ـ قبل كلِّ شيء ـ من حاجته إلى معرفة حقيقة نفسه، وإلى معرفة حقائق الوجود الكبرى. وأول هذه الحقائق وأعظمها وجود الله تعالى ووحدانيَّته وكماله سبحانه، فبمعرفته والإيمان به جلَّ شأنه تنحلُّ عُقَد الوجود، ويتَّضح للإنسان الغاية والوجهة، ويتحدَّد المنهج والطريق.

حاجة الفِطرة البَشريَّة:

٢ ـ ما ذكرناه من حاجة الإنسان إلى الدِّين يتَّصل بحاجاته العقليَّة، ولكن هناك حاجة الوجدان والشعور أيضًا؛ فالإنسان ليس عقلًا فقط،

(١) رباعيات الخيام صـ ٣٥، ترجمة أحمد رامي، نشر دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠م، ط١.
(٢) البيت لأبي العتاهية. انظر: الإعجاز والإيجاز للثعالبي صـ ١٥١، نشر مكتبة القرآن، القاهرة.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٣٤)، في خطبة طويلة، تحقيق محمد عبد القادر عطا، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

كالأدمغة الإلكترونيَّة، إنَّما هو عقل ووجدان ورُوح. هكذا تكوَّنت فِطرته، ونطقت جِبِلَّتُه، فالإنسان بفطرته لا يُقنعه علمٌ ولا ثقافة، ولا يُشبع نُهْمَتَهُ فنٌّ ولا أدب، ولا يملأ فراغ نفسه زينةٌ أو متعة، ويظل قلق النفس، جوعان الروح، ظمآن الفِطرة، وشاعرًا بالفراغ والنقص، حتَّى يجد العقيدة في الله، فيطمئن بعد قلق، ويسكن بعد اضطراب، ويأمن بعد خوف، ويحسُّ بأنه وجد نفسه.

يقول الفيلسوف «أجوست سياتيه» في كتابه «فلسفة الأديان»: «لماذا أنا متدين؟ إنِّي لم أحرِّك شفتي بهذا السؤال مرَّة، إلَّا وأراني مسوقًا للإجابة عليه بهذا الجواب، وهو: أنا متدين، لأنِّي لا أستطيع خلاف ذلك؛ لأنَّ التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي. يقولون لي: ذلك له أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج، فأقول لهم: قد اعترضْتُ على نفسي كثيرًا بهذا الاعتراض نفسه، ولكنِّي وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها»[(١)].

ولا عجب أنْ وجدنا هذه العقيدة عند كلِّ الأمم، بدائية ومتحضِّرة، وفي كل القارات شرقية وغربية، وفي كل العصور قديمة وحديثة، وإنْ كان الأكثرون قد انحرفوا بها عن الصراط المستقيم.

يقول المؤرخ الإغريقي «بلوتارك»: قد وُجِدت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور، ومدن بلا مدارس، ولكن لم توجد أبدًا مدن بلا معابد[(٢)].

(١) الإسلام دين عام خالد تحليل دقيق لأصول الدين الإسلامي تحت ضوء العلم والفلسفة صـ ١٠، ١١، نشر مطبعة دائرة معارف القرن العشرين، ط ١، ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.

(٢) انظر: الله والإنسان لمصطفى محمود صـ ١١٦، نشر دار الجمهورية، القاهرة، سلسلة كتب للجميع، العدد (١١٣).

QaradawiBooks.com

ولهذا جعل القرآن الدين ـ بمعنى العقيدة ـ هو الفِطرة البَشريَّة نفسها: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

حاجة الإنسان إلى الصحة النفسيَّة والقوَّة الروحيَّة:

٣ ـ وثمت حاجة أخرى إلى الدين: حاجة تقتضيها حياة الإنسان وآماله فيها، وآلامه بها، حاجة الإنسان إلى ركن شديد يأوي إليه، وإلى سند متين يعتمد عليه، إذا ألمَّت به الشدائد، وحلَّت بساحته الكوارث، ففقد ما يحب، أو واجه ما يكره، أو خاب ما يرجو، أو وقع به ما يخاف. هنا تأتي العقيدة الدينيَّة، فتمنحه القوَّة عند الضعف، والأمل في ساعة اليأس، والرجاء في لحظة الخوف، والصبر في البأساء والضرَّاء وحين البأس.

إنَّ العقيدة في الله وفي عدله ورحمته، وفي العوض والجزاء عنده في دار الخلود، تهب الإنسان الصحة النفسيَّة والقوَّة الروحيَّة، فتشع في كيانه البهجة، ويغمر روحه التفاؤل، وتتسع في عينه دائرة الوجود، وينظر إلى الحياة بمنظار مشرق، ويهون عليه ما يلقى وما يكابد في حياته القصيرة الفانية، ويجد العزاء والرجاء والسكينة ما لا يقوم مقامه، ولا يُغني عنه علم ولا فلسفة ولا مال ولا ولد ولا مُلْك المشرق والمغرب.

ورضي الله عن عمر إذ قال: «ما أصبتُ بمصيبة إلَّا كان لله عليَّ فيها أربع نِعَم: أنَّها لم تكن في ديني، وأنَّها لم تكن أكبر منها، وأنَّني لم أُحرم الرضا عند نزولها، وأنَّني أرجو ثواب الله عليها»[1].

(١) فيض القدير للمناوي (١٣٣/٢)، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ. وانظر كتابنا: الإيمان والحياة صـ ١٧٠ ـ ١٧٥، موضوع: الثبات في الشدائد، صـ ٢٤٢ ـ ٢٥٩، موضوع: القوة.

QaradawiBooks.com

أما الَّذي يعيش في دنياه بغير دين، بغير إيمان، يرجع إليه في أموره كلها ـ وبخاصَّة إذا ادلهمتْ الخطوب، وتتابعت الكروب، والتبست على الناس المسالك والدروب ـ يستفتيه فيفتيه، ويسأله فيجيبه، ويستعينه فيعينه، ويمنحه المدد الَّذي لا يغلب، والعون الَّذي لا ينقطع ـ الَّذي يعيش بغير هذا الإيمان ـ يعيش مضطرب النفس، متحيِّر الفكر، مبلبل الاتجاه، ممزَّق الكيان، شبَّهه بعض فلاسفة الأخلاق بحال «رافاياك» التعس، الَّذي يحكون عنه أنَّه اغتال الملك، فكان جزاؤه أن يُربط من يديه ورجليه إلى أربعة من الجياد، ثمَّ ألهب ظهر كل منها، لتتجه مسرعة، كل واحد منها إلى جهة من الجهات الأربع، حتَّى مُزِّق جسمه شرَّ مُمزَّق!

هذا التمزق الجسمي البشع مثال للتمزق النفسي الَّذي يعانيه مَنْ يحيا بغير دين، ولعل الثاني أقسى من الأوَّل وأنكى في نظر العارفين المتعمِّقين؛ لأنَّه تمزُّق لا ينتهي أثره في لحظات، بل هو عذاب يطول مداه، ويلازم مَن نُكِب به طول الحياة.

ولهذا نرى الَّذين يعيشون بغير عقيدة راسخة يتعرَّضون أكثر من غيرهم للقلق النفسي، والتوتر العصبي، والاضطراب الذهني، وهم ينهارون بسرعة إذا صدمتهم نكبات الحياة، فإمَّا انتحروا انتحارًا سريعًا، وإمَّا عاشوا مرضى النفوس، أمواتًا كالأحياء! على نحو ما قال الشاعر العربي قديمًا:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ ... إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ!
إِنَّمَا الْمَيْتُ مَنْ يَعِيشُ كَئِيبًا ... كَاسِفًا بَالُهُ قَلِيلَ الرَّجَاءِ[1]**!**

(١) من شعر عدي بن الرعلاء الغساني. انظر: الأصمعيات صـ ١٥٢، نشر دار المعارف، مصر، ط ٧، ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

وهـذا ما يُقَرِّره علمـاء النفس وأطبَّـاء العلاج النفسـي في العصر الحديث، وهـو ما سجَّله المُفَكِّرون والنُّقَّاد في العالَم كله.

يقول المُؤَرِّخ الفيلسـوف «أرنولد توينبي»: «الدِّين إحدى المَلَكَات الضروريَّة الطبيعيَّة البَشريَّة، وحسْبُنا القول بأنَّ افتقار المرء للدِّين يدفعه إلى حالةٍ من اليـأس الرُّوحي، تضطرُّه إلى التمـاس العزاء الديني على موائد لا تملك منه شيئًا»[١].

ويقول الدكتور «كارل يانج» في كتابه «الإنسان العصري يبحث عن نفسه»: «إنَّ كل المرضى الَّذين استشاروني خلال الثلاثين سنة الماضية، من كل أنحاء العالَم، كان سـبب مرضهم هو نقـص إيمانهم، وتزعزع عقائدهم، ولم ينالوا الشفاء إلَّا بعد أن استعادوا إيمانهم»[٢].

ويقـول «وليم جيمس» فيلسـوف المنفعة والـذرائـع: «إنَّ أعـظـم عـلاج للقـلـق ـ ولا شك ـ هو الإيمان»[٣].

ويقول الدكتور «بريـال»: «إنَّ المرء المتديِّن حقًّـا لا يعاني قَطُّ مرضًا نفسيًّا».

ويقول «ديل كارنيجي» في كتابه «دع القلق وابدأ الحياة»: «إنَّ أطباء النفس يدركون أنَّ الإيمان القويَّ والاستمساك بالدين، كفيلان بأنْ يقهرا القلق، والتوتر العصبي، وأنْ يشفيا من هذه الأمراض»[٤].

---

(١) مختصر دراسة التاريخ لأرنولد توينبي (١٧٩/٣).

(٢) انظر: الإسـلام يتحدى لوحيد الدين خـان صـ ٢٥٩، ترجمة ظفر الإسـلام خان، مراجعة د. عبد الصبور شاهين، نشر المختار الإسلامي، القاهرة، ط ٧، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

(٣) انظر: دع القلق وابدأ الحياة لديل كارنيجي صـ ٢٠٩، ترجمة عبد المنعم محمد الزيادي، نشر مكتبة الخانجي، ط ١٦.

(٤) المصدر السابق صـ ٢١١ ـ ٢١٢ بتصرف.

QaradawiBooks.com

وقد أفاض الدكتور «هنري لنك» في كتابه «العودة إلى الإيمان» في بيان ذلك والتدليل عليه بما لمسه وجرَّبه من وقائع وفيرة، خلال عمله في العلاج النفسي.

حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط أخلاقيَّة:

٤ ـ وهناك حاجة أخرى إلى الدين: حاجة اجتماعيَّة، إنَّها حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط: بواعث تدفع أفراده إلى عمل الخير، وأداء الواجب وإن لم يوجد من البَشر مَن يراقبهم، أو يكافئهم، وضوابط تحكم علاقاتهم، وتُلزم كل واحد منهم أنْ يقف عند حدِّه، ولا يعتدي على حقِّ غيره، أو يُفرِّط في خير مجتمعه، من أجل شهوات نفسه، أو منفعته المادِّيَّة العاجلة.

ولا يقال: إنَّ القوانين واللوائح كافية لإيجاد هذه الضوابط وتلك البواعث، فإنَّ القوانين لا تخلق باعثًا، ولا تكفي ضابطًا؛ فإنَّ الإفلات منها ممكن، والاحتيال عليها ميسور. ولهذا كان لا بدَّ من بواعث وضوابط أخلاقيَّة، تعمل من داخل النفس الإنسانيَّة لا من خارجها. لا بدَّ من هذا الباعث الداخلي، ومن هذا الوازع الذاتي، لا بدَّ من الضمير، أو «الوجدان» أو «القلب» ـ سمِّه ما شئت ـ فهو القوَّة الَّتي إذا صلحت صلح عمل الإنسان كله، وإذا فسدت فسد كله.

ولقد عرف الناس بالمشاهدة والتجربة واستقراء التاريخ: أنَّ العقيدة الدينيَّة لا يغني غناءها شيء في تربية الضمير وتزكية الأخلاق، وتكوين البواعث الَّتي تحفز على الخير، والضوابط الَّتي تردع عن الشر، حتَّى قال بعض قضاة العصر في بريطانيا ـ وقد هاله ما رأى من جرائم موبقة، رغم تقدُّم العلم، واتساع الثقافة،

QaradawiBooks.com

ودين القوانين ـ: «بدون أخلاق لا يوجد قانون، وبدون إيمان لا توجد أخلاق»[١].

ولا غرو أن اعترف بعض الملاحدة أنفسهم بأنَّ الحياة لا تستقيم بدون دين، بدون عقيدة في الله وفي الجزاء في الآخرة، حتَّى قال «فولتير»: «لو لم يكن الله موجودًا لوجب علينا أن نخلقه»! أي نخترع للناس إلٰهًا يرجون رحمته ويخافون عذابه، ويلتمسون رضاءه فيعملون الصالحات، ويتجنَّبون السيئات. ويقول مرَّة أخرى ساخرًا: «لِمَ تشككون في وجود الله، ولولاه لخانتني زوجتي، وسرقني خادمي»!

وقال «بلوتارخ»: «إن مدينة بلا أرض تقوم عليها، أسهل من قيام دولة بلا إلٰه»[٢]!

شهادة التاريخ والواقع:

إنَّ تجارب التاريخ وتجارب الواقع كلَّها تنطق بأصالة الإيمان في الحياة، وضرورته للإنسان؛ فهو ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ويزكو، وهو ضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرقى.

يقول الأستاذ العقاد: «إنَّ تجارب التاريخ تقرِّر لنا أصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى، ولا تسمح لأحدٍ أنْ يزعم أنَّ العقيدة الدينيَّة شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه، ويستطيع الفرد أنْ يستغني عنه، في علاقته بتلك الجماعة، أو فيما بينه وبين سريرته المطوية من حوله، ولو كانوا من أقرب الناس إليه.

(١) انظر كتابنا: الإيمان والحياة صـ ١٨١ ـ ٢٣٣، فصل: الإيمان والأخلاق.

(٢) انظر: الله والإنسان صـ ١١٦.

QaradawiBooks.com

ويكرِّر لنا التاريخ أنَّه لم يكن قَط لعامل من عوامل الحركات الإنسانيَّة أثر أقوى وأعظم من عامل الديـــن، وكل ما عداه من العوامل الأخرى في حركات الأمم، فإنَّها تتفاوت فيه القوَّة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينيَّة من المشابهة في التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة.

هذه القوَّة لا تضارعها قوَّة العصبيَّة ولا قوَّة الوطنيَّة ولا قوَّة العُرف، ولا قوَّة الأخلاق، ولا قوَّة الشـــرائع والقوانين، إذ كانـــت هذه القوَّة إنَّما ترتبط بالعلاقـــة بين المرء ووطنـــه، أو العلاقة بينه وبيـــن مجتمعه، أو العلاقة بينه وبين نوعه، على تعدُّد الأوطان والأقوام.

أما الدين فمرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره، وميدانه يتَّسع لكلِّ ما في الوجود من ظاهر وباطن، ومن علانية وسرٍّ، ومن ماضٍ أو مصير، إلى غير نهاية، بين آزال لا تُحصى في القِدَم، وآباد لا تُحصى فيما ينكشـــف عنه عالَم الغيـــوب. وهذا على الأقل هو ميـــدان العقيدة الدينيَّة فـــي مثلها الأعلى، وغاياتها القصوى، وإن لم تســـتوعبها ضمائر المتديِّنين في جميع العصور.

ومن أدلَّة الواقع علـــى أصالة الدين: أنَّك تلمـــس هذه الأصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة، والجماعة الَّتي لا دين لها، أو لا تعتصم من الدين بركن مكين.

وكذلك تلمس هذه الأصالة عند المقابلـــة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشـــاملة، وفرد معطَّـــل الضمير، مضطرب الشـــعور، يمضي في الحياة بغير محور يلوذ به، وبغير رجاء يسمو إليه.

لهذا، فإنَّ الفارق بين الجماعتَيْن وبين الفردَيْن، كالفارق بين شجرة راسخة في منبتها، وشجرة مجتثَّة من أصولها!

QaradawiBooks.com

وقَلَّ أنْ ترى إنسانًا معطَّل الضمير، على شيء من القوَّة والعظمة، إلَّا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم، إذا حلَّت العقيدة في وجدانه محلَّ التعطُّل والحَيْرة»[1].

لا بديل عن الدِّين:

ومن الناس مَن يتصور إمكان الاستغناء عن الدين بالعلم الحديث حينًا، أو المذاهب الفِكْرِيَّة (الأيديولوجيَّات) الحديثة حينًا آخر.

وكلا التصوُّرَيْن خطأ.

فقد بيَّن الواقع الناطق أنَّه لا شيء يُغني عن الدِّين، ويقوم بديلًا عنه في أداء رسالته الضخمة في حياة الإنسان.

العلم ليس بديلًا عن الدِّين:

أما العلم فليس بديلًا عن الدين والإيمان بحال، فإنَّ مجال العلم غير مجال الدين. وأريد بـ «العلم» هنا العلم بمفهومه الغربي المحدود، لا بمفهومه الإسلامي الشامل، الَّذي يشمل العلم بالظواهر الجزئيَّة للكون، والعلم بحقائق الوجود الكبرى. أي: ما يشمل علم الدنيا، وعلم الدين. فليس هو علم المادَّة وخواصها فحسب، بل العلم المتعلق بالكون والحياة والإنسان، وخالقها سبحانه.

العلم بالمفهوم الغربي لا يصلح بديلًا عن الدين؛ لأنَّ مهمَّة هذا العلم أنْ يُيسِّر للإنسان أسباب الحياة، لا أنْ يُفسِّر له ألغازها. العلم يعين

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه صـ ١٥، ١٦، نشر المكتبة العصرية، بيروت.

QaradawiBooks.com

الإنسان على حلِّ مشكلة العيش، ولكن لا يعينه على حلِّ مشكلة الوجود وقضاياه الكبرى.

ولهذا نرى أعظم البلاد في عصرنا تقدُّمًا في العلم، وأخذًا بأسبابه، يشكو أهلها من الفراغ الروحي، والقلق النفسي، والاضطراب الفكري، والشعور الدائم بالتفاهة والاكتئاب والضياع. ونرى شبابها ينقلبون بين شتَّى البِدع الفِكْرِيَّة والسلوكيَّة، ثائرين على آلة الحياة، ومادِّيَّة الحضارة، وإن لم يهتدوا إلى المنهج السليم والصراط المستقيم.

وهذا هو سرُّ العِوَج والشذوذ والانحرافات، الَّتي لمسها العالم كله في سلوك أولئك الشباب الحائرين، الَّذين يسمُّونهم «الخنافس» أو «الهيبيِّين» وأشباههم ممَّن ضاق ذرعهم بتفاهة العيش، وتمرَّدوا على حضارة الغرب وإنْ نشؤوا بين أحضانها.

إنَّ العلم الحديث محدود الوسع، محدود القُدرة، محدود المجال.

في وسع العلم أنْ يمنح الإنسان الوسائل والآلات، ولكن ليس في وسعه ولا من اختصاصه أنْ يمنحه الأهداف والغايات، وما أتعس الإنسان إذا تكدَّست لديه الوسائل دون أنْ يعرف لنفسه هدفًا ولا لحياته قيمة، إلَّا أهداف السباع في العدوان، أو أهداف البهائم في الأكل والسِّفاد. أما هدف رفيع يليق بمواهب الإنسان، وخصائص الإنسان، وكرامة الإنسان، فلا.

إنَّ الدين وحده هو الَّذي يمنح الإنسان أهدافًا عُليا للحياة وغايات كبرى للوجود، ويجعل له فيه مهمَّة ورسالة، ولحياته قيمةً واعتبارًا، كما يمنحه القِيَم الخُلُقية والمُثُل العليا الَّتي تحبسه عن الشرِّ، وتحفِّزه على الخير، لغير منفعة مادِّيَّة عاجلة.

QaradawiBooks.com

لقد أعطى العلم الإنسان جناحي طائر فحلَّق في الفضاء، وأعطاه خياشيم حوت فغاص في أعماق الماء، ولكنَّه لم يُعْطِه قلب إنسان!

وحين يعيش الإنسان في الحياة بغير «قلب الإنسان» تستحيل أدوات العلم في يديه إلى مخالب وأنياب تقتل وتُرهب، وإلى معاول وألغام تنسف وتُدمِّر.

تستحيل أدوات العلم إلى أسلحة نوويَّة، وقنابل «نابالم»، وغازات سامَّة، وأسلحة كيماويَّة وجرثوميَّة، تنشر الموت والخراب عند استعمالها، وتشيع الذعر والخوف قبل استعمالها[1].

أجل، قد استطاع العلم أنْ يضع قدم الإنسان على سطح القمر، ولكنَّه لم يملك أن يضع يده على سرِّ وجوده، وغاية حياته!

لقد اكتشف الإنسان بالعلم «أشياء» كثيرة. ولكنَّه لم يكتشف حقيقة نفسه! أوصله علم القرن العشرين إلى القمر. ولكن لم يوصله إلى السعادة والطمأنينة على ظهر الأرض! جلب من هناك بعض الصخور والأتربة، ولكنَّه لم يجد هناك ما يُخرجه من التعاسة والقلق والضياع في كوكبه!

أصلح العلم ظاهر الإنسان، وعجز عن إصلاح باطنه، لم يستطع أن ينفذ إلى تلك «اللطيفة الربَّانيَّة» المدركة الواعية، الشاعرة الحسَّاسة، الَّتي إذا صلحت صلح الإنسان كلُّه، وإذا فسدت فسد الإنسان كلُّه، ألا وهي القلب، أو النفس، أو الروح، سمِّها ما شئتَ، فهي حقيقة الإنسان!

(١) راجع: الأسلحة الكيماوية والجرثومية للدكتور نبيل صبحي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، لترى ما يحضِّره أعداء الإنسانية لإفناء الأحياء بسلطان العلم ومقدرة العلماء.

QaradawiBooks.com

أعطى العلم إنسان القرن العشرين سلاحًا انتصر به على بعض قُوَى الطبيعة، ولم يعطه ما ينتصر به على نفسه: على شهواته، وشكِّه، وقلقه، وخوفه، وتخبُّطه، وصراعه الداخلي والاجتماعي.

لقد تقدَّم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما في هذا القرن، وبدأ الأطباء يقولون: إنَّ العلم يستطيع القضاء على كلِّ مرض غير الموت والشيخوخة! ولكن الأمراض تكثر وتتشعَّب وتنتشر بسرعة مذهلة، ومنها «الأمراض العصبيَّة والنفسيَّة» الَّتي هي نتائج وأعراض «التناقض» الشديد الَّذي يمرُّ به الفرد والمجتمع.

لقد حاول العلم الحديث أن يُغَذِّي كلَّ الجوانب المادِّيَّة في الجسم الإنساني، ولكنَّه فشل في تغذية الشعور والأماني والإرادة، وكانت حصيلة ذلك جسمًا طويل القامة، ممتلئ النواحي، ولكن الجانب الآخر من الجسم ـ وهو أصل الإنسان ـ أصبح يعاني من أزمات لا حدَّ لها.

لقد أكَّدت إحصائية: أنَّ ثمانين في المائة (٨٠٪) من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضًا ناتجة عن الأعصاب من ناحية أو أخرى. ويقول علم النفس الحديث: إنَّ من أهم جذور هذه الأمراض النفسيَّة: الكراهية والحقد والجريمة والإرهاق واليأس والترقُّب والشكُّ والأثرة والانزعاج من البيئة. وكلُّ هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله.

إنَّ هذا الإيمان بالله يمنح الإنسان يقينًا جبارًا حتَّى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب، فهو يجاهد في سبيل هدفٍ سامٍ أعلى، ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القذرة.

QaradawiBooks.com

إنَّ الإيمان بالله يعطي الإنسان «محرِّكًا» هو أساس سائر الأخلاق الطيبة ومصدر قوَّة العقيدة، العقيدة الَّتي عبَّر عنها السير «وليام أوسلر» بقوله: إنَّها قوَّة مُحَرِّكة عظيمة، لا توزن بأي ميزان، ولا يمكن تجربتها في المعامل.

إنَّ هذه العقيدة هي سرُّ مخزن الصحة الموفورة الَّتي يتمتع بها أصحابها، وأية نفسية محرومة من هذه العقيدة لن تنتهي إلَّا بالأمراض أقساها وأعتاها.

ومن شقوة الإنسان أنَّ علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود في الكشف عن أمراض نفسية وعصبيَّة جديدة، ولكنَّهم في الوقت نفسه يهملون بذل الجهود للوصول إلى علاج هذه الأمراض، وهذه الظاهرة تثير شعورًا كئيبًا بأنَّ هؤلاء العلماء قد أخفقوا في الميدان الأخير، ولذلك أكبُّوا على الميدان الثاني يسترون خيبتهم، ويُظهرون بطولتهم أمام العالَم!

وإلى ذلك أشار أحد العلماء المسيحيِّين قائلًا: إنَّ علماء الطبِّ النفسي يبذلون كلَّ جهودهم في كشف أسرار «القفل» الدقيقة الَّذي سوف يغلق علينا كلَّ أبواب الصحَّة!

فالمجتمع الجديد يسير في اتِّجاهين في وقتٍ واحد، فهو يحاول من جهة الحصول على جميع الكمالات المادِّيَّة، على حين يتسبَّب لتركه الدِّين في خلق أحوال تجعل من الحياة جحيمًا. إنَّه يعطيك دواء الشفاء من الفم، ويحقنك السمَّ في العضل»[1]!

(١) الإسلام يتحدى صـ ٢٥٥ ـ ٢٥٧.

QaradawiBooks.com

الأيديولوجيَّات الحديثة لا تُغني عن الدين:

وإذا كان العلم لا يصلح قَط بديلًا عن الدين، فمثله المذاهب الفِكْرِيَّة الوضعيَّة (الأيديولوجيَّات) الَّتي أصبح لها في عصرنا دعاتها ومُبشِّروها. فهي لا تستطيع أبدًا أنْ تقوم مقام الدين. وهذا أحد الخبراء العالميين بالمذاهب والحضارات يُحدِّثنا عن ذلك، فلنستمع إليه.

يقول «أرنولد توينبي» في كتابه «العادة والتغيير»: «إنَّ من الخصائص الأساسيَّة للإنسان الإدراك، إدراك وجوده، وإدراك العالَم المحيط به، سواء من البَشر أو العالَم المادي وغير المادي. هذا الإدراك هو ما جعل الإنسان مختارًا في تصرُّفاته، ذا إرادة فيما يتخذ من قرارات، فقد قاده هذا الإدراك إلى اكتشاف أنَّه لا يعلم عن العالَم الَّذي يعيش فيه إلَّا القليل من القشور، وأنَّ هذا القليل الَّذي يعرفه لا يستطيع أنْ يُفسِّر له سرَّ الحياة والكون. ولقد أدرك أنَّ الكلمة الأخيرة في مصيره ليست في متناوله، ولكنَّها مِلْك قوى قاهرة، عليه أنْ يتعرَّف عليها، وأنْ يعيش متوافقًا معها متصلًا بها.

وحيث إنَّ التديُّن جزء من الطبيعة البَشريَّة، وحيث إنَّ الإنسان لا يستطيع أنْ يعيش دون دين من نوعٍ ما، فلقد ترتَّب على تراجع الدين عن موقعه في أوربا أنْ قامت ديانات بديلة تسمَّى: المذاهب الفِكْرِيَّة، أو الأيديولوجيَّات الفرديَّة أو الرأسماليَّة، والجماعيَّة أو الشيوعيَّة، والوطنيَّة أو القوميَّة.

إنَّ الحرب الباردة الَّتي يستعر أوارها بين الأيديولوجيَّات المعاصرة من جانب، والأديان العليا (السماويَّة) من جانب آخر هي أخطر ـ بالنسبة لمستقبل البَشريَّة ـ من المشادَّة بين الشيوعيَّة والرأسماليَّة، بالرغم ممَّا

QaradawiBooks.com

يلقاه الحوار بينهما من اهتمام عالَمي. فهل هــذه الأيديولوجيَّات أديان جديدة أم انتكاسات؟

في الحقِّ إنَّها ليســت أمرًا جديدًا، إنَّها انتكاسة للحُرِّيَّة الَّتي اكتسبها الإنســان عبر العصور، إنَّها تأخُّر ورجعيَّة إلى فجر الحضارة حينما كان الإنسان يعبد ما لا يستطيع أن يسيطر عليه من قُوًى غامضة، وهو حينما تقدَّم واستطاع أنْ يكون له دور مهمٌّ في البيئة الطبيعيَّة، ترك عبادة قُوَى الطبيعة، وعبد قُوَّته الجماعيَّة كما تتمثل في الحاكم.

إنَّ الشــيوعيَّة قــد أخطأت الســبيل ـ لا في إصرارها علــى العدالة الاجتماعيَّة ـ ولكن في تضحيتها بالحرية من أجل العدالة.

والرأسماليَّة أيضًا قد أخطأت الســبيل ـ لا في إصرارها على احترام فرديَّة الإنسان وحريته ـ ولكن في تضحيتها بالعدالة في سبيل الفرديَّة.

إنَّ كلًّا منهما يُؤيِّد جانبًا على حساب الآخر، وكلتا النظريتين مادِّيَّة، وكما كان الإنسان لا يستطيع أنْ يحيا بالخبز وحده، فإنَّ هذين التفسيرين المادِّيَّين للعدالة والحُرِّيَّة تفسيران خاطئان.

على أنَّه يبدو أنَّ كلتا العقيدتين ستســتمر في الحياة، ولن تســتطيع إحداهما التغلُّب نهائيًّا علــى الأخرى، والاثنان في صراع مع الوطنيَّة أو القوميَّة، ولو أنَّ هذا الصراع لا يحظى باهتمامٍ كبير، ولكنَّه ما إن تصطدم إحداهما مــع الوطنيَّة حتَّى تنتصــر الوطنيَّة، وحينئذٍ يصبح الشــيوعي والرأسمالي وطنيًّا أولًا وتتبعها صفته الثانية: الشيوعيَّة أو الرأسماليَّة.

إنَّ جميع الأيديولوجيَّات تشترك في نقطة ضعف واحدة قد تودي بها جميعًا، وذلك في منافستها للأديان العليا على اكتساب ولاء الجماهير.

QaradawiBooks.com

وهذا معناه العودة إلى عبادة الإنسان، فبعد أنْ حرَّرته الأديان من عبودية المجتمع، وعبودية الفرد، ليتَّجه إلى الله وحده، عاد الإنسان إلى سجن المجتمع، وبعد أنْ كان في علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة، عاد إلى ديكتاتوريَّة العصور البائدة.

فتضاءل ليصبح مجرد نملة اجتماعيَّة في مجتمع النمل!

لقد استطاعت الأديان أنْ تُعلِّم الإنسان أنَّه ليس حشرة اجتماعيَّة، ولكنَّه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار، ولن تستطيع الأيديولوجيَّات أنْ تنسيه هذه الحقيقة؛ لأنَّها لا تستطيع أنْ تحقِّق له الانعتاق الروحي الَّذي منحته له الأديان. صحيح أنَّ بعض الأديان قد أقامت سجونًا من صنعها، حينما خلقت من الأجهزة والنُّظم ما أصبح حاجزًا بين الإنسان وخالقه، كما كان يصنع المجتمع القديم من قبل، وهذا التحكُّم والتسلُّط من جانب بعض الأجهزة الدينيَّة يتناقض أساسًا مع سبب وجودهما؛ فإنَّها وُجِدت لتحرِّر الإنسان من إسار المجتمع، وتضعه مباشرة أمام مسؤولياته في علاقة مباشرة مع الحقيقة السرمديَّة الخالدة، ومع ذلك فبالرغم من هذا التسلُّط والتحكُّم من جانب بعض الأديان، إلَّا أنَّها استطاعت أنْ تمنح معتنقيها هديَّة لا تستطيع أنْ تجاريها فيها الأيديولوجيَّات الحديثة، لقد منحته الاطمئنان من المساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخليق بالطموح، لقد منحته الراحة الروحيَّة وحرَّرته من سجون المجتمع.

إنَّ كلَّ إنسان يخطئ ويفشل، ويزِلُّ ويشقى، وفي النهاية ينتهي إلى الموت، ومن هنا جاءت حاجته العميقة إلى العون الروحي الَّذي لا تستطيع أن تقدِّمه له الأيديولوجيَّات.

QaradawiBooks.com

ومع هذا، فـإنَّ الأيديولوجيَّات ستستـمر في اجتـذاب الناس إلى حظيرتها ما لم تعمل الأديان على أنْ تستعيد سلطانها على قلوب البَشر، وهي لن تستطيع ذلك إلَّا إذا صدقت مع نفسها واستطاعت:

١ ـ أنْ تتعاون بدلًا من الصراع والعداوة.

٢ ـ وأنْ تهتمَّ اهتمامًا جديًّا بحقائق العصر الحديث.

٣ ـ وأنْ تنفض عنها الطقـوس الَّتي طغت على جوهرها، ممَّا تراكم من الخزعبلات عبر العصور.

فالدين هو قلب الحياة للإنسـان، وهو جوهر الحياة للإنسـانيَّة، هو النور الَّذي يغمر القلوب، فلا غِنًى للإنسـان عن الدين، ولن تسـتطيع الأيديولوجيَّات أنْ تحلَّ محلَّ الدين؛ لأنَّها تمنحنا التعصب والتباغض، بدلًا من أنْ تمنحنا المحبة والتعاون، إنَّها قد تمنحنا لقمة الخبز، ولكنَّها تسلبنا الطمأنينة النفسيَّة والتحرُّر الرُّوحي»[١].

الردُّ على دعوى الماركسيِّين:

أمَّا ما يُردِّده الماركسـيُّون من أنَّ الدين «أفيون الشعوب» فهو ادعاءٌ باطلٌ ومردودٌ من وجهَيْن:

الوجه الأوَّل:

أنَّ الدِّين الصحيح لا يُخدِّر الشعب، ولا يلهيه عن المطالبة بحقِّه في الدنيا، اسـتغراقًا بطلب النعيم في الآخرة! الدين الصحيح لا يقرُّ الظلم،

(١) مقال الأيديولوجيات والدين ترجمة أ. محمد همام الهاشـمي الخبير الاجتماعي بمجلس التخطيط بالكويت، مجلة الوعي الإسلامي، السنة (٣)، العدد (٢٧).

QaradawiBooks.com

ولا يرضى بالفساد والانحراف، فإنْ صحَّ هذا الادِّعاء في شأن بعض الأديان، فلا يصحُّ بحالٍ في شأن الإسلام.

الإسلام في الحقيقة ثورة إنسانيَّة كبرى. ثورة لتحرير الإنسان ـ كل إنسان ـ من العبودية والخضوع لغير خالقه، ثورة في عالَم الفكر والضمير والشعور، وثورة في عالَم الواقع والتطبيق.

وكان عنوان هذه الثورة هي هذه الكلمة العظيمة، كلمة التوحيد: «لا إلٰه إلَّا الله». فكل مدَّعٍ أو متعاطٍ للألوهيَّة في الأرض، بالقول أو بالفعل، هو مزوِّر لا وجود له، ولا يستحقُّ البقاء. وكل الَّذين زعموا لأنفسهم ـ أو زعم لهم بعض الناس ـ أنَّهم أرباب مع الله، أو من دون الله، يجب أنْ يسقطوا إلى الأبد، ويتواروا عن مسرح الحياة.

الناس إذن سواسية، لا يجوز أنْ يستعبد بعضهم بعضًا، أو يطغى بعضهم على بعض، فإذا ظلم بعض الناس وطغى وأفسد، كان على الناس أن يعترضوا طريقه، ويأخذوا على يديه، وإلَّا كانوا شركاءه في الإثم واستحقاق العقوبة العادلة من الله.

يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

ويقول: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ويقول الرسول ﷺ: «**إنَّ النَّاس إذا رأوا الظالمَ ولم يأخذوا على يدَيْه، أوشك أنْ يَعُمَّهم اللهُ بعقابٍ من عنده**»(١).

(١) رواه أحمد (١)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الملاحم =

QaradawiBooks.com

ويوجب على كل مَن رأى منكرًا ـ أي ظلمًا أو فسادًا أو انحرافًا ـ أنْ يعمل على تغييره بكلِّ ما يستطيع من قوته: «**مَن رأى منكم منكرًا فليُغَيِّره بيده، فإن لم يستطعْ فبلسانِه، فإن لم يستطعْ فبِقَلْبِه، وذلك أضعفُ الإيمان**»[(١)].

والتغيير بالقلب ـ الَّذي هو أدنى الدرجات وأضعف الإيمان ـ ليس أمرًا سلبيًّا تافهًا. إنَّها جمرة الغضب والكراهية للفساد والمنكر تتوهَّج وتتَّقِد في الجوانح، حتَّى تجد الفرصة للتغيير بالقول أو الفعل، باللسان أو اليد. وأدنى ثمراته العاجلة: النفور من الظَلَمة والمفسدين والمقاطعة لهم، فلا يؤاكلهم ولا يشاربهم، ولا يجالسهم ولا يصاحبهم.

وقد عَدَّ النبي ﷺ مقاومة الظلم والفساد الداخلي، كمقاومة الغزو والعدوان الخارجي، كلاهما جهاد في سبيل الله. بل حين سُئِل: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «**كلمةُ حقٍّ عند سلطانٍ جائر**»[(٢)]، فاعتبر ذلك أفضل الجهاد وأعلاه.

فهذا دِين يحرِّض على مقاومة الظلم حتَّى الموت. ويعدُّ الميت في سبيل ذلك شهيدًا في سبيل الله، بل في طليعة الشهداء المرموقين، بجوار حمزة بن عبد المطلب، سيد الشهداء، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**سيِّد الشهداء حمزة، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائر، فأمره ونهاه، فقتله**»[(٣)].

= (٤٣٣٨)، والترمذي في الفتن (٣٠٥٧)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٥٦٤)، عن أبي بكر الصديق.

(١) رواه مسلم في الإيمان (٤٩)، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه أحمد (١٨٨٢٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. والنسائي في البيعة (٤٢٠٩)، عن طارق بن شهاب.

(٣) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (١٩٥/٣)، وصحَّح إسناده، وقال الذهبي: الصفار ـ أحد =

QaradawiBooks.com

إنَّ الإسلام يُربِّي المسلم على الشعور بالكرامة وعزة النفس، ويجعل ذلك من خصائص الإيمان وآثاره: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، بل من خصائص الإنسانيَّة ولوازمها: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولهذا يبرأ الإسلام مِن كلِّ مَن يرضى لنفسه بالذل والمهانة، ويصبر على القيد يُوضع في رِجله، أو الغل يوضع في عنقه دون أنْ يقاوم الظلم، أو يحاول التخلُّص منه، ولو بالهجرة إلى أرض الله الفسيحة، يقول القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

ويردُّ الرسول ﷺ منطق الاستسلام الجبري أو السلبي لأحداث الحياة ووقائع الدهر باسم الإيمان بالقَدَر، ويعتبر ذلك ضربًا من العجز المذموم في دين الله.

إنَّ النبيَّ ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضيُّ عليه لما أدبر: حسبي الله ونِعْمَ الوكيل! فقال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ يلومُ على العَجْز، ولكن عليك بالكَيْس، فإذا غلبك أمرٌ، فقلْ: حَسْبِيَ اللهُ، ونِعْمَ الوكيل**»[1].

كره النبيُّ العظيم من الرجل أنْ يواري عجزه بالحَسْبَلَة والحَوْقَلَة، بدل أنْ يواجه الأمر بما ينبغي له من الحكمة والتفطن. فذِكْر الله في غير موضعه عجز واستسلام.

= الرواة ـ لا يُدرَى من هو. والخطيب في تاريخ بغداد (٥٣/٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٧٤)، عن جابر بن عبد الله.

(١) رواه أحمد (٢٣٩٨٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الأقضية (٣٦٢٧)، عن عوف بن مالك الأشجعي.

QaradawiBooks.com

ومن هنا جاء في وصاياه ﷺ: «**المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف... احرصْ على ما ينفعُكَ، واستعنْ بالله ولا تَعْجِزْ**»(١).

وجاء في أدعيته الَّتي علَّمها لبعض أصحابه: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من الهمِّ والحَزَن، وأعوذُ بك من العَجْز والكسل، وأعوذُ بك من الجبن والبخل، وأعوذُ بك من غلبة الدَّيْن وقَهْرِ الرجال**»(٢).

ففي هذا الدعاء استعاذة بالله تعالى من كلِّ مظاهر الضعف الَّتي تعتري الإنسان فتغلبه وتقهره وتذلُّه.

ومثل ذلك ما جاء في دعاء القنوت: «**اللهمَّ إنَّا نستعينُك ونستهديك ونستغفرُك ونتوبُ إليك، ونؤمن بك ونتوكَّلُ عليك، ونُثني عليك الخيرَ كلَّه، نشكرُك ولا نكفرُك، ونخلعُ ونتركُ مَنْ يَفْجُرُكَ**»(٣). فانظر ما تحمله هذه العبارة: «**ونخلع ونترك مَن يفجرك**» من تحريض سافر على خلع ومقاومة كلِّ ظالمٍ فاجر، مهما تكن مكانته ومنصبه في الناس.

فهل يقال في مثل هذا الدين الَّذي يدعو إلى الثورة على الباطل والضعف والعجز والعبودية، ويحرِّض على نُصرة الحق والقوَّة والحرية: إنَّه أفيون الشعب، يُخدِّره ويمنِّيه بنعيم الجنة، ليسكت على مظالم حياته الدنيا؟!

---

(١) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وأحمد (٨٧٩١)، عن أبي هريرة.
والعجز: ترك ما يجب فعله بالتسويف، والكيس: العقل وحُسن التصرف.

(٢) رواه أبو داود في الصلاة (١٥٥٥)، عن أبي سعيد الخدري، وفي سنده راوٍ ليِّن الحديث، ولكن المفردات المستعاذ منها ثبتت في الصحاح.

(٣) رواه عبد الرزاق (٤٩٦٨)، وابن أبي شيبة (٧١٠٠)، والبيهقي (٢١٠/٢)، ثلاثتهم في الصلاة، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٤٢٥)، عن عمر موقوفًا.

QaradawiBooks.com

لعلَّ «ماركس» كان معذورًا حين قال ما قال، لأنَّه لم يعرف الإسلام، ولم يعرف موقفه من الظلم والبغي والفساد، مع أنَّ المنهج العلمي كان يُلزمه ألَّا يصدر حكمه عامًّا شاملًا إلَّا بعد استقراء كامل، ودراسة تامَّة لكل الأديان ـ أو للأديان الكبرى على الأقلِّ ـ وأثرها في الأمم على مدار التاريخ، فإن لم يستطع كان عليه أن يحكم على الدين الَّذي عرفه لا على غيره. هذا هو مقتضى الأمانة العلميَّة، والمنهج العلمي.

قلتُ هذا عن «ماركس» منذ سنوات ونشرته مجلة «منار الإسلام» في دولة الإمارات العربيَّة المتحدة. ثمَّ أتيح لي أن أقرأ أخيرًا ما كتبه الأستاذ الدكتور «رشدي فكَّار» ـ المُتَخَصِّص في دراسة الماركسيَّة وفلسفتها وأصولها ومدارسها ـ عن رجوع «ماركس» في أخريات حياته إلى الاعتراف بالدين بعد الرفض له، وأنَّ رفضه في المراحل الأولى كان سياسيًّا ولم يكن فلسفيًّا، وأنَّ بعض مفكري الماركسيَّة الكبار من المعاصرين أمثال «روجيه جارودي»[1] أكَّدوا ذلك، واعتبروه «مرونة» من ماركس. واعتبره «فكَّار»: «ارتدادًا»، والأولى تسميته «رجوعًا».

ينقل الدكتور «فكَّار» عن «ماركس» قوله بصريح العبارة: «الإلحاد لا معنى له؛ لأنَّه إنكار للإله بلا مبِّررات، اللَّهم إلَّا إذا كان الهدف أن يحلَّ الإنسان محلَّ الإلٰه»!

ويكرِّر «ماركس» نصًّا: «الاشتراكيَّة ليست في حاجة إلى مثل هذه الشطحات التجريديَّة الجوفاء، والمضاربة على الإلٰه».

ومن الأدلَّة على تغيُّر موقف «ماركس»: الرسالة الَّتي وجهها إلى «البابا» يُهَنِّئه فيها على موقفه من «الحِلْفِ المقدَّس» ورفضه الدخول فيه،

(١) كُتب هذا الكلام قبل أنْ يهتدي (جارودي) إلى الإسلام.

QaradawiBooks.com

والانضواء تحت لوائه: حلف أولئك الَّذين شـوَّهوا جوهر الدِّين، حين اتَّخذوا منه «شُرطة روحيَّة» في خدمتهم، والدِّين منهم براء!

ومن ذلك مهاجمته للفيلسـوف الملحد المشـهور «فيورباخ» حيث وصفه «بأنَّه جعل من الوجدان والرُّوح الدينيَّة شيئًا راكدًا جامدًا، لا قدرة فيه، أو له على التغيير».

و«فيورباخ» هو صاحب الكلمة الجاحدة الجاهلة: «ليس صوابًا أنَّ الله خلق الإنسان، بل الصواب: أنَّ الإنسان هو الَّذي خلق الله». وكبرت كلمة خرجت من فِيه، ما قال إلَّا كذبًا.

وأكثر من ذلـك وأصرح وأوضـح: هذا النـص الَّذي يقـول فيـه «ماركـس» حرفيًّا، كما يقول الدكتور فـكَّار: «إنَّ الإلحاد قد عاش وقته، إنَّه تعبير سلبي، لا يعني شـيئًا بالنسبة للاشتراكيين الأصلاء، إنَّ المعنى لديهم ليس هو إنكار الإلٰه، وإنَّما هو تحرير الإنسان»[1].

ولكن مهما يكـن عذر «ماركس» فمـا عذر الَّذين نشـؤوا في ديار الإسـلام، ولم يكلِّفوا أنفسـهم أنْ يدرسـوه من مصادره، ومن كتابات المحققين من علمائه ودعاته؟

إنَّ الَّذي يقرأ الكتب الإسـلاميَّة يراها طافحة بإنـكار علماء الدين وأئمته على الظلـم والظلمة، والمناداة بإنصـاف المظلومين من طبقات الشعب الكادحة[2].

(١) انظر: تأملات إسـلامية في قضايا الإنسـان والمجتمع صـ ٥٥ ـ ٦٨، فصل: في الماركسية والدين، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٨٠م.

(٢) انظر: مواقف حاسمة للعلماء في الإسلام للأستاذين علي شحاتة وأحمد رجب صـ ٣٣ ـ ١٢٤، ففيه أمثلة عديدة على ذلك وخاصة فصل: حماة الشعب، نشر دار الفكر، بيروت.

QaradawiBooks.com

أثر الإسلام في حركات المقاومة والتحرُّر من الاستعمار:

إنَّ الَّذي يقرأ التاريخ الحديث يجد أنَّ التيَّار الإسلامي كان وراء كلِّ حركات المقاومة المستميتة للاستعمار في كل صِقع من ديار الإسلام.

يقول الأستاذ «برنارد لويس» في كتابه «الغرب والشرق الأوسط»: «ومنذ بدء التغلغل الغربي في العالَم الإسلامي، حتَّى يومنا هذا، كانت أهم الحركات الفِكْرِيَّة المتميزة المهمة الأصيلة الَّتي قامت في وجهه: حركات إسلاميَّة.

ولقد كان اهتمام هذه الحركات بمشاكل الإيمان والعقيدة، وبمشاكل الجماعة المسلمة الَّتي سيطر عليها غير المسلمين، أكثر من اهتمامها بأرض أو بلد احتله الأجانب.

وأقوى الحركات الثورية الَّتي قامت، والتي كسبت أقوى التأييد، وأثارت حماس أغلب الجماهير كانت دينيَّة شعبيَّة في أصولها، وفي شعاراتها، وفي الأسلوب الَّذي عبَّرت به عن غايتها وسبيلها.

ولقد مرَّ العالم الإسلامي في تاريخ مواجهته الطويلة للمدنية الغربيَّة بمراحل متعددة من اليقظة والمقاومة، من المسايرة والرفض، وحتَّى الأمس القريب كان للمشاكل الَّتي تظهر دراسة، وقياس، وحلول في إطار الإسلام.

ونستطيع القول في أيامنا هذه: إنَّ من التهور التأكيد على أنَّ «علمنة» المشاعر الإسلاميَّة بلغت حدًّا لا رجوع بعده»[1].

وفي موضع آخر يقول صاحب كتاب «الغرب والشرق الأوسط»: «وأهم حركات المقاومة للغربيِّين المنتصرين المحتلين، وأكثرها نجاحًا،

(١) الغرب والشرق الأوسط صـ ١٤٨، ١٤٩، ترجمة د. نبيل صبحي، لاجوس، ١٩٦٣م.

QaradawiBooks.com

كانت في الأناضول، حيث قام جمع من الثوار بقيادة مصطفى كمال، وتحدوا الحلفاء واليونان والحكومة العثمانيَّة الَّتي كانت قائمة في ظلِّهم.

ولقد حجبتْ عِلمانيَّةُ وقوميَّة الكماليين الَّتي أعلنوها أخيرًا، الطابعَ الإسلامي القوي لحركة المقاومة في أوَّل مراحلها، ولقد كان شعار الحركة: تحرير أرض الإسلام، وشعوب الإسلام، وتحرير الخليفة (السلطان) وطرد الغزاة المشركين.

ولقد كان الزعماء الدينيون من العلماء ومن حركة الإخوان الدراويش، أبرز المُؤَسِّسين، وأقوى المساندين لحركة المقاومة، الَّتي قادها بعد ذلك مصطفى كمال»[1].

أيْ: إنَّ حركة المقاومة كانت في أساسها إسلاميَّة، غذَّتها الروح الإسلاميَّة والمشاعر الإسلاميَّة، ثمَّ سرقها وقادها العلمانيون القوميون: مصطفى كمال وأشياعه، ونسبوا فخرها لأنفسهم، وقطفوا ثمارها لعِلمانيتهم.

والوجه الثاني في الردِّ على الماركسيِّين:

أنَّ الَّذي عابوه على الدين وقعوا هم فيه! عابوا على الدين ما فيه من غيبيَّات وتنبؤات مستقبلية مجهولة! ومذهبهم مليء بالحتميَّات والتنبؤات الَّتي يُكِنُّها صدر الغيب!

عابوا على الدين ما فيه من تعظيم للأنبياء والقدِّيسين، وما فيه من رسوم وشعائر تعبدية. ومع هذا نجدهم قد اتخذوا الأسلوب نفسه، فإنَّ الماركسيَّة ـ كما هو معلوم لدى دارسيها ونُقَّادها ـ ليست مجرد فلسفة باردة، إنَّها ديانة، لها عقائدها وإنجيلها ورسلها وقدِّيسوها وطقوسها

(١) الغرب والشرق الأوسط صـ ١٦٨.

QaradawiBooks.com

وشعائرها. «وإنَّ حشود المتعبِّدين يمرُّون يوميًّا في «موسكو» أمام جثمان «لينين» في لحده الرخامي الأسـود، وعلى وجوههم أمارات الخشـوع والإجلال، مرور المؤمنيـن من قبل أمام رفات الشـهداء»[1]. يعني: في المسيحيَّة، فالإسلام يعتبر هذه المظاهر من الشِرك والوثنية.

يقول الباحث الباكستاني الأسـتاذ ميرزا محمَّد حسين في كتابه عن «الإسلام وتوازن المجتمع»: «إنَّ البلشفيَّة (الشيوعيَّة) تستميت في عداء الدين، من أجل مظاهره الغامضة، وعُدَّته من الطقوس والشـعائر، ومع ذلك لم تحرز البلشفية تفوقها إلَّا بانتحال أساليب الدين ووسائله. ومن هنا تُدْعَى الآن «دينيًّا».

أما كُتُبها المقدسة فهي تعاليم «كارل ماركس» الَّتي يُنظر إليها بكل إجلال، باعتبارها كشفًا وإلهامًا، كما يُنظر إليها باعتبارها معصومة من أي خطأ!

وللشيوعيَّة شُرَّاحها، ومريدوها، ودعاتها، حتَّى شهداؤها!

ولها عقائدها وأصولها، وبدعها الزائفة المرفوضة!

وهي تأخذ في مطاردة الهراطقة، وفي تصفية الزنادقة، وفي إقامة محاكم التفتيش، وفي عمل المذابح ضدَّ المُتشكِّكين والمُنْكِرين والمرتدِّين!

ولها طرائقها في «الإلهام» و«الحرمان»!

(١) كرمنلو صـ ١٥٣ وما بعدها. نقلًا عن: المذاهب الأخلاقية للدكتور عادل العوا (٢٠٣/٢). ومن قريب رأينا الجماهير الغفيرة بالملايين في الصين الشيوعية تقف وقفة التقديس والخشوع نفسـها أمام جثمان الزعيم الصيني (ماو)، فكيف يفسِّـرون هذا الموقف تفسيرًا ماديًّا وفقًا لفلسفتهم التقليدية؟!

QaradawiBooks.com

ولها معبد أوثانهـا، وأيقوناتهـا. الفاتيكان لديها هـو «الكرملين»، والوثائق البابوية هي كتابات «ستالين»!

ولها طقوسها ورموزها المعقدة مثل أي دين[١]!

وإنَّها لتشـغل قلوبَ أتباعها بوعـود الخلاص، وآمال المسـتقبل، والجزاء المنتظر في نعيم الدنيا!

وهي تتظاهر بأنَّها لا تعرض للدين في معانيه الموروثة الَّتي تلقى احترام الناس، كمـا أنَّها لا تحاول إصلاح مفاهيمه إصلاحًا سـليمًا يعتد به.

ولكنَّها تعمل على أنْ تطـوي الدين تمامًا، وتحلَّ محلَّه شـعارات معادية للألوهيَّة، ولكنَّها «دين» من طراز غريب!»[٢] اهـ.

والواقع أنَّ الَّذي ينبغـي أنْ يُطلق عليه بحقٍّ أنَّه أفيون الشـعب هو: الإيمان بالشيوعيَّة؛ فهي الَّتي تُمنِّي الناس بجَنَّة موهومة على الأرض، جنة تختفي فيها الفوارق، وينعم الناس بالرخاء والأمن والمساواة والحرية.

---

(١) الخطيئة في نظـر هذه الديانة هي الرأسـمالية، وإبليـس وجنوده هو: القُـوَى البرجوازية والرجعية، والمُخلِّص هو الحزب، ومملكة السـماء هي الشيوعية، والكهنة هم المحترفون الثوريون، الذين يستشفُّون أعمق أعماق الطبقة الكادحة، ويتلقَّون الأسرار الحقيقية من خلال رؤاهم، ويذيعونها على المؤمنين. وأخرويات هذه العقيدة الجديدة ليسـت ميتافيزيقية، بل هي أخرويات علمية، فهي اشـتراكية علمية. أما الطقوس والابتهالات، فيلتمسها هؤلاء في نظرية وتكتيـك الحزب عند لينين، إلخ. انظـر: حلقة البحث الإسـلامية ما بعد النكبتين صـ ٢٢، ٢٣. يصدرها اتحاد الطلبة المسلمين بأوربا، الطبعة العربية، ١٩٦٨م.

(٢) انظر: الإسـلام وتوازن المجتمع صـ ٧٨، ترجمة فتحي عثمان، نُشـر ضمن سلسلة الثقافة الإسلامية، المجموعة الرابعة، العدد (٣٥)، ١٩٦٢م.

QaradawiBooks.com

وقد مضى على قيام أوَّل دولة ماركسيَّة نحو ستِّين سنة، وهم في ظلِّ ديكتاتوريَّة متسلِّطة مُستبدَّة، لم يرَ التاريخ أشدَّ منها ظلمًا وطغيانًا وتجبُّرًا. وأصدق شاهد على ذلك حملات التطهير وحمَامات الدم، الَّتي تُقام بين حين وآخر.

ومن الغريب أنْ تجد في أبناء المسلمين مَن ينادي بإبعاد دينهم عن قيادة المجتمع، وتوجيه الحياة فيه، على حين نجد من مفكري الغرب مَن يترقَّب أو يتمنَّى أنْ يكون للإسلام دور في هداية المجتمع العالَمي، والأخذ بيديه إلى الصراط المستقيم، أو المنهج المتوازن الَّذي هو طابع هذا الدين.

يقول الدكتور «جرمانوس»: «إنَّ مستقبل العالَم وخلاصه من خطر الاصطدام الاجتماعي الَّذي يُهدِّده، لن يكون إلَّا في المزاوجة بين الحضارة الأوربيَّة بدرسها وعلمها، وبين الرُّوح العالية الَّتي تنطوي عليها عقائد الدين الإسلامي. وإنِّي أؤمِّل أنْ يكون الإسلام قادرًا مرَّة أخرى على تحقيق هذه المعجزة في سبيل وحدة الجماعة الإنسانيَّة».

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

إسلامٌ متطوِّر.. أم تطوُّرٌ مُسْلِم؟!

كلَّما نادى دعاة «الحلِّ الإسلامي» أُمَّتهم المسلمة، بوجوب تطبيق شريعة ربها، وأحكام دينها، والعودة إلى الإسلام ـ عقيدة وعبادة ومنهاج حياة ـ ارتفعت في وجوههم أصوات العِلمانيين، تخوِّف من هذه العودة الواجبة، وذلك التطبيق المفروض في مجتمع يدين بالإسلام.

ولهؤلاء المخوِّفين والمثبِّطين شبهات يسردونها، كأنَّها حُجَج لا تُدحض، أو بيِّنات لا تُنقض، وهي في حقيقة الأمر أوْهى من بيت العنكبوت: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

وفي مقدِّمة هذه الشبهات: ما يُصَوَّر لهم ـ أو ما يتصوَّرونه هم إنْ أحسنَّا الظنَّ بهم، وأنَّهم يفكرون بأنفسهم لأنفسهم ـ أنَّ الشريعة الإسلاميَّة شريعة جامدة لا تقبل التطوُّر، وأنَّ أحكامها لا تلين لتغيُّر الزمان، وتبدُّل المكان وتقلُّب الإنسان. وأنَّ الحياة الَّتي تُبنَى عليها، محكوم عليها بالتوقف والجمود، والسير في موضعها، وهذا معناه التخلف والركود والوقوف في وجه كل تطور. وهذا نتيجة طبيعيَّة ومنطقية ـ في نظرهم ـ ما دام الدين من شأنه الثبات والجمود، والحياة من شأنها التغيُّر والتطوُّر.

QaradawiBooks.com

فالواجب عند هؤلاء أنْ يُحصر الدِّين في أقفاص الصدور، فلا يتجاوز أن يكون علاقة خاصَّة بين المرء وربِّه، وإذا خرج من هذا القفص ـ تجوُّزًا ـ لم يجز له بحال أنْ يتعدَّى دائرة المسجد، الَّذي تُوجِّهه الدولة ولا يوجِّهها! وذلك للحفاظ على الحياة المتحركة المتغيرة، أنْ يقتلها «الجمود» الَّذي هو من طبيعة الدين. وبهذا يبرِّرون التشريعات الوضعيَّة، والتوجهات اللادينيَّة في الاجتماع والسياسة والاقتصاد والثقافة والإعلام والتعليم، وشؤون الحياة العامَّة جمعاء.

وهنا تحتدم المعركة بين دعاة «الحل الإسلامي» الَّذين يُتهمون بالمحافظة أو «الجمود»، وبين دعاة «العِلمانيَّة» الَّذين يزهون بدعوى مسايرة «التطوُّر».

ويحسن بي أنْ أذكر نموذجًا واضحًا لدعاوي هؤلاء الَّذين يبرِّرون الاتجاه إلى العِلمانيَّة، والتبعية العمياء للحياة الغربيَّة، والقِيَم الغربيَّة، والقوانين الغربيَّة، والتقاليد الغربيَّة. فبالمثال يتضح المقال.

نموذج لتبرير العِلمانيَّة بتهمة جمود الشريعة:

«في سنة ١٩٢٥م كان جوُّ الإرهاب والتنكيل خانقًا في تركيا، عندما أصدر مصطفى كمال «القانون المدني» الَّذي حلَّ محلَّ القوانين الإسلاميَّة الَّتي كانت تصوِّرها «مجلة الأحكام العدلية»، ويُعتبر هذا القانون من أخطر القوانين اللادينيَّة الَّتي مسَّت المجتمع التركي في الصميم، وغيَّرت الأسس الَّتي كانت تقوم عليها حياته، وصدر مع القانون تقرير يشرح الأسباب الموجبة له.

وكان من بين هذه الأسباب ما يلي: إنَّ أساس «مجلة الأحكام» وخطوطها الرئيسية هو الدين، في حين أنَّ الأديان تحتوي أحكامًا لا تتغيَّر،

QaradawiBooks.com

والحياة معرَّضة لتحوُّلات مستمرة، وإذا كان عدم تغيير الدين ضرورة من ضروراته، فليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الحياة، وهذا ما يوجب أنْ يبقى الدين وجدانيًّا، وأن تكون نُظُم الحياة مستلهَمة من مقتضياتها في التحول والتطوُّر، وما يقوم على الأُسُس الدينيَّة منها من شأنه أنْ يحول دون ترقِّي الأمة الَّتي يُطبَّق عليها؛ لأنَّه يربطها بروابط بدائية من وجهة نُظُم الحياة.

وليس من شكٍّ في أنَّ وقوف الأمة التركية في مستوى دون مستوى غيرها، وحياتها حياة القرون الوسطى في العصر الحاضر، يرجع إلى كونها تعيش تحت تأثير قواعد مستمدَّة من أحكام دينيَّة ومقدَّسة لا تتغيَّر، ولا يجوز أنْ يظل الأمر كذلك في حال، وأنْ تبقى الجمهورية التركية محرومة من قانون مدني مستلهَم من مقتضيات الحياة والعصر الحديث، كما أنَّ هذا غير متَّسق مع الثورة الاجتماعيَّة التركية أيضًا.

وهذا عدا ما يقع فيه الحكَّام (القضاة) من مشاكل وتناقض وبلبلة، سواء في استنباط الأحكام من كتب فقهيَّة متنوعة، أم في كونهم غير مقيَّدين بمواد ثابتة معيَّنة، بحيث كثيرًا ما يصدر حكمان مختلفان في بلدين مختلفين مع وحدة الحادث، وهكذا تكون مصاير الناس وأمورهم غير قائمة على أسس عدل معيَّنة ومستقرة، بل على الصدفة والطالع، ومنوطة بقواعد فقهيَّة متناقضة تمتُّ إلى القرون الوسطى.

وهذا ما أوجب على الحكومة الجمهورية أنْ تُخلِّص الأمة من موقف بدائي بائس، وأنْ تضع قانونًا مدنيًّا متسقًا مع الثورة التركية، ومع مقتضيات المدنيَّة الحاضرة بكل سرعة ممكنة»[1].

(١) المغرب المسلم ضد اللادينية للأستاذ إدريس الكتاني صـ ٨٢ ـ ٨٣، نشر مطبعة الجامعة، الدار البيضاء، ١٩٥٨م.

QaradawiBooks.com

هذه الفقرات من التقرير الرسمي الَّذي أعدَّته حكومة أتاتورك، تبريرًا لإلغاء الشريعة الإسلاميَّة، وطردها من حياة المجتمع التركي ـ الَّذي ظل يُحكم بها، ويحتكم إليها عدة قرون، أي: منذ دخل في دين الإسلام ـ واستيرادِ قوانين جديدة من أوربا، يُقهر على التحاكم إليها قهرًا، بدعوى أنَّها تتسق مع مقتضيات المدنيَّة الحاضرة، وإنْ خالفت عقيدة الأمة وتقاليدها، وأفكارها، ومشاعرها، ومواريثها الثقافية والنفسيَّة والاجتماعيَّة.

ادِّعاء مردود:

وما الحُجَّة الَّتي برَّر بها أتاتورك وحكومته إلغاء الأحكام الشرعية حتَّى في الزواج والطلاق والميراث؟

إنَّها تركِّز حول محور أساسي هو أنَّ القوانين الشرعية أساسها الدين، والدين ثابت لا يتغيَّر، وعدم التغيير فيه ضرورة من ضروراته. وليس الأمر كذلك بالنسبة للحياة، فهي معرَّضة لتحوُّلات مستمرة، ولهذا يجب أن يبقى الدين «وجدانيًّا» أي علاقة بين ضمير الإنسان وربِّه، ولا صلة له بالحياة والمجتمع والدولة، وأنْ تكون نُظُم الحياة مستلهَمة من مقتضياتها في التحوُّل والتطوُّر، وليست قائمة على أسس دينيَّة جامدة تحول دون ترقِّي الأُمة وتطورها، وتمشِّيها مع مقتضيات المدنيَّة الحاضرة.

فهل هذا التعليل أو التبرير أو التفسير صحيح من وجهة نظر العقل والعلم المحض؟

نستطيع أن نقول: لا، بملء أفواهنا، ومنطقُ العقل والعلم والتاريخ والواقع يُؤيِّدنا.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لقد افترض التقرير أنَّ أحكام الدين كلَّها ثابتة، لا مجال فيها لتغيُّر أو تطوُّر بحال من الأحوال.

كما افترض أنَّ الحيـــاة كلَّها متغيِّرة متحوِّلة، لا مجـــال فيها للثبات بوجهٍ من الوجوه.

والحقُّ أنَّ كِلا الافتراضين مردود.

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الثابت والمتغير من أحكام الدين

أما الأول: فليس صحيحًا أنَّ كلَّ أحكام الدين ثابتة دائمة وغير قابلة لدخول الاجتهاد فيها، وطروء التغيُّر عليها.

فمن أحكام الدين ما يتعلق بالعقائد، الَّتي تُحدِّد نظرة الدين إلى المبدأ والمصير إلى الله، والكون والحياة والإنسان، أو ما يُسمِّيه علماء العقائد عندنا: الإلٰهيَّات والنبوَّات والسمعيَّات. وهذه حقائق ثابتة لا تتغيَّر.

ومنها: ما يتعلق بشعائر العبادات الرئيسية الَّتي تُحدِّد صلة الإنسان العمليَّة بربِّه، وهي الَّتي تعتبر أركان الإسلام، ومبانيه العظام، وهذه في أسسها العامَّة ثابتة، وإنْ كان الاجتهاد يدخل عليها في كثير من التفاصيل.

ومنها: ما يتعلق بالقِيَم الخُلُقية، ترغيبًا في الفضائل، وترهيبًا من الرذائل، وهذه تتميَّز بالثبات أيضًا في مجموعها.

وهذه الثلاثة لا يحتاج الناس إلى تغيُّرها، بل إلى ثباتها واستقرارها، لتستقرَّ معها الحياة، وتطمئن العقول والقلوب.

بقي أمر نُظُم الحياة المختلفة، مثل نظام الأسرة والمواريث ونحوها، ونظام المعاملات والمبادلات المالية، ونظام الجرائم، والعقوبات،

QaradawiBooks.com

والأنظمة الدستورية والإدارية والدولية، ونحوها، وهي الَّتي يُفصِّل أحكامها الفقه الإسلامي بمختلف مدارسه ومذاهبه.

وهذه ذات مستويين:

ـ **مستوى يُمثِّل الثبات والدوام**، وهو ما يتعلَّق بالأسس والمبادئ والأحكام الَّتي لها صفة العموم، وهو ما جاءت به النصوص القطعيَّة الثبوت، القطعيَّة الدلالة، الَّتي لا تختلف فيها الأفهام، ولا تتعدَّد الاجتهادات، ولا يُؤثِّر فيها تغيُّر الزمان والمكان والحال.

ـ **ومستوى يمثل المرونة والتغيُّر**، وهو ما يتعلق بتفصيل الأحكام في شؤون الحياة المختلفة، وخصوصًا ما يتصل بالكيفيات والإجراءات ونحوها، وهذه قلَّما تأتي فيها نصوص قطعيَّة، بل إما أنْ يكون فيها نصوص محتملة، أو تكون متروكة للاجتهاد، رحمةً من الله تعالى، غيرَ نسيان، وقد عرضتُ لهذه القضيَّة في بحث لي عن «الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد»[1]، يحسن بي أنْ أنقل منه هذه الفقرات: «مِن الناس مَن يرتاب أو يتوجَّس خِيفةً من المناداة بالرجوع إلى الفقه الإسلامي واتِّخاذه أساسًا تشريعيًّا وقضائيًّا.

ومصدر هذا الارتياب والتوجُّس هو: الأساس الربَّاني والصفة الدينيَّة للفقه الإسلامي، فمن المتَّفَق عليه أنَّ المصدرين الأساسيين لهذا الفقه هما: كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ.

وهذا يقتضي في نظرهم أنْ يَتَّسم هذا الفقه بالثبات أو الجمود، وأن تقف العقول البَشريَّة أمامه وقفة التسليم والاتباع، لا وقفة الابتكار

(١) ألقي في المؤتمر التاريخي عن الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد، الذي أقيم في بيروت سنة ١٩٧٤م.

QaradawiBooks.com

والإبداع؛ إذ لا مكان للعقل أمـــام الوحي، ولا مجال للاجتهاد في مورد النص، وهذا ما يجعل أسباب المرونة وقابلية التطور معدومة أو ضعيفة داخل هذا الفقه.

غير مرخصة للطباعة

مجال الثبات والتطوُّر في الفقه:

والعارفون يعلمون تمـــام العلم أنَّ مَن يقول هـــذا الكلام لا علم له بالفقه الإسلامي وخصائصه ومميزاته، الَّتي هي ثمرة لخصائص الإسلام نفسه، فإنَّ من أبرز هذه الخصائص: أنَّه يجمع بين الثبات والمرونة معًا في تناســـق محكم، وتوازن فريد. فلم يمِلْ مع القائلين بالثبات المطلق، الَّذين جمَّدوا الحياة والإنســـان. ولم يجنح إلى القائلين بالتغيُّر المطلق كذلك، الَّذين لم يجعلوا لقيمةٍ ولا لمبدأٍ ولا شيءٍ ما ثباتًا أو خلودًا، بل كان وسطًا عدلًا بين هؤلاء وهؤلاء[1].

فالأصول الكُلِّيَّة ثابتة خالدة، شـــأنها شأن القوانين الكونيَّة، الَّتي تمســـك الســـماوات والأرض أنْ تـــزولا، أو تضطربـــا، أو تصطدم أجرامها.

والفروع الجزئيَّة مرنة مُتَغَيِّرة، فيها قابليَّة التطوُّر، شأن ما في الكون والحياة من متغيرات جزئيَّة، لازمة لحركة الإنسان وحركة الحياة.

وهكذا كان في الفقه الإســـلامي منطقة مغلقـــة لا يدخلها التغيير أو التطوير، وهي منطقة «الأحكام القطعيَّة» وهذه هي الَّتي تحفظ على الأُمَّة وحدتها الفِكْرِيَّة والسلوكيَّة.

(١) انظر كتابنا: الخصائص العامة للإسلام صـ ٢١٤ وما بعدها، فصل: الثبات والتطور في الحياة والكون، نشر مكتبة وهبة، ط ٧، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

QaradawiBooks.com

ومنطقة مفتوحة هي منطقة «الأحكام الظَّنِّيَّة» ثبوتًا أو دلالة، وهي معظم أحكام الفقه، وهي مجال الاجتهاد، ومعترك الأفهام، ومنها ينطلق الفقه إلى الحركة والتطوُّر والتجديد.

أسباب المرونة في الشريعة الإسلاميَّة:

وقد كتبتُ بحثًا مستقلًّا عن خصيصة المرونة أو قابلية التطور في الشريعة الإسلاميَّة[١]، وحسبي هنا أنْ أشير إلى عناوينه، أو خطوطه البارزة.

أولًا: أنَّ الشارع الحكيم لم ينصَّ على كل شيء، بل ترك منطقة واسعة خالية من أيِّ نصٍّ ملزم، وقد تركها قصدًا للتوسعة والتيسير والرحمة بالخلق، وهي الَّتي سمَّيناها «منطقة العفو»، وفيها جاء الحديث: «**ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلالٌ، وما حرَّم فهو حرامٌ، وما سكت عنه فهو عفوٌ، فاقبلوا من الله عافيته، فإنَّ الله لم يكن ليَنْسى شيئًا**»، ثمَّ تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤][٢].

وأشار إليها الحديث الآخر: «**وترك أشياءَ رحمةً بكم غيرَ نسيان، فلا تبحثوا عنها**»[٣].

---

(١) نشر في العدد الثاني من حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر تحت عنوان: عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية، فليُرجع إليه.

(٢) رواه البزار (٤٠٨٧)، وقال: إسناده صالح. والحاكم في التفسير (٣٧٥/٢)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الضحايا (١٢/١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٩٤): رواه البزار والطبراني في الكبير وإسناده حسن ورجاله موثقون. عن أبي الدرداء.

(٣) رواه الدارقطني في الرضاع (٤٣٩٦)، والطبراني (٢٢١/٢٢)، والبيهقي في الضحايا (١٢/١٠)، وحسَّنه النووي في الأربعين النووية، الحديث الثلاثون، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١٥٠/٢): حسَّنه أبو بكر السمعاني في أماليه. عن أبي ثعلبة الخشني.

QaradawiBooks.com

ثانيًا: أنَّ معظم النصوص جاءت بمبادئ عامَّــة، وأحكام كلية، ولم تتعرَّض للتفصيــلات والجزئيَّات، إلَّا فيما لا يتغيَّر كثيــرًا بتغيُّر المكان والزمان مثل شؤون العبادات وشؤون الزواج والطلاق والميراث ونحوها. وفيما عداها اكتفت الشريعة بالتعميم والإجمال، مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى: ٣٨]، «**لا ضَرَرَ ولا ضِرَار**»[(١)].

ثالثًا: أنَّ النصوص الَّتي جاءت فــي أحكام جزئيَّة قد صيغت صياغة معجــزة. بحيث تتســع لتعدُّد الأفهــام والتفســيرات، ما بين متشــدِّد ومترخِّص، وما بيــن آخذ بحرفية النص، وآخذ بروحــه وفحواه، وقلَّما يوجد نصٌّ لم يختلف أهل العلم في تحديد دلالته وما يُستنبط منه، وهذا راجع إلى طبيعة اللغة، وطبيعة البشر، وطبيعة التكليف.

رابعًا: أنَّ مَلْء منطقة الفراغ التشريعي ـ أو العَفْو ـ يمكن أنْ يتمَّ بوسائل متعددة يختلف المجتهدون فــي اعتمادها، وتقدير مدى الأخذ بها، ما بين

(١) رواه أحمد (٢٨٦٥)، وقال مخرِّجوه: حسن. وابن ماجه في الأحكام (٢٣٨١)، عن ابن عباس. ورواه الدارقطني في البيوع (٧٧/٣)، عن أبي ســعيد الخدري، وقال النووي في الأربعين (الحديث الثاني والثلاثون): حديث حســن، رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مســندًا، ورواه مالك في الموطأ مرســلًا، عن عمرو بــن يحيى، عن أبيه، عن النبي ﷺ، فأســقط أبا سعيد. وله طرق يقوي بعضها بعضًا. وقال ابن الملقِّن: وصحَّحه إمامنا ـ أي الشافعي ـ في حرملة. خلاصة البدر المنير (٤٣٨/٢)، نشر مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م. وقال ابن رجب: وقد اســتدل الإمام أحمد بهذا الحديث. وقال أبو عمرو بن الصلاح: هذا الحديث أسنده الدارقطني من وجوه، ومجموعها يقوِّي الحديث ويُحسِّــنه، وقد تقبَّله جماهير أهل العلم، واحتجوا به، وقول أبي داود: إنَّه من الأحاديث التي يدور الفقه عليها يشعر بكونه غير ضعيف، والله أعلم. جامع العلوم والحكم (٢١٠/٢، ٢١١). وهو صحيح بمجموع طرقه. ومعناه مقطوع به من استقراء أحكام الشريعة النافية للضرر والضرار، الثابتة بالقرآن والسُّنَّة. ولهذا عُدَّ من القواعد الشرعية المسلَّمة عند الجميع.

QaradawiBooks.com

مضيِّق وموسِّع، فهنا يأتي دور القياس، أو الاستحسان، أو الاستصلاح، ومراعاة العُرف، أو الاستصحاب، أو غيرها، من أدلَّة ما لا نصَّ فيه[١].

خامسًا: تقرير مبدأ تغيُّر الفتوى بتغيُّر الزمان والمكان والحال والعُرف، وهو مبدأ تقرَّر منذ عهد الصحابة، الَّذين كانوا أكثر الناس رعاية له، وبخاصَّة عمر، كما في موقفه من المؤلَّفة قلوبهم، ومن قسمة الأرض المفتوحة، ومن طلاق الثلاث وغيرها.

بل بدأ تقرير هذا المبدأ حقيقة منذ عهد النبيِّ ﷺ كما في منْع ادِّخار لحوم الأضاحي بعد ثلاث، لطروء بعض الوافدين على المدينة في أحد الأعياد، وإباحته بعد ذلك في الظروف العادية[٢]، وما روى من ترخيصه لرجل في القُبْلة وهو صائم، ومنعه آخر منها، حيث كان الأوَّل شيخًا، والثاني شابًّا[٣].

سادسًا: تقرير مبدأ رعاية الضرورات والأعذار، والظروف الاستثنائية، بإسقاط الحكم أو تخفيفه، تسهيلًا على البَشر، ومراعاةً لضعفهم، أمام الضرورات القاهرة، والظروف الضاغطة، ولهذا قرَّر الفقهاء أنَّ الضرورات تبيح المحظورات، وأنَّ الحاجة تنزل منزلة الضرورة مع قيد أنَّ «ما أبيح للضرورة يُقدَّر بقدرها»[٤].

---

(١) راجع: مصادر التشريع فيما لا نص فيه للمرحوم عبد الوهاب خلاف صـ ١٥٥ ـ ١٧٦، فصل: مصادر التشريع الإسلامي مرنة، نشر دار القلم، الكويت، ط ٥، ١٩٨٢م.

(٢) إشارة إلى الحديث: «... ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فأمسكوا ما بدا لكم». رواه مسلم في الجنائز (٩٧٧)، عن بريدة بن الحصيب.

(٣) رواه البيهقي في الصوم (٢٣٢/٤)، عن عائشة: أنَّ النبي ﷺ رخَّص في القُبلة للشيخ وهو صائم، ونهى عنها الشاب، وقال: «الشيخ يملك إربه، والشابُّ يفسد صومه». وقال ابن الملقِّن في تحفة المحتاج (٩٦٩): إسناد رجاله ثقات.

(٤) انظر كتابنا: الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد صـ ٨٣ ـ ٨٦، عنوان: رد شبهات حول الفقه الإسلامي، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٣، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

QaradawiBooks.com

تُهمة «الجمود» ومعارضة «التطور»:

ونعود هنا لنناقش تهمة «الجمـود» الَّتي يُرمَى بها الدعاة إلى الحلِّ الإسـلامـي أو إلى تطبيق الشريعة الإسلاميَّة.

كما لا بدَّ لنا أنْ نناقش فكرة «التطوُّر» الَّتي يفاخر بها دعاة العِلمانيَّة والتبعية الغربيَّة.

تحديد المفاهيم أوَّلًا:

ونقول في مناقشـة هؤلاء: إنَّنا نطالبكم بتحديد مفاهيم هذه الألفاظ الهلاميـة المطَّاطة «الجمـود» و«التطوُّر»: ماذا تريدون بهـا؟ حتَّى نبيِّن بجلاءٍ موقفنا منها.

الجمود الَّذي نرفضه:

فإن كنتـم تريـدون بالجمـود: الوقوف في وجـه التطـوُّر العلمي والصناعي، والرُّقِي المادي، وإغلاق بـاب الاجتهاد في الفقه، والجمود على أقوال المتأخريـن من الفقهاء ممَّن لم يدركـوا ما أدركنا، ولم يروا ما رأينا، فدعاة الحلِّ الإسلامي بريئون من هذا الجمود، وهم أوَّل الداعين إلى اسـتخدام العلم بكل أسـاليبه وإمكاناته في تيسير وسـائل الحياة، وتنمية الإنتاج، وترقية العمران، وإعداد القوَّة العسـكريَّة، وغير ذلك من كل ما تحتاج إليه الأُمَّة وما يرفع شأنها، بل يوجبون على الأُمَّـة شرعًا أنْ تكتفي اكتفاءً ذاتيًّا في كل مجال من مجالات الحياة يحتاج إلى العلم، والتفوُّق فيه. وهذا ما يُطلق عليه في الفقه الإسلامي اسم «فرض الكفاية».

صحيح أنَّ بعض مشـايخ العلم والدين في العصر الأخير، قد وقفوا يومًا ما في وجه العلوم الكونيَّة والطبيعيَّة، كما شـاع في بعض العصور

QaradawiBooks.com

القول بإغلاق باب الاجتهاد، ولكن هؤلاء العلماء ربَّما كان لهم عذرهم، وربَّما كانت لمواقفهم أسبابها ومسوغاتها في وقتها، وقد انتهت هذه الأسباب، وزالت هذه الملابسات والمبرِّرات.

لقد جاءت العلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة ونحوها في «زِيٍّ أوربي» ولهذا سمَّوها «العلوم الحديثة» مع أنَّ أصولها مأخوذة عن المسلمين في الأندلس وفي صقلية وفي غيرها، وظنَّ بعض الشيوخ أنَّ هذه العلوم تحمل في ثناياها عقائد أصحابها وفلسفتهم ونظرتهم إلى الحياة، والوجود، وربِّ الوجود، فلا بدَّ من رفْضها؛ لأنَّها محشوَّة بالكفريَّات في نظرهم، أو على الأقلِّ بأفكار تخالف وجهة الإسلام، وهذا صحيح بالنظر إلى العلوم الاجتماعيَّة والآداب والفنون، وليس صحيحًا على إطلاقه بالنظر إلى العلوم المحضة أو العلوم التطبيقية، الَّتي ينتفع بآثارها المؤمن والكافر، والبَرُّ والفاجر، فعلوم الطبِّ والكيمياء والأحياء والرياضيَّات ونحوها علوم عالَميَّة لا دِين لها ولا جنسيَّة[1].

الدعوة إلى العلم:

إنَّ دعاة الحل الإسلامي يريدون العودة بالمسلمين إلى أيام حضارتهم الزاهرة، حيث جمع أسلافهم بين العلم والإيمان، ومزجوا بين الروح والمادَّة، ووفَّقوا بين عمل الدنيا وعمل الآخرة، وأقاموا حضارة

(١) وإن لم تخل من رشحات المادية الجاحدة، التي سادت أوربا إلى حدٍّ كبير في عصر النهضة، وهكذا توضع «الطبيعة» في العلوم موضع «الله» وتتحدَّث عن الكون وظواهره بمعزل عن الإيمان بالله؛ فلا شكَّ أنَّ لها إيحاءات خطرة، يجب على مَن ألَّف فيها من علماء المسلمين تنقيتها منها، وإعطاء مرشحات إيمانية بدلها.
راجع: بحث ضرورة إعادة كتابة العلوم من وجهة النظر الإسلامية للأستاذ الدكتور زغلول النجار صـ ١٥ وما بعدها، مجلة المسلم المعاصر، العدد (٦)، ١٩٧٦م.

QaradawiBooks.com

دينيَّة دنيويَّة، ربَّانيَّة إنسانيَّة، علميَّة أخلاقيَّة، أُسِّسَ بنيانها من أوَّل يوم على تقوى من الله ورضوان.

كان للعلم في هذه الحضارة الربَّانيَّة مكانٌ مرموق، ومجالٌ رحيب، كما اعترف بذلك الكتَّاب الغربيُّون أنفسهم.

قال «بريفولت» في كتابه «بناة الإنسانيَّة»: «لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربيَّة على العالَم الحديث... وإنَّ ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدَّموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريَّات مبتكرة، بل يدين هذا العلم للثقافة العربيَّة (يعني الإسلاميَّة) بأكثر من هذا؛ إذ يدين لها بوجوده نفسه».

إلى أن يقول: «ليس لـ «روجر بيكون» ولا لتلميذه «فرنسيس بيكون» الحقُّ في أن يُنسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن «روجر بيكون» إلَّا رسولًا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحيَّة»[(١)].

وقول «درَيْبر» الأستاذ بجامعة نيويورك في كتابه «المنازعة بين العلم والدين»: «تحقَّق علماء المسلمين من أنَّ الأسلوب العقلي لا يؤدي إلى التقدم، وأنَّ الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودًا بمشاهدة الحوادث ذاتها، ومن هنا كان شعارهم في بحوثهم: الأسلوبَ التجريبيَّ، والدستور العملي الحِسِّي[(٢)].

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام للدكتور محمد إقبال صـ ١٥٤ ـ ١٥٦، ترجمة عباس محمود، نشر دار الهداية للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠م.

(٢) انظر: الإسلام دين عام خالد للأستاذ محمد فريد وجدي صـ ٥٧.

QaradawiBooks.com

الدعوة إلى الاجتهاد:

ودعاة الحل الإسلامي ينادون بوجوب الاجتهاد في الفقه، وضرورة فتح بابه في هذا العصر للقادرين عليه من أهل العلم والورع، الَّذين يُخضعون الحوادث والمشكلات المعاصرة لمقتضيات الإسلام، ولا يُخضعون الإسلام ونصوصه وقواعده لمقتضيات العصر، أو على الصحيح لانحرافات العصر وتطرُّفاته.

وإن كان الواجب أنْ يكون هذا الاجتهاد جَماعيًّا في صورة مجمع علميٍّ حيٍّ، لا يخضع لسيطرة الحكومات، وأهواء الحاكمين. يجتمع فيه أفذاذ العلماء من كل بلد، فإذا اجتمعوا على رأي واحد، كان أشبه شيء بالإجماع الَّذي احتجَّ به جمهور العلماء، بل جعلوه حُجَّة قطعيَّة، وإذا اختلفوا أمكن ترجيح ما تذهب إليه الأكثريَّة.

إنَّ باب الاجتهاد في الإسلام مفتوح لكلِّ مَن هو أهل له، ولا يملك أحد إغلاقه؛ لأنَّ الَّذي فتحه هو رسول الله ﷺ بقوله وفعله وإقراره، ومَن ذا الَّذي يرفض ما شرعه، أو يغلق ما فتحه؟!

ولكن الخطر هو فتح هذا الباب للأدعياء الَّذين يُفرِّخُون «فتاوى» لكلِّ ما يشتهيه الحكَّام، أو للدخلاء الَّذين لم يملكوا مؤهلات الاجتهاد وشروطه، ولكنَّهم يُقحمون أنفسهم فيما لا يُحسنون، فيحلُّون ما حرَّم الله، أو يحرِّمون ما أحلَّ الله، أو يُسقطون ما فرض الله، أو يوجبون على الناس ما لم يفرضه الله، أو يَشرعون ما لم يأذن به الله، وبذلك يَضلُّون ويُضلُّون.

ووجود هؤلاء المدَّعين هو الَّذي دعا بعض العلماء في بعض العصور إلى القول بسدِّ باب الاجتهاد، حتَّى لا يدخل منه المتطفِّلون الجاهلون، أو الأدعياء الدجَّالون.

QaradawiBooks.com

وإنَّ في تشـريع الإسـلام من السـعة والمرونة والغنـى بالقواعد والمبادئ ما يستطيع به أنْ يواجه تطورات الحياة وتقلُّبات الأزمان، مـن غـيـر حـيـف على أصولـه، أو انتقاص من قِيمَه الخالدة.

ولقد واجه الإسلامُ في فجره، وفي عصر فتوحاته الأولى حضارتين كبيرتين، لم يكن للعرب بهما عهد مـن قبل، وهـما حـضارة الفُرس في العـراق وخُراسـان وما حولهمـا، وحضارة الـروم في الشـام ومصر وما جاورهما، فلم يقف مغلول الفكر ولا اليد أمام المشكلات الجديدة في الحياة الجديدة، بل وجد لكلِّ مشـكلةٍ حلًّا، ولكلِّ داءٍ دواءً، ولكلِّ ضائقةٍ مخرجًا، وذلك بفضل فقه الصحابة العميق للإسلام، وشجاعتهم في مواجهة الأحداث بما يعرفون من نصٍّ، أو ما يهتدون إليه من رأي.

ورأينا من الفقهاء الكبار، مثل عمر وعليٍّ وابن مسـعود ومـعاذ وزيـد وأبَيٍّ وابن عبَّاس وابن عمر وعائشة وغيرهم من فقهاء الصحابة ﷺ ومَن تبعهم بإحسـان مثل: عمر بـن عبد العزيز، وابن المسـيِّب، والزُّهري، والحسن، وإبراهيم، وغيرهم من التابعين.

وهؤلاء الأعلام قد خلَّفوا لنا سوابق تشـريعيَّة تُعَدُّ مفخرةً في تاريخ الاجتهاد والتشـريع. لقد رأينا فقيهًا كعمر بن الخطاب يؤخِّر الزكاة في عام الجدب إلى العام الَّذي بعده، تخفيفًا على الممولين، وتوسعةً على مَن حولهم. ورأيناه كذلك في المجاعة يوقف حدَّ السرقة لوجود الشُّبهة بوجود المجاعة، وقد أُمِرَ المسلمون أن يَدرؤوا الحدود بالشبهات.

كما رأينـاه يتوقف في توزيـع الأرض المفتوحـة علـى الفاتحـين، معتقدًا أنَّـه لا يشملها ظاهر العموم في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

QaradawiBooks.com

ويستشير الصحابة في ذلك، فيشير عليه معاذ وغيره من فقهاء الصحابة بعدم توزيعها، وإبقائها في أيدي أصحابها على أنْ تكون ملكيتها للدولة الإسلاميَّة، ولهم حقُّ الانتفاع بها في مقابل خراج يدفعونه للخزانة العامَّة، أي لبيت مال المسلمين.

ورأينا عمر الثاني ـ ابن عبد العزيز خامس الراشدين ـ يقول: «تحدُث للناس أقضية ـ أي أحكام ـ بقدر ما أحدثوا من أمور»[1].

ورأينا الأئِمَّة بعد ذلك يجعلون القياس، واعتبار المصلحة، ورفع الضرر، والاستحسان قواعد شرعية، يجب رعايتها عند الإفتاء أو القضاء أو التقنين.

ورأينا في الفقه الإسلامي متَّسعًا لمختلف الآراء والنزعات والاجتهادات في إطار الشريعة السمحة.

وجدناه يتَّسع للمتشدِّد كابن عمر، وللمُيسِّر كابن عباس، وللقياسي كأبي حنيفة، والأثري كابن حنبل، ومُعْتبِر المصلحة كمالك.

ووجدنا فيه مذاهب أقرب إلى اتِّباع النص، وأخرى أقرب إلى إعمال الرأي، وثالثة تُعَدُّ وسطًا بينهما، ورابعة تتمسَّك بحرفيَّة النصوص والأخذ بظواهرها، كداود وابن حزم وغيرهما من فقهاء المدرسة الظاهريَّة.

ورأينا الإمام الواحد من هؤلاء يرى الرأي في القضيَّة ويفتي به، ثمَّ يبدو له من الأدلَّة والاعتبارات، فيرى غيره ويفتي به، وقد يرجع عن هذا الثاني ويفتي بغيره، ولهذا قد يروى عن الواحد منهم في المسألة الواحدة روايتان أو أكثر. وهذا كثير في مذهبَيْ مالك وأحمد، وأما

(١) الفروق للقرافي (١٧٩/٤)، نشر عالم الكتب.

QaradawiBooks.com

الشـــافعي فمعروف أنَّ له مذهبًا في العراق يُسمَّى «القديم» ومذهبًا في مصر يُسمَّى «الجديد».

وبين هؤلاء الأئمَّة وأصحابهم خلاف كثير في عديد مـن المسائـل، وأوضـح ما يكون ذلك في مذهب أبي حنيفة، وكل مَن له إلمام بالفقه يعرف ما امتلأت بـــه كُتُب الحنفية مـــن خلاف بين الإمـــام الأعظم وصاحبيه: أبي يوســـف ومحمد، أحدهمـــا أو كليهمـــا، وكذلك زُفر والحســـن بن زياد وغيرهما، وكثيـــرًا ما نقرأ في تعليـــل الخلاف بين الإمام وصاحبيه هذه العبارة: «هذا اخـتلاف عصـر وزمان، لا اختلاف حُجَّة وبرهان»[١].

ودعاة الحل الإســـلامي ينادون بوجوب الاســـتفادة من هذه الثروة الفقهيَّة كلِّها، على اختلاف مدارســـها ونزعاتها، دون تعصُّب ولا تقليد أعمى، ولا تقيُّد إلَّا بأصول الشرع ومقاصده.

مشروعيَّة الاقتباس ممَّا عند غيرنا وحدوده:

بل أحبُّ أنْ أقول بصراحة: إنَّ الـدعاة الراسخين الأصـلاء للـحـل الإسـلامي لا يقفون موقف المتشنِّج من المذاهب العصرية في السياسة أو الاقتصاد أو الفلسفة أو العلم أو الأدب، بل يقتبسون منها ـ بإذن من شـــريعتهم نفســـها ـ ما وجدوا فيه خيرًا لأمَّتهم ومصلحـــةً لدينهم أو دنياهم، وشـــعارهم في ذلك: «**الحكمة ضالَّة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحقُّ الناس بها**»[٢].

(١) انظر: الهداية في شـــرح بداية المبتدي (٢٧٢/٣)، نشـــر دار إحياء التراث العربي، بيروت، والعناية شرح الهداية (٢٣٣/٩)، نشر دار الفكر. وغيرها من كتب الفقه الحنفي.

(٢) سبق تخريجه صـ٢٠.

QaradawiBooks.com

فإذا كان في تجربة الديمقراطيَّة وممارستها مثلًا جوانب إيجابيَّة في مجال السياسة، وتقوية سُلطة الشعب، وتثبيت دعائم الشورى، وحقوق الإنسان، والحيلولة دون استبداد الحكَّام، فلا يوجد أيُّ مانع شرعي من اقتباس هذا الجزء، والاستفادة منه، بل قد يستحبُّه أو يوجبه، بحسَب الحاجة إليه.

وإذا كان فيها جانب فيه نفع، ولكنَّه يحتاج إلى تعديل وتحوير، حتَّى يوافق أحكام الإسلام، فلا بدَّ من تعديله وتحويره.

مثال ذلك: نظام الاستفتاء في الأمور العامَّة، مثل اختيار رئيس الدولة إذا انتخبه أغلبيَّة الشعب.

فهذا النظام إذا أعطى فرصةً للمفاضلة بين شخصين أو عدة أشخاص، يختار المنتخب أحدهما أو أحدهم، فهو نظام حسن. بشرط أنْ تُحدَّد صفات المنتخب بأنْ يكون عدلًا مرضيًّا في إدراكه وأمانته، وذلك لأنَّه شاهد، فيُشترط فيه ما يُشترط في الشاهد. وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أمَّا إذا كان الاستفتاء على شخص واحد، لا شريك له، يُطلب من الناس أنْ يجيبوا عنه بـ «نعم» أو «لا»، فقد أثبتت التجارب المتكررة في الشرق والغرب أنَّ هذه الطريقة لا تُحقِّق اختيار الناس لمن يريدون، وإنَّما تنتهي بالشخص الَّذي يُراد فرضه، أو بالقانون الَّذي يُراد إيجابه، ولم يحدث قط أنْ استُفتي على شخص، أو دستور، أو بيان، أو قرار، أو إجراءات، وحصلت السُّلطة المستفتية على نسبة دون الأغلبيَّة، بل

QaradawiBooks.com

الَّذي تعوَّده الناس في مثل هذه الأحوال هو رقم (٩) الدائر، أو بالتعبير الشعبي «الخمس تسعات» يعنون (٩٩,٩٩٩٪).

ولا غرْوَ أنْ قال أحد النُّقَّاد السياسيين في الغرب عن هذا النوع من الاستفتاء: إنَّه سباق يعدو فيه حصان واحد!

وفكرة مثل فكرة الترجيح بأغلبيَّة الأصوات في الأمور المباحة، الَّتي تتكافأ فيها وجهات النظر أو تتقارب. وحينئذٍ يُحتكم إلى التصويت لتغليب أحد الرأيَيْن أو الآراء تبعًا لاتِّجاه الأكثريَّة المطلقة، أو المحدَّدة بالثلثين، أو نحو ذلك في بعض المجالات، أو تبعًا لاتجاه الكثرة النسبية إذا تعدَّدت الوجهات ولم يمكن حصرها في وجهتين.

فهذا لا حَرَج في الأخذ به، ولو لم يكن له أصل في فقهنا وتراثنا، فكيف إذا كان له أصل وهو ما ثبت أنَّ رسول الله ﷺ قد نزل على رغبة الأكثريَّة في خروجهم لملاقاة المشركين عند «أُحد» وكان رأيه ورأي كبار أصحابه البقاء في المدينة، والقتال من داخلها إذا دخلوها بالفعل[1].

صحيح أنَّه لم يطلب عدَّ أصوات الموافقين والمعارضين؛ فقد كانت الحياة سهلة، ولا تتطلَّب مثل هذا التحديد الصارم.

وقبل هذا نجده ﷺ في غزوة «بدر» يحرص قبل أنْ يقرِّر الدخول في المعركة أنْ يعرف رأي الناس ويسمع منهم موافقتهم، وبخاصَّة الأنصار فهم يُمثِّلون الأغلبيَّة. ولم يكتفِ عليه الصلاة والسلام، بما سمع من المهاجرين من موافقة، وحُسن استعداد لبذل النفس والنفيس في نُصرته، فظلَّ يقول:

(١) راجع سيرة ابن هشام (٦٣/٢)، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ٢، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

QaradawiBooks.com

«**أشـــيروا عليَّ أيُّها الناس**» حتَّى وقف ســـيِّدُ قومه (سعد بن معاذ) يقول مُمثِّلًا للأنصار: «كأنَّك تريدُنا يا رسولَ الله، والله لقد آمنَّا بك وصدَّقناك... فامضِ بنا على بركة الله»[١].

وفي عصر الراشـــدين نجد أمير المؤمنيـــن عمر بن الخطاب يوصي باتباع سياســـة التصويت والترجيح بالأكثريَّة في أعظـــم الأمور خطرًا، وأبعدها أثرًا، وهو اختيار خليفة للمســـلمين.. في قضية الستة أصحاب الشورى. حتَّى إنَّه في حالة التساوي أوصى بأن يجعلوا عبد الله بن عمر مرجِّحًا من خارجهم إنْ رضوا به، وإنْ لم يرضوا به يرجَّح الجانب الَّذي فيه عبد الرحمٰن بن عوف.

ونجد فقهاءنـــا يقولون في قواعدهم: للأكثر حكـــم الكُلِّ. ويقولون: الأكثريَّة مدار الحكم عند فقدان دليل آخر. بل نجد الإمام الغزالي يقول في مســـألةٍ ما إذا بويع لإمامين في وقت واحد ـ وهو ما يرفضه الإسلام بنصوصه الصريحـــة ـ أنَّهم لو اختلفوا في مبدأ الأمـــور وجب الترجيح بالكثرة. ثمَّ بيَّن الســـبب في ذلك فقال: «والكثرة في الأتباعِ والأشـــياعِ أقوى مسلك من مسالك الترجيح»[٢].

كما نجد اتجاهًا عامًّا لدى الخاصَّة والعامَّة إلى ترجيح رأي الجمهور في المسائل الخلافية الَّتي لم يقُم فيها الدليل على ترجيح رأي بعينه[٣].

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (١٦/٢)، تحقيق عمر عبد الســـلام تدمري، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

(٢) راجع: فضائح الباطنية للغزالي صـ ١٧٣، ١٧٤، تحقيق عبد الرحمٰن بدوي، نشر مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت.

(٣) انظر: الشـــورى وأثرها في الديمقراطية للدكتور عبد الحميد الأنصاري صـ ١٧٢ وما بعدها، نشر المطبعة السلفية، ١٩٨٠م.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وممَّا يُستأنس به هنا الحديث الَّذي يقول: «**عليكم بالسوادِ الأعظم**»، وإن كان في ثبوته كلام[١].

وفكرة مثل تقييد مدَّة الرئاسة للإمام أو رئيس الدولة بعدد من السنوات، بعد تجارب القرون الَّتي منيت فيها الأمم باستبداد المستبدين، ولم تستطع التحرُّر منهم إلَّا بالموت، أو الاغتيال أو الانقلاب. وكثيرًا ما لا يحلُّ الموت المشكلة، فغالبًا ما يعهد المستبد إلى مستبدٍّ مثله من صلبه أو من طائفته أو من نوعه.

لهذا كان التقييد هو العلاج، فإن كان فاسدًا أو ضعيفًا فقد وقع الخلاص منه بلا فتنة ولا حَرَج، وإن كان صالحًا أمكن إعادة انتخابه مرَّة أخرى.

وقد تفرض الظروف رجلًا معيَّنًا لمرحلة معيَّنة، أو لعدم وجود آخر مناسب في ذلك الوقت، فالتوقيت هنا يتيح الفرصة للاختيار من جديد، بعد تجاوز مرحلة الضرورة، وظهور عناصر جديدة، أبرزها الميدان، وأفرزها العمل، سُنَّة الله في خلقه.

والذين يرفضون هذا لمجرَّد أنَّه مخالف لما جرى عليه المسلمون في عهد الراشدين يحجِّرون ما وَسَّع الله، ويُعسِّرون ما يَسَّر الشرع، ويجعلون من السوابق التاريخيَّة دينًا يُتَّبع إلى يوم القيامة[٢].

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٨٤٥٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٠٩٧): رواه عبد الله بن أحمد، والبزار والطبراني، ورجالهما ثقات. عن النعمان بن بشير.

(٢) انظر: مقال قضايا الدستور والديمقراطية في التفكير الإسلامي المعاصر للدكتور محمد فتحي عثمان في مجلة المسلم المعاصر صـ ١٠٦ وما بعدها، العدد (٦)، ١٩٧٦م.

QaradawiBooks.com

كلُّ ما في الأمر أنَّ الصحابة فعلوا ذلك، لأنَّه كان الأصلح لهم، وفعلهم إذا أجمعوا عليه يدلُّ ولا شكَّ على أنَّ الأمر مشروع ومأذون به، ولكن لا يدل على أنَّه أمر لازم، وفرض واجب الاتباع.

بل إنَّ فعل النبيِّ ﷺ ـ وهو جزء من سُنَّته ـ لا يدلُّ على أكثر من المشروعيَّة، كما هو مقرَّر في الأصول.

وقد رأينا كيف قسَّم النبيُّ ﷺ أرض خيبر، ولم يُقسِّم عمر أرض سواد العراق، وأبقاها في أيدي أربابها، وفرض عليها خراجًا يعود نفعه إلى أجيال المسلمين المتعاقبة، ووافقه كبار الصحابة وفقهاؤهم على ذلك[1]، ولم يعتبروا ذلك تركًا لأمر واجب، ولا مخالفة للنبي ﷺ. بل فعل النبيُّ ﷺ ما فيه المصلحة في وقته، وفعل عمر ما فيه المصلحة في وقته.

وما قلناه بالنسبة للديمقراطيَّة، وجواز الاقتباس من تجربتها ما يُحقِّق مصالحنا، ولا يعارض شريعتنا.. نقوله بالنسبة للاشتراكيَّة وغيرها من المذاهب، بل بالنسبة للماركسيَّة ذاتها، على ما فيها من باطل كثير.

فإذا كان فيها جوانب ذات نفع في نظريتها في التحليل أو التفسير، أو في تجاربها التطبيقية في مجال التنمية، وتطوير الإنتاج، وتحسين الإدارة ونحو ذلك، فلا بأس علينا في الاستفادة منه.

وليس معنى خطأ مثل «ماركس» أو «فرويد» أو «دوركايم» أو «دارون» في نظريَّاتهم الأساسيَّة الَّتي اشتهروا بها، أنَّهم لم يقولوا حقًّا قَط، وأنَّ كل ما قالوه باطلًا من ألفه إلى يائه، فهذا مخالف لطبيعة

(١) انظر كتابنا: السياسة الشرعية بين نصوص الشريعة ومقاصدها صـ ١٨٨ ـ ٢٠١، موقف عمر من قضية عدم قسمة الأرض بين الفاتحين، نشر مكتبة وهبة، ط ٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

الأشياء، ولواقع الأمور، بل الأمر كما قال معاذ بن جبل ﷺ: إنَّ الحكيم قد يقول ما فيه زيغ، وإنَّ المنافق قد يقول كلمة الحقِّ[١].

الجمود الَّذي نُصِرُّ عليه:

وإن كنتم تريدون بالجمود مجرَّد الثبات أو الاستمساك بقِيَم وأهداف وعقائد وأصول، لا يجوز المروق منهـا، ولا الخروج عليها، لأنَّها ثابتة لا تحول، خالدة لا تـزول، باقية ما بقيت الحياة والأحيـاء، فهذا حقٌّ، ودعاة الحل الإسلامي يصرُّون على هذا الثبات الَّذي تسمُّونه «الجمود» ولا يحيدون عنه قِيدَ شـعرة، وقد قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].

وتسميتكم لهذا الثبات أو الاستمساك «جمودًا» لا يخيفهم، فلا عِبرة بالأسماء إذا وضحت المُسَمَّيات.

وكلُّ أنبياء الله ورسـله من لدن آدم أبي البَشـر إلى خاتمهم محمَّد ـ صلوات الله عليهم ـ من دعاة هذا «الجمود»؛ لأنَّهم جميعًا يدعون إلى الإيمان بخالق أزلي أبـدي، لا يفنى ولا يتغيَّـر ولا يتطوَّر: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديـد: ٣]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشـورى: ١١]، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤].

وكلُّهم على اختلاف أقوامهم وأوطانهم وأزمانهم يدعون بدعوةٍ واحدةٍ لم تتغيَّر ولم تتطوَّر: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

---

(١) رواه أبو داود في السُّـنَّة (٤٦١١)، والحاكم في الفتن والملاحم (٤/٤٦٠)، وصحَّحه على شـرط الشـيخين، ووافقه الذهبي. وقال الألباني في صحيح أبي داود (٣٨٥٥): صحيح الإسناد موقوف.

QaradawiBooks.com

وكلُّهم يُحذِّر قومه من عذاب يوم عظيم: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

وكلُّهم يدعو الناس إلى مكارم الأخلاق، واجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وينذرون قومهم إذا أضاعوا الصلاة واتَّبعوا الشهوات.

وكلُّهم يدعو إلى اتِّباع ما أنزل الله من الهدى، ويحذِّر من اتباع الهوى، ويأمر بتقوى الله وطاعة رسله، وينهى عن طاعة المفسدين من شياطين الإنس والجن: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

فدعوة الأنبياء ـ على ما بينهم من فوارق العصور، وامتداد القرون ـ لم تتطوَّر ولم تتغيَّر في جوهرها.

إنَّ نوحًا يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٣، ١٤٤].

ومثل ذلك يقوله هود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم عليهم السلام.

الرسل المصطفون الأخيار بهذا المنطق كلُّهم إذن «جامدون» غير متطوِّرين، وعلى رأس هؤلاء «الجامدين» محمَّد ﷺ؛ فقد جاءنا بنفس الأصول والقِيَم والأهداف والعقائد الَّتي نادى بها نوح والنبيُّون من بعده منذ قرون سحيقة لا يعلمها إلَّا الله، جاءنا بكتاب يقول: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

جاءنا بعقيدة «جامدة» لا تقبل التطوُّر؛ لأنَّها إيمان بحقائق ثابتة لا يعتريها تغيُّر، فالله هو الله في كل عصر وفي كل مكان، واليوم الآخر

QaradawiBooks.com

وما فيه من حساب وجزاء هو اليوم الآخر، وعالم الغيب هو عالم الغيب، لا تتطوَّر هذه الحقائق ولا تتبدَّل، سواء أكان الناس يركبون الجمال، أم يركبون الطائرات أو الصواريخ ومراكب الفضاء، وسواء أكانوا يسكنون في الأكواخ، أم في ناطحات السحاب، وسواء أكانوا يطهون طعامهم بالوقود من الحطب، أم بمواقد الكهرباء أم لا يطهون طعامهم أصلًا، بل يأكلونه نيئًا كما تفعل السباع والأنعام.

وجاءنا محمَّد ﷺ بقِيَم وأخلاق «جامدة» لا تلين لمطارق الحضارة وضرباتها العنيفة المتكررة، فالزنى حرام، والتبرُّج حرام، والخمر حرام، والقمار حرام، والربا حرام، والشذوذ الجنسي حرام، والقتل حرام، والظلم حرام، وغير ذلك من الرذائل حرام، حرَّمها الله ورسوله، فهي حرام إلى يوم القيامة، كما أنَّ الحياء فضيلة، والعفاف فضيلة، والصبر فضيلة، والرحمة فضيلة، والسخاء فضيلة، والشجاعة فضيلة، والأمانة فضيلة، وخشية الله فضيلة، والتوكل عليه فضيلة، وغير ذلك ممَّا جاء به الرسول ﷺ من شُعَب الإيمان، وأخلاق الإسلام.

وستظلُّ هذه الفضائل فضائل، كما ستظل تلك المحرَّمات محرَّمات، سواء أكان الإنسان في القرن السابع للميلاد، أم في القرن العشرين أو القرن الثلاثين أو المائة.

وجاءنا محمَّد ﷺ بدستور مكتوب لتعاليمه تلك ـ من عقيدة وشريعة وأخلاق ـ دستور هو أيضًا «جامد» لا يملك ملك، ولا رئيس، ولا برلمان، ولا شعب أنْ ينقص منه، أو يزيد عليه، أو يغيِّر فيه، حتَّى يلائم الأوضاع، ويساير الركب، وإنَّما الواجب أنْ تُغيَّر الأوضاع حتَّى تلائمه، ويوجَّه الركْب حتَّى يسايره.

QaradawiBooks.com

وجاء هذا الدستور يعلن أنَّ للناس ـ كل الناس، في كل الأمصار ـ فطرة «جامدة» لا تتبدَّل، ولا ينبغي أنْ تُبدَّل: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. أي: لا تبديل للفِطرة الإنسانيَّة الَّتي هي خلق الله سبحانه. كما أعلن أنَّ كلَّ سعي لتغيير هذه الفِطرة إنَّما هو من عمل الشيطان عدوِّ الإنسان المبين، الَّذي توعَّد بني آدم من قديم فقال: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]، وممَّا يؤسف له أنَّ كثيرين من الناس قد استجابوا لأمر إبليس، فحاولوا مسخ فِطرة الله، وتغيير ما خلق الله.

وجاء هذا الدستور كذلك يعلن أنَّ لهذا الوجود قوانين خالدة، وسُنَنًا ثابتة هي الأخرى، لا تتطوَّر ولا تتبدل، جرت على المستقدمين، وجرت على المستأخرين، وستجري على اللاحقين: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧]، ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

إنَّ تفسير الجمود بهذا المدلول الأخير قد جعل الشُّقة بعيدة، والهوة سحيقة بين دعاة الإسلام، ودعاة التجدُّد والتطوُّر المطلق. والخلاف بين الفريقين حينئذٍ خلاف جذري عميق، لا يُتصوَّر معه لقاء في منتصف الطريق، إنَّه خلاف في الأسس والكُلِّيَّات، لا في التطبيق والجزئيَّات، خلاف في الأصول والغايات، لا في الفروع والآلات.

إنَّ كلَّ شيءٍ في الوجود ـ ماديًّا كان أو معنويًّا ـ ليس له ثبات ولا خلود عند دعاة التطور المطلق؛ فالشرائع غير ثابتة، والفضائل غير ثابتة، بل العقائد والقِيَم الأساسيَّة كلها غير ثابتة.

QaradawiBooks.com

يقول أحد هؤلاء «المتطوِّريــن»: «إنَّ الفضائــل الاجتماعيَّة، والقِيَم العليا، الَّتي تُنظم حياة المجتمع وتُناط بها وجهته، ليست الَّتي يرتضيها فرد أو جماعة من النــاس، وتلائم تفكيرهم وإحساســهم، بل هي الَّتي تنســجم مع القاعدة، وتســمو عن الشــذوذ. والقاعدة هنا هي التطور، والشــذوذ هو الرجعيَّة والانتكاس، فكلُّ زحف إلى الوراء مهما يتســم بحُسن النيَّة، وسذاجة القصد، ليس سوى رذيلة في ثوب تنكري خدَّاع. وليس هناك إثم أشــدُّ، ولا خطيئة أفحش من مقاومة التطوُّر، وإخضاع مستقبل الأمم لجهلها القديم»[١].

ويقول «متطور» آخــر أكثر صراحــة وجرأة: «الخير والشــرُّ خضعا لناموس التطوُّر، فتغيَّرت معاني الرذيلــة ومعانــي الفضيلة: كانت المرأة رمزًا للشــيطان، وكانت الغريزة الجنســية خطيئة تحمل أوزارها المرأة وحدهــا، فأصبحت المــرأة نصفًا مكمِّــلًا للرجل، وأصبحــت الغريزة الجنسية حالة تُنظَّم لصالح المجتمع ومسرة أفراده»[٢].

وفي موضع آخر يقول: «كلُّ ما هو خير، وكلُّ ما هو شرٌّ، موضوعات تتغيَّر مع المواسم والأعياد، وتخرج من حاجات الناس وضروراتهم. كل هذه المُثُل والكلمات الطنانة الرنانة تخرج من الأرض، وتمرُّ على المعدة أولًا، فإذا هضمتها صعدت إلى العقل وعشَّشت فيه»[٣].

---

(١) من هنا نبدأ لخالد محمد خالد صـ ١٩٨، نشر دار النيل للطباعة، ط ٢، ١٩٥٠م.
وقد أعلن الأســتاذ خالد رجوعه عن كثير من الأفكار التي تضمنهــا كتابه القديم في كتابه الجديد: الدولة في الإسلام. ولكننا نناقش الفكرة من حيث هي، وبخاصة أنَّ الكتاب لا يزال يُنشر. ثم إنَّ فصول هذا الكتاب كُتب أكثرها منذ أكثر من عشرين عامًا.

(٢) الله والإنسان لمصطفى محمود صـ ٣.

(٣) المصدر السابق صـ ٢٣، ٢٤.

QaradawiBooks.com

«الحق المطلق، والخير الصرف، والفضيلة المجرَّدة توجد في عقول المتصوِّفين والمجاذيب والحالمين، ولكنَّها لا توجد في مجتمعنا الَّذي يأكل ويشرب، ويمرض ويموت.

والطريقة العصرية في بلوغ الفضيلة ليست الصلاة، وإنَّما هي الطعام الجيد، والمسكن الجيِّد»[١].

إنَّ مبدأ التطـــوُّر والتغيير لا يقف عند حدٍّ، ولا يقنع بشـــيء، حتَّى يشمل جميع الأشياء، حتَّى الدين، والإيمان بالله، والحياة الآخرة.

يقول أحدهم: «إن فكرة «الله» في تطوُّر مســـتمر، كما تدلُّ على ذلك قصَّة الأديان. الله في العقل الحديث معنـــاه: الطاقة الخام في داخلنا، الله هو الحركة الَّتي كشفها في الذَّرَّة»[٢].

«إنَّ الله ليس فوق الجدل، وليس فوق العقل، وليس فوق الواقع. إنَّ الله هو العقل، وهو الواقع، وهو مجموع القُوَى الكونيَّة الَّتي تعمل لخيرنا في كل وقت، وهي قُوًى تقبل المراجعة والبحث والتطوُّر»[٣].

«إنَّ نشـــأة الروحيَّة من الضرورة المادِّيَّـــة، وإنَّ العالم الآخر أرضي ناشئ من الأرض، ومن الحاجات الأرضيَّة، ولا دخل للسماء فيه»[٤].

---

(١) الله والإنسان لمصطفى محمود صـ ٢٤.

(٢) الله والإنسان صـ ١١١.

(٣) المصدر نفسه صـ ١٣١.

(٤) المصدر نفسه صـ ١١٦. وممَّا يُذكر أنَّ الكاتب الدكتور مصطفى محمود رجع عن هذه الآراء الجاحدة، كما أعلن ذلك في كتابه: رحلتي من الشـــك إلى الإيمان، وبدأ يتجه للكتابة عن القرآن محاولًا فهمه فهمًا عصريًّا كما قال. وإنْ لم تخل محاولته من شطط كثير.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إنَّ هؤلاء المتحرِّرين يريدون أن يطوِّروا كلَّ شيء ولو كان هو الدين بأخلاقه وشرائعه وعقائده ومفاهيمه، ولا يرون في الوجود شيئًا له صفة الثبات والبقاء، ولو كان هو الله سبحانه وتعالى عمَّا يقولون.

ودعاة الإسلام يرون في الإنسان فِطرة ثابتة، وفي الكون سُنَنًا ثابتة، وفي الوجود حقائق ثابتة، وفي الحياة قِيَمًا ثابتة، ومصدر هذا الثبات كله هو الله، الَّذي لا يتطوَّر ولا يتغيَّر سبحانه.

إنَّ الأديان كلَّها تمثِّل الثبات في الحياة؛ فهي للحياة كالجبال للأرض، جعلها الله أوتادًا رواسي حتَّى لا تميدَ بأهلها، والإسلام خاتم هذه الأديان يُمثِّل بمصادره وأصوله الثبات أكثر من غيره؛ لأنَّ كتابه محفوظ لم يتبدَّل، وأصوله مصونة مرعية لم تتحوَّر ولم تُشوَّه، كما حُوِّرت وشُوِّهت أصول ديانات أخرى، والمسلمون ـ على ما فيهم من عيوب، وما طرأ عليهم من انحرافات ـ يُمثِّلون الثبات على تركة النبيِّين من الفضائل والعقائد والباقيات الصالحات.

ولهذا كان أكبر همِّ الاستعمار أنْ يَطوِّر المسلمين حتَّى يتقبَّلوا حضارته الغازية، ومفاهيمه المادِّيَّة. فإنْ عجز عن تطوير المسلمين حاول أنْ يُطوِّر الإسلام نفسه، حتَّى يُرحِّب بكل جديد، ويُبارِك كلَّ تغيير، ويُبرِّر كلَّ محظور. وهذا أخطر وأدهى.

لا بدَّ من تطوير الإسلام حتَّى يكون دين سلام لا دين جهاد، وتفسير السلام بحيث يقبل المعايشة مع الغاصبين لأرضه، المعتدين على حُرماته، وبذلك يطمئنُّ السادة الصهيونيون والمستعمرون والملحدون على مصالحهم وسرقاتهم ومكاسبهم العدوانية!

QaradawiBooks.com

ولا بدَّ من تطوير الإسلام حتَّى يصبح دين تسامحٍ وسِعَة، يسمح بأنْ تُهدم المساجد، وتُبنى الكنائس، وأنْ تطغى دقَّات الأجراس في هذه على صيحات المؤذِّنين في تلك، وأنْ تدع الأكثريَّة المسلمة شريعة ربِّها من أجل خواطر الأقلية غير المسلمة!

ولا بدَّ من تطوير الإسلام في المجال الاقتصادي، حتَّى يقبل «الربا» الَّذي لا يدور دولاب الاقتصاد الاستعماري إلَّا به.

ولا بدَّ من تطوير الإسلام في المجال الاجتماعي حتَّى يقبل مساواة المرأة بالرجل في كلِّ شيء، وتسقط ـ كما قالوا ـ بقية الأغلال القديمة من عنقها، فلم يعد اليوم مبرِّر لقيام الرجال على النساء، بعد أنْ تعلَّمت المرأة كما تعلَّم الرجل، وأصبحت تعمل في ميادين الحياة، كما يعمل، بل لا داعي لأنْ يرث الذكر مثل حظِّ الأنثيَيْن، فقد كان هذا التفاوت لأنَّ المرأة لم يكن لها استقلال اقتصادي كما في عصرنا!

ولا بدَّ للإسلام المتطوِّر أنْ يُحرِّم الطلاق وتعدُّد الزوجات، ويُبيح التبرُّج والاختلاط بين الجنسين، ويسمح للخاطب أنْ يصحب مخطوبته في المتنزَّهات و«السينمات» والخلوات! ويُجيز للمرأة أنْ تعمل في كلِّ المجالات، ولو في حانة أو ملهى أو مرقص، أو مضيفة في طائرة، أو غير ذلك ممَّا يحرِّمه الإسلام.

ولا بدَّ لإسلام القرن العشرين أنْ يبيح الخمر والرقص واللهو والسهر الأحمر، ويبارك فتح الخمَّارات والمراقص والملاهي؛ من أجْل تشجيع السياحة، واجتذاب ذوي العيون الخضر، والوجوه الشُّقر، من السياح الأجانب، وتثبيت معنى الحرية الشخصية، الَّتي لا تقوم حياة ديمقراطيَّة إلَّا بها، حرية الفسوق لا حرية الحقوق!

QaradawiBooks.com

إنَّ هذا الَّذي يسمِّيه هؤلاء تطوُّرًا، إنَّما هو انحراف عن الصراط السوي، وسقوط في مهاوي الرَّدَى، وهبوط بالإنسان يحاربه الإسلام. ونحن نعجب لهؤلاء الَّذين يريدون أنْ يطوِّروا الإسلام، ويطوِّعوه لمقتضيات العصر، ونقول لهم: لماذا تطالبون الإسلام أنْ يتطوَّر، ولا تطالبون التطوُّر أن يُسْلِم؟! لماذا تريدون أنْ تطوِّعوا الإسلام لمقتضيات العصر، ولا تطوِّعوا العصر لمقتضيات الإسلام؟

إلَّا أنَّ فكرة تطوير الدين نفسه فكرة خطرة على الحياة وعلى الإنسان، مهما نُحسن الظنَّ بدُعاتها؛ لأنَّ الدين هو المقياس الَّذي يجب أن يرجع إليه الناس حين يختلفون، ويفيئون إليه عندما يضطربون، والمقياس لا بدَّ أنْ يثبت على حاله، وإلَّا اضطربت الأحكام واختلفت التقديرات.

إنَّ هذه الفكرة ـ كما يقول الدكتور محمَّد محمد حسين ـ «فكرة فاسدة ضالَّة».

«أما أنَّها فاسدة، فذلك لأنَّ وظيفة الدين هي إصلاح المجتمع، وردُّه إلى الطريق المستقيم، كلَّما زاغ عن القصد وانحرفت به الشهوات. فإذا زعم زاعم أنَّه يجب أن يتطوَّر ليلائم كلَّ عصر وكلَّ بيئة، فقد أفقده وظيفته؛ لأنَّه سيصبح تبعًا للحياة، يستقيم باستقامتها، ويعوجُّ باعوجاجها، فينقاد لها بدل أنْ يقودها.

وأما أنَّها فكرة ضالَّة، فلأنَّ اعتقادها والتسليم بها ينتهي إلى الكفر؛ لأنَّ الَّذي يعتقد أنَّ الشريعة منزَّلة من عند الله، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ وهو العليم الحكيم الَّذي لا يعزب عن علمه شيء ـ لا يعتريه شك في صلاحية ما شرع لخير الإنسان ـ وهو أعلم به ـ في كل زمان وفي كل مكان.

QaradawiBooks.com

ثم إنَّ الَّذي يؤمن بالكتاب كلِّه، وفيه قول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، لا يشقُّ عصا المجتمعين على الدين، بدعوة كلٍّ منهم إلى أنْ يتأوَّله بحسب ما يناسبه»[١].

وهذا الملحظ الأخير الَّذي نبَّه عليه الأستاذ، هو ما يريده الاستعمار القديم والجديد، الغربي والشرقي. إنَّه يريد أنْ يكون لكلِّ شعب مسلم تفسيره «الوطني» أو «القومي» للإسلام. وبذلك توجد «إسلامات» متفرقة ضعيفة، يسهل هدمها أو ابتلاعها، بدل إسلام واحد قويٍّ تعسر مقاومته، فيوجد إسلام عربي، وإسلام إفريقي، وإسلام هندي، وإسلام إندونيسي، إلخ. وهكذا يفقد الإسلام وحْدته، وتفقد أُمَّته وحدتها الفِكْرِيَّة والتشريعيَّة والاجتماعيَّة، وتصبح أُمَمًا شتَّى كما أراد الاستعمار، لا أُمَّة واحدة كما أمر الله.

مفهوم التطور:

ليس معنى ما ذكرناه أنَّ الإسلام يعادي التطوُّر كلَّه، أو يقف في وجهه، أيًّا كانت غايته ووسائله. بل يعادي التطوُّرَ الَّذي يجافي الحقَّ، أو يناقض القِيَم العُليا، أو يرفض الدين الصحيح، ولهذا كان لا بدَّ لنا أنْ نُحدِّد مفهوم «التطوُّر»، حتَّى نُحدِّد موقفنا منه.

«التطوُّر» كلمة حديثة الاستعمال في العربيَّة، أقرَّها المجمع اللغوي، ومعناها: التحوُّل من طور إلى طور، أي من حالة إلى حالة، وفي القرآن الكريم: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤].

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر صـ ٣٠٩، ٣١٠، نشر دار النهضة العربية، بيروت، ط ٣، ١٩٧٢م.

QaradawiBooks.com

وقد ارتبطت هذه الكلمة أوَّل ما ظهرت بنظريَّة النشوء والارتقاء، الَّتي قال بها «دارون» ومعاصره «والاس» في «عالَم الأحياء»، والتي لاقت رواجًا هائلًا في العالَم الغربي عند ظهورها؛ نظرًا لما تحمله من تحدٍّ للكنيسة ورجالها ومقدَّساتها، ونظرًا لما كان وراءها من أيدٍ خفيَّة تعمل على إبرازها وانتشارها، كما اعترف بذلك حكماء صهيون في «بروتوكولاتهم» الشهيرة، برغم ما في النظريَّة من فجوات ونقاط ضعف، ونقص في الأدلَّة.

ثم انتقل استعمال هذه الكلمة من ميدان الأحياء والعالَم المادي، إلى ميدان الأخلاق والأفكار وعالَم المعاني، كما نرى ذلك عند «سبنسر» ومَن وافقه مِن دُعاة التطوُّر في «فلسفة الأخلاق».

والمدرسة الماركسيَّة تتبنَّى «التطور المطلق» لكلِّ جوانب الحياة، وتربطه بفلسفتها «المادِّيَّة الجدليَّة» وبمبدأ «النقيض»، وتتخذه تُكَأةً لتفسيرها المادِّيِّ للتاريخ، وترى أنَّ التطوُّر دائمًا يكون إلى الأفضل، فالوضع اللاحق أفضل من الوضع السابق. كأنَّ مجرد وجود الشيء في زمنٍ تالٍ يجعله أمثل ممَّا كان في زمن سابق، وهذا أمر غير منطقي ولا علمي، فإنَّما تقوم الأشياء بذاتها ولذاتها منفصلة عن الزمان والمكان. على أنَّ التطوُّر عندهم يتوقَّف عندما يصل إلى مرحلة الشيوعيَّة، على خلاف قانون التطوُّر، وبذلك يناقضون أنفسهم بأنفسهم.

وعند الماركسيِّين لا ثبات لشيء قَط؛ فالعقائد والقِيَم والأخلاق والشرائع والتقاليد، كلُّها قابلة للتغيُّر والتطوُّر، فما كان حقًّا بالأمس قد يصبح باطلًا اليوم، وما كان باطلًا اليوم قد يصبح حقًّا في الغد، وما كان فضيلةً بالأمس يمكن أنْ يصير رذيلةً اليوم، أو غدًا، أو العكس. وبهذا تسير حياة الفرد والمجتمع بغير خطام ولا زمام.

QaradawiBooks.com

والتطوُّر في عالَم الأحياء بالمعنى «الداروينيي» لا نتحدث عنه هنا ولا نناقشه، وقد كفانا ذلك علماء الحياة أنفسهم من خصوم النظريَّة، بل من أتباع «دارون» ذاته، الَّذين استدركوا عليها وعدَّلوا فيها بما عُرِف باسم «الداروينية الحديثة» والتي انتهوا فيها إلى حقيقة تفرُّد الإنسان، وتميُّزه عن سائر الحيوانات الأخرى.

وإنَّما الَّذي نتحدَّث عنه هنا ونبيِّن موقف الإسلام منه هو التطوُّر المعنوي، وبخاصَّة التطوُّر في الحياة الاجتماعيَّة.

حقيقتان يجب أنْ نتَّفق عليهما:

وهنا حقيقتان تتَّصلان بطبيعة التطوُّر ومفهومه، يجب أنْ نتفق عليهما قبل الحديث عن المجتمع المسلم وموقفه من الثبات والتطوُّر.

جوهر الإنسان والحياة لا يتطوَّر:

الأولى: أنَّ التطوُّر الَّذي قامت عليه الأدلَّة القطعيَّة، لا يمسُّ جوهر الأشياء وماهيتها، إنَّما يمسُّ شكلها وإطارها؛ فحقائق الأشياء ثابتة، كما قال علماؤنا من قبل، وسُنَن الله في الكون وفي الحياة الإنسانيَّة ثابتة كذلك: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ [فاطر: ٤٣].

وثبات هذه السُّنَن وتلك الحقائق، هي الَّتي جعلتنا نتعامل مع الكون والإنسان والأشياء بأمان واطمئنان، محلِّلين لظواهرها، رابطين بين المسببات وأسبابها، وصولًا إلى قوانين عامَّة، كونية واجتماعيَّة، ينتفع الإنسان باكتشافها، ويتقدَّم عمرانه وحضارته برعايتها واستخدامها.

والذين يحسبون التطوُّر يعني التبدُّل المطلق تكذِّبهم حقائق الوجود الماثلة للعيان. فالكون لم يزل ـ بأرضه وسمائه، وبحاره وجباله، وشمسه

QaradawiBooks.com

وقمره، ونجومه المسخَّرات بأمر ربه ـ كما كان. قد تنشأ جُزُر في البحر، وقد تجف أو تُجَفَّف بحيرات في البر، وقد يزحف الماء على اليابسة، أو تزحف اليابسة على الماء، وقد تعمر مدن وتخرب أخرى. ولكن الكون في مجموعه كما هو، لم يتغيَّر جوهره، ولم تتبدَّل سُنَنه. لا زالت الكواكب تسبح في أفلاكها، ولا زال القمر يستمدُّ نوره من الشمس، ولا زال الماء مركَّبًا من عنصريه: الأوكسجين والأيدروجين. ولا زالت القوانين الكونيَّة تعمل كما وضعها الله. ولولا ثبات هذه القوانين ما تقدَّمت العلوم إلى الحدِّ الهائل الَّذي نراه اليوم ونلمس أثره في الحياة.

والإنسان رغم تعرُّضه للتغيُّر ومؤثراته أكثر من الكون المادي من حوله، هو الإنسان منذ كان. قد تتَّسع معارفه، وقد تتغيَّر أفكاره، وقد تنمو قدراته على استخدام الطبيعة وما فيها من أحياء وجمادات، وتسخير ما خلق الله من الأشياء في محيطه. ولكن جوهره هو هو: يأكل ويشرب، ويشتهي ويغضب، ويفرح ويحزن، وتتنازعه بواعث الخير، وعوامل الشر فيُحسن أو يُسيء، ويعدل أو يظلم، ويُقاتِل ويُقْتَل. كان كذلك منذ كان يركب الدابة، أو يمشي على قدميه، وهو كذلك اليوم حين يركب الطائرة أو سفينة الفضاء!

منذ كانت البَشريَّة تتمثَّل في عائلة واحدة، حسد الإنسان أخاه، وبلغ الحسد به مداه، فطوَّعت له نفسه قتل أخيه، في وقتٍ لم يكن يعرف الإنسان فيه كيف يواري سوءة أخيه، وما زال الصراع بين الإنسان وأخيه الإنسان قائمًا، وما زال القتال والقتل مستمرًّا، وإنْ تغيَّرت وسائله وأدواته، وأصبح في مقدور الإنسان أنْ يتخلَّص من جثة القتيل بوساطة العلم، فيحلِّلها ويذيبها عن طريق بعض المواد الكيميائية، فلا يبقى لجريمته أثر!

QaradawiBooks.com

التطوُّر ليس دائمًا إلى الأفضل:

هذه حقيقة أولى، **والثانيــة**: أنَّ «التطور» هو الانتقــال من طَوْرٍ إلى طَوْر، وليس بالضرورة أنْ يكون الطَّوْر الثانــي أفضل من الطَّوْر الأول. ومجرد حدوث الشــيء في زمن تــالٍ لا يعطيه أولويــة أو أفضلية على سابقه؛ فالخيرة والأفضلية بين الأشياء والأحداث والمواقف إنَّما تحكمها معايير موضوعيَّة، بغَضِّ النظر عن الزمن الَّذي حدثت فيه.

وفي حياة الفرد الإنساني نراه ينتقل من الطفولة إلى الشباب، ومن الشباب إلى الشــيخوخة، ويتحوَّل من الصحَّة إلى السقم، ومن السقم إلى الصحَّة.

وفي حياة الأمم تمرُّ بمثل هذه الأدوار من ضعف إلى قُوَّة، ومن قوَّة إلى ضعف.

ومَن يظنُّ أنَّ التطوُّر لا يكون إلَّا انتقالًا من ســيِّئ إلى حسن، ومن حسن إلى أحسن، فقد أخطأ، وكذب على الواقع والتاريخ. فقد أثبتنا أنَّ التطوُّر قد يكون تغيُّرًا من حسن إلى سيِّئ، أو من سيِّئ إلى أسوأ، أو من أسوأ إلى ما هو أشد سوءًا.

ومن ثَمَّ يكون مِن التطوُّر ما هو محمود، يُسعَى إليه ويُحرَص عليه، وهو الَّذي تنتقل به الأمم من جهل إلى علم، ومن كفر إلى إيمان، ومن هدم إلى بناء، ومن تحلُّل إلى تماسك، ومن فوضى إلى نظام، ومن شرٍّ إلى خيــر، كالذي حدث لأُمَّة العــرب حين نقلها الإســلام من جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، إلى الهدى ودين الحقِّ.

ومن التطوُّر ما يكون مذمومًا يجب رفضه ومقاومته، وهو الَّذي تنتقل به الأمم من الهدى إلى الضلال، ومن اليقين إلى الشكِّ، ومن الفضيلة إلى

QaradawiBooks.com

الرذيلة، ومن الأصالة إلى التبعية، ومن الوحدة إلى التمزُّق، ومن الإيجابيَّة إلى السلبيَّة، ومن البناء إلى الهدم، ككثير من ألوان التطوُّر والتغيُّر الَّذي حدث لأُمَّتنا الإسلاميَّة في عصور التخلُّف والركود، ثمَّ في عصر الاستعمار والحكم الأجنبي، ثمَّ في عصر التقليد والتبعية الفِكْرِيَّة والتشريعيَّة للاستعمار بعد رحيله وقيام حكم وطني يُفترض فيه التحرُّر والاستقلال!

الإسلام والتطوُّر:

والإسلام باعتباره شريعة الفِطرة والعدل لم ينكر وجود التطور في الكون والحياة، ولم يعطه أيضًا أكبر من حجمه، ولم يفتح الباب لأيِّ تطوُّر خيرًا كان أو شرًّا، إنَّه لم يكبِّل الإنسان بأغلال تشلُّ حركته، ولم يدَعْه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وكأنَّه إلٰه لا يُسأل عما يفعل، بل وضع له قيمًا وأحكامًا ينطلق في إطارها، ويتصرف بحرية على ضوئها، شاعرًا بأنه مكلَّفٌ مختارٌ مسؤول، جامعًا بين الثبات والتطوُّر معًا، ولكنَّه ثبات في الغايات والأصول، تطوُّر في الوسائل والفروع.

فهناك عقائد وعبادات، وفضائل وأحكام قطعيَّة الثبوت والدلالة، تقوم عليها الوحدة الفِكْرِيَّة والشعورية والسلوكيَّة للأُمَّة، ولا مجال فيها لتطوُّر أو تبديل. وبجوارها أحكام اجتهاديَّة، ودلالات ظنِّيَّة، وشؤون دنيويَّة، تجد الأُمَّة إزاءها مجالًا رحبًا لحُرِّيَّة الفكر، وحُرِّيَّة الحركة، ومرونة المواجهة، ولن تجد من القواعد والنصوص إلَّا منارات تهدي، لا قيودًا تعوق.

المجتمع الثابت المتحرِّك:

وعلى ضوء ما ذكرنا، يمكننا أنْ نعرف حقيقة المجتمع المسلم، وموقفه من الثبات والتطوُّر.

QaradawiBooks.com

المجتمع المسلم مجتمع متطوِّر متوازن، ولهذا اجتمعت فيه المتقابلات، وأخذ كلٌّ منها مكانه بالعدل. وهذا هو وضعه بين الثبات والتطوُّر.

المجتمع المسلم مجتمعٌ ثابتٌ متحرِّك في آنٍ واحدٍ.

إنَّه أشبه بالنهر الجاري المتدفِّق، الَّذي لا يقف عن الحركة والتجدُّد والجريان، ولكن في مجرى مرسوم، واتجاه معلوم، ولغاية معروفة. وإذا كانت طبيعة هذا المجتمع قد اتضحت وتجلَّت في هذا التوازن المعجز، فإنَّ الحكمة في ذلك قد بدت ماثلةً للعيان أيضًا.

وذلك أنَّه إذا اتخذ الثبات المطلق ديدنه في كلِّ الأمور، الدينيَّة والدنيويَّة، المعنويَّة والماديَّة، الكُلِّيَّة والجزئيَّة، الأصلية والفرعية، وثبت على الوسائل ثباته على الأهداف، تجمَّدت الحياة وتحجَّرت، ولم يستفد الناس من الملاحظة والتجربة الَّتي هي أساس العلم الكوني، وهي أمر واقع حتمي في حياتهم، وهذا ضد قوانين الكون، وضد قوانين الفِطرة، فِطرة الإنسان وفِطرة الأشياء.

كما أنَّه لو اتَّخذ المرونة المطلقة مبدأً له وشعارًا بحياته، لتطور على طول الزمن إلى مجتمع بلا قِيَم ولا ضوابط، وأفلت زمامه من يد الدين، أو يصبح الدين خاضعًا لظروفه، وتابعًا لحياته، يستقيم إذا استقامت، وينحرف إذا انحرفت. والمفروض في الدين أنْ يحكم الحياة، لا أنْ تحكمه، وأنْ يخضعها لمثُله وهُداه، لا أنْ تخضعه لواقعها وهبوطها. ولو لَانَ المجتمعُ المسلم في أفكاره ومفاهيمه، وأخلاقه وتقاليده وشرائعه، للتطوُّر المطلق حسَب البيئة والعصر والأحوال الطارئة، لفقد هذا المجتمع هُويَّته وشخصيته المتميزة، كما فقد أيضًا وحدته، وأصبح في كل قُطر مجتمع مغاير للمجتمعات المنتسبة إلى الإسلام في أقطار

QaradawiBooks.com

أخرى. فلا توجد الأُمَّة الواحدة الَّتي أرادها الله، وإنَّما توجد أمم ومجتمعات متناقضة متباينة، كما يريد أعداء الإسلام.

ومَن أراد أن يعرف نعمة الله على المجتمع المسلم، الَّذي حفظ له الإسلام توازنه بين الثبات والتطور، فلينظر إلى مجتمعات أخرى ـ كالمجتمعات الغربيَّة اليوم ـ كما فتحت الباب على مصراعيه للتطوُّر المطلق في كل شيء، فلم يبق في حياتها شيء ثابت تستند إليه، وترتكز عليه، فلا عقيدة ولا فضيلة، ولا تقليد، ولا تشريع، ولا أية قيمة من القِيَم العليا الَّتي ورثتها الإنسانيَّة من كتب السماء، وتعلَّمتها على أيدي الهُداة من رسل الله ووَرَثَتهم بحقٍّ.

وكانت ثمرة هذا التطرُّف اضطراب الحياة كلِّها: من قلق نفسي، إلى تخبُّط فكري، إلى تحلُّل خُلُقي، إلى تفسُّخ أُسري، إلى تفكُّك اجتماعي.

وقد قابل هذا التطرُّف، تطرُّف مضاد، يتمثَّل في أولئك الشباب الَّذين رفضوا تطوُّر مجتمعهم إلى ما صار إليه من مادِّيَّة وآلية، فاختاروا لأنفسهم حياة غريبة شاذَّة، تلك حياة «الهيبيِّين» ومَن على شاكلتهم. والتطرُّف لا ينتج إلَّا تطرُّفًا مثله.

متى يتعرض مجتمعنا للخطر؟

وإنما يتعرَّض المجتمع الإسلامي للخطر نتيجةً لأحد أمرين، يجب أن نحذر منهما أشد الحذر، ونحذِّر منهما كل التحذير.

الأول: أنْ يجمد ما من شأنه التغيُّر والتطوُّر والحركة، فتصاب الحياة بالعقم والجمود، وتصبح كالماء الراكد الآسن، الَّذي يجعله الركود مرتعًا للجراثيم والميكروبات.

QaradawiBooks.com

وهـذا ما حدث في عصور الانحطاط والشـرود عن هدى الإسـلام الصحيـح، فرأينا كيف توقَّف الاجتهـاد في الفقه، وتوقَّـف الإبداع في العلم، والأصالة في الأدب، والابتكار في الصناعة، والافتتان في الحرب، وغيرها.. وضربت الحياة بالجمود والتقليد في كل شيء، وأصبح المثل السائر الَّذي يعبِّر عن وجهة النظر السائدة: «ما ترك الأوَّل للآخر شيئًا».

على حيـن أخذت المجتمعـات الأخرى الراكدة تسـتيقظ وتنهض وتتطوَّر، ثمَّ تنمو وتتقدَّم، ثمَّ تزحف غازيةً مسـتعمرة، والمسلمون في غمرةٍ ساهون.

الثانـي: أنْ يخضـع للتطـوُّر والتغيُّر ما من شـأنه الثبـات والدوام والاسـتقرار، كما نرى ونسـمع فـي عصرنا الحديـث: أنَّ فِئـةً من أبناء المسلمين يريدون خلع الأمة من دينها، وعزلها عن تراثها كلِّه باسم التطوُّر.

يريدون أنْ يفتحوا الباب للإلحاد في العقيدة، والانسلاخ من الشريعة، والتحلُّل من الفضيلة. كلُّ ذلك باسم هذا الصنم الجديد «التطور».

إنَّهم يريدون أن يطوِّروا الدين نفسـه لكي يلائم ما يريدون استيراده من الشرق والغرب، من عقائد وأفكار، وقِيَم وموازين، وأنظمة وتقاليد، ومُثُل وأخلاق.

وما جعل الله الدين إلَّا ليمسـك البَشـريَّة أن تتدحرج وتنقلب على عقبها. لهذا أوجب أنْ يكون الدين هو الميزان الثابت الَّذي يحتكم إليه الناس إذا اختلفوا، ويرجعون إليه إذا انحرفوا.

أما أنْ يصبح الدين خاضعًـا لتقلُّبات الحياة وظروفها، يسـتقيم إذا استقامت، ويعوجُّ إذا اعوجَّت، فإنَّه لذلك يفقد وظيفته في حياة الإنسان.

QaradawiBooks.com

مجتمع متميز عن المجتمعات الأخرى:

بهذا كله، يظهر لنا وجه المجتمع المسلم، بَيِّن الملامح، واضح القسمات، متميزًا بهذه الفضيلة البارزة في حياته، وهي: الجمع بين الثبات ـ الَّذي يمنحه الاستقرار، فلا يتزحزح عن مبادئه، ولا يتحوَّل عن أصوله ـ وبين المرونة الَّتي يواجه بها سير الزمن، وسُنَّة التطوُّر.

فهو يجمد في بعض الأمور كالصخر، ويلين في بعض الأمور كالعجين، أو كما قال شاعر الإسلام في الهند «محمد إقبال» في وصف المسلم: «يجمع بين نعومة الحرير، وصلابة الحديد»!

ومن هنا نستطيع أنْ نتبيَّن موقف هذا المجتمع من المجتمعات الأخرى المخالفة له في العقيدة والوجهة والمبدأ.

إنَّه لا يذوب فيها، ولا يتبع أهواءها، ولا يقلِّدها ويتشبه بها فيما هو من خصائصها، فيفقد بذلك أصالته وشخصيته المتميزة، ويسير وراءها شِبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، وهذه هي التبعية الَّتي يرفضها الإسلام لأُمَّته، الَّتي بوَّأها الله مكان الأستاذية للبَشريَّة كلِّها.

ومع هذا، لا يعزل المجتمع المسلم عن غيره من المجتمعات، بل يستطيع أنْ يقتبس منها، وينتفع بما لديها من معارف وخبرات ومهارات، لا تضرُّ بكيانه المادي والمعنوي، لأنَّ «العلم المحض» وما يتفرع عنه من مكتشفات وأجهزة وأدوات ومخترعات، لا جنسية له، ولا لون له. إنَّه كالماء، يأخذ لون الإناء الَّذي يوضع فيه.

فعنصر الثبات يتجلَّى هنا في رفض المجتمع المسلم للعقائد والمبادئ والأفكار والقِيَم، والشعارات، الَّتي تقوم عليها المجتمعات

QaradawiBooks.com

الأخرى غير المسلمة وتميُّزها؛ لأنَّ مصدرها غير مصدره، ووِجْهتها غير وِجهته، وسبلها غير صراطه، فهو مجتمع متميِّز في المصدر والوجهة والمنهج، بل في السمة والشعار أيضًا.

ولهذا حرص رسول الله ﷺ على تميُّز المسلمين في كل شؤونهم عن مخالفيهم من المشركين واليهود والنصارى، فرفض البوق والناقوس للإعلام بالصلاة، واختار الأذان[1].

ووردت عبارة: «خالفوهم» في أمور كثيرة، ممَّا يدلُّ على أنَّ تميُّز المجتمع المسلم أمر مقصود للشارع.

ولهذا جاء القرآن يحذِّر الرسول ﷺ من اتِّباع أهواء الَّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، أو التأثُّر بدسائسهم ووساوسهم، فيفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

هذا في مكة، وفي المدينة قال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۞ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

(١) كما في الحديث المتفق عليه: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحيَّنون الصلاة ليس ينادى لها، فتكلَّموا يومًا في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسًا مثل ناقوس النصارى. وقال بعضهم: بل بوقًا مثل قرْن اليهود. فقال عمر: أوَلا تبعثون رجلًا ينادي بالصلاة، فقال رسول الله ﷺ: «يا بلال، قمْ فنادِ بالصلاة». رواه البخاري في الأذان (٦٠٤)، ومسلم في الصلاة (٣٧٧)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

فانظر إلى هذا التحذير من الفتنة عن بعض ما أنزل الله، لأنَّ الَّذي يرضى بالتنازل عن البعض، يوشك أنْ يفرط في الباقي.

وفي مقابل هذا الثبات نجد مرونة وسماحة من الناحية العمليَّة والتطبيقية في الحياة، ممَّا يتَّصل بالطرائق والأساليب لا بالمبادئ والأهداف.

فإذا كان لدى مجتمع غير مسلم نظام حسن في تعبئة الجيوش، أو في تنظيم المواصلات، أو في توزيع البريد، أو في تحسين الإنتاج، أو في ترقية الصناعة أو الزراعة، أو في تخطيط المدن والقرى، أو في حفظ الصحة العامَّة، ومقاومة الأوبئة، أو في تسخير القُوَى الكونيَّة بسلطان العلم لمصلحة الإنسان، أو نحو ذلك من كلِّ ما يتعلق بالجانب العلمي «التقني» والإبداع المادي، والتنظيم العملي، فالإسلام يُرحِّب به، ويحثُّ على اقتباسه في مجتمعه، بشرط ألَّا يصطدم بأحكام الإسلام، وقد جاء في الحديث: «**الحكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها**»[١].

لقد رأينا النبيَّ ﷺ، يخطب على جِذْع نخلة في أوَّل أمْره بالمدينة، فلمَّا كثر المسلمون، واستقرَّ له الأمر، استدعي له نجَّار رومي فصنع له منبرًا من ثلاث درجات، فكان يخطب عليه في الجمعة والمناسبات[٢].

وفي غزوة الأحزاب أشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة يحميها من الغزاة المشركين، وهذا من أساليب الفُرس الدفاعية، فأُعجب به ونفَّذه[٣]، ولم يقل: هذا من أساليب المجوس لا نأخذ به.

(١) سبق تخريجه صـ٢٠.

(٢) سبق تخريجه صـ٢٠.

(٣) سبق تخريجه صـ٢٠.

QaradawiBooks.com

بل رأينا الصحابة رضي الله عنهم، يقتبسون بعض التنظيمات الإدارية والمالية الصالحة من الفُرس أو الرومان أو غيرهم، ولم يجدوا بذلك بأسًا، ما دام يُحقِّق لهم مصلحة، ولا يصادم نصًّا ولا قاعدة، كما في نظام الخراج، وهو نظام فارسي الأصل، ونظام الديوان وهو نظام روماني الأصل.

العصور الذهبية:

لقد استطاع المسلمون في العصور الذهبية أن يحتفظوا بشخصيتهم الإسلاميَّة ثابتين على عقائدهم وشعائرهم وأخلاقهم وشريعتهم، وأنْ يقتبسوا مع هذا من مدنيَّات الفُرس والروم والهنود وغيرهم من القدماء ما ينفعهم ويلائم أوضاعهم، وأنْ ينتفعوا بتراث الإغريق «العلمي» بعد أنْ عرَّبوه وهذَّبوه وأضافوا إليه. وأيَّد ذلك فقهاؤهم وأئمَّة دينهم ـ بل ساهموا وشاركوا فيه ـ ولم يتوقَّفوا إلَّا فيما رأوه معارضًا لعقيدتهم وفكرتهم عن الله والوجود، أو لمنهجهم الفكري، وذلك يتمثَّل في الجانب «الميتافيزيقي» من الفلسفة الإغريقية كما تمثَّل في «منطق أرسطو» الَّذي عارضه جماعة من أكابر العلماء مثل ابن الصلاح والنووي وابن تيمية، الَّذي ألَّف في نقضه كتابين: صغيرًا وكبيرًا، وسبق بهذا النقض العصر الحديث، الَّذي أقام نهضته على الاستقراء لا على القياس الَّذي هو محور المنطق الأرسطي.

على أنَّ من فقهاء المسلمين مَن نصر هذا المنطق وتبنَّاه، واجتهد أنْ يستدلَّ على صحته من آيات القرآن مثل أبي حامد الغزالي الَّذي سمَّاه «معيار العلوم».

والمهم أنَّ المسلمين كانوا في غاية من المرونة أمام الجانب العلمي والعملي ـ التقني بتعبير عصرنا ـ وكذلك الجانب الإداري والتنظيمي

QaradawiBooks.com

والعمراني والصناعي، ولم يجدوا أيَّ حَـرَج دينيٍّ في اقتباس ذلك من غيرهم، والزيادة عليهم، والتفوُّق فيه ما استطاعوا.

بخلاف الأمور الأخرى المتصلة بالفكرة والعقيدة، فقد رفضوا هذا الجانب من فلسفة الإغريق وخطَّؤوا مَن اعتنقه أو أيَّده من الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام، بل كفَّرهم الغزالي وغيره في مسائل معروفة خالفوا فيها المعلوم من الدين بالضرورة، كما يتضح ذلك من كتابه «تهافت الفلاسفة» وإن ردَّ عليه العالِم الفيلسوف القاضي ابن رشد في كتابه «تهافت التهافت».

ولقد ذكرنا في الفصل الأوَّل «الدين في عصر العلم» كيف أثبت مؤرخو الحضارة الإسلاميَّة: أنَّ المنهج العلمي الحديث الَّذي يتميَّز به العرب قد اقتُبِس من المسلمين، الَّذين سبقوا إلى اكتشاف هذا المنهج كاملًا قبل نهضة أوربا بعدَّة قرون. وقد شهد بذلك جورج سارتون، وجوستاف لوبون، وبريفولت وغيرهم من الغربيِّين المنصفين.

وما زال تاريخ العلم يحتفظ بأسماء لامعة لعلماء مسلمين في الطبِّ والكيمياء والفيزياء والفلك وغيرها. كما يحتفظ بأسماء كُتُب علميَّة، ظلَّت مراجع عالميَّة فذَّة في موضوعها لعدَّة قرون[1].

كلمة أخيرة:

إنَّ دعاة الحل الإسلامي لا يعادون التطوُّر، ولا يقفون في سبيله، بل يباركونه ويدعون إليه بكلِّ قوَّة، ويعملون على أنْ تأخذ مجتمعاتهم مكانها في موكبه السائر إلى الأمام.

(١) انظر كتابنا: الخصائص العامة للإسلام صـ ٢١٧ وما بعدها، فصل: دلائل الثبات والمرونة في مصادر الإسلام وأحكامه.

QaradawiBooks.com

ولكنَّهم يريدونه تطوُّرًا محكومًا بقِيَم الإسلام ومبادئه وأحكامه الثابتة، ومن هنا يقولون دائمًا للذين يطالبون الإسلام أنْ يتطوَّر: لماذا لا تطالبون أنتم التطوُّر أن يُسْلِم؟! فالإسلام حاكم، والتطور محكوم عليه، والمتبوع لا ينقلب تابعًا، والميزان لا يصبح موزونًا، فهذا قلب للأوضاع والحقائق.

فليس من اللائق أنْ ننادي بـ «إسلامٍ متطور»، إنَّما اللائق ـ بل الواجب ـ أن ننادي بملء أفواهنا بـ «تطوُّرٍ مسلم».

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أصالة لا رجعيَّة.. وتحديث لا تغريب

كما اتَّهم بعضُ الناس الحلَّ الإسلامي بالجمود الَّذي ينافي التطوُّر، نجد هؤلاء أنفسهم يصمون هذا الحل بتهمة أخرى تُذكر عادة مع الجمود، وهي «الرجعيَّة».

وهي كلمة حديثة العهد يستخدمونها بدل كلمة «السلفيَّة» الَّتي لا تعطي انطباعًا منفرًا لدى الجمهور المسلم كما تعطيه كلمة «الرجعيَّة».

ومن عادة هؤلاء ـ بل من مكرهم ـ أن يَدَعوا هذه الألفاظ والمفاهيم مائعةً غير محدودة، كما رأينا في مفهوم «الجمود» و«التطوُّر» ليُفَسِّروها كما يحلو لهم.

ولهذا كان من واجبنا أنْ نبدأ هنا كما بدأنا هناك بتحديد المفاهيم أولًا.

ما مفهوم الرجعيَّة؟

نريد أنْ نسألهم: ما مفهوم «الرجعيَّة» و«التقدميَّة» عندكم؟

إنْ كنتم تريدون بالرجعيَّة ما شاع في عصور الضعف والانحطاط من أفكار وقِيَم دخيلة على الحياة الإسلاميَّة والمجتمع الإسلامي، من جبرية قاتلة تحمل كل شيء على القضاء والقَدَر، ومن سلبية تدع الأمور تجري

غير مرخص للطباعة
نسخة تجريبية

في أعنَّتها، ومن احتقار للحياة، ورضا بالدون، والعيش الهون، ومن صبر على الظلم، وانصراف عن الجهاد، ومن تعظيم للفئات الغنيَّة المترفة، وتحقير للطبقات الفقيرة العاملة، ومن إيمان بالخرافة، وتصديق بالعرافة والكهانة، والسحر، واتِّباع للدجاجلة المحتالين من أدعياء التقوى، الَّذين يُعلِّمون أتباعهم: أنَّ المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل، ويقولون لكلِّ ثائر على الباطل: «دع المُلْك للمالك»، «أقام العبادَ فيما أراد»! إن كنتم تريدون بالرجعيَّة هذا ومثله، فنحن معكم في معارضتها، بل أسبق منكم إلى حربها. ولكن الَّذي نُؤكِّده لكم: أنَّ هذه الأفكار والمفاهيم إن هي إلَّا جراثيم غريبة تسلَّلت إلى جسم الإسلام، أدخلتها المذاهب المبتدِعة، والفِرَق الضالَّة، والصوفيَّة المنحرِفة، الَّتي تأثَّرت ـ قصدًا أو عن غير قصد ـ بأديان ونِحَل وفلسفات غير إسلاميَّة، كالرهبانيَّة المسيحيَّة، والمانويَّة الفارسيَّة، والبرهميَّة الهنديَّة وغيرها.

وقد ساعد على انتشار بعض هذه الأفكار فجور بعض الحكام أو جهلهم أو ضعفهم، وممالأة بعض العلماء أو سكوتهم، خوفًا أو طمعًا، أو ضعفًا أو غفلة، وفي الأثر: «**صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس: الأمراء والفقهاء**»[1].

ويوم كان الإسلام إسلامًا، وكان المسلمون مسلمين حقًّا، برئ مجتمعُهم من هذه الأفكار المنحرفة، وعاش المسلمون سادة يَغْلِبون ولا يُغلَبون، ويقودون ولا يقادون، وتفتَّحت عليهم بركات من السماء والأرض، وأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ووطئت سنابك خيولهم ممالك الأكاسرة والقياصرة، وورثوا كنوزهم فأنفقوها في سبيل الله.

(١) رواه تمام في الفوائد (١٥١٦)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١١٠٨)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

الرجعيَّة والتراث:

سيقول بعضهم: «الرجعيَّة هي الرجوع إلى الخلف، إلى الماضي، إلى الأموات»!

والحلُّ الإسلامي ينادينا في أواخر القرن العشرين أنْ نعود أربعة عشر قرنًا إلى الوراء، إلى القرن السابع، إلى عصر أبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ، إلى عصور الأمويين والعباسيين والمماليك والعثمانيين.

الحلُّ الإسلامي يشدُّنا بقوة إلى التراث، إلى الماضي، بما فيه من تعصُّب ديني، وانغلاق فكري، واستبداد سياسي، وتظالُم اجتماعي، وتأخُّر اقتصادي.

الحلُّ الإسلامي بصراحة، يقف في وجه «تحديث» المجتمع، ونقله إلى عالم اليوم، أواخر القرن العشرين!

ونحن نريد أنْ نعيش يومنا، ونحيا في عصرنا: عصرِ العلم والتكنولوجيا، عصرِ الذَرَّة والعقول الإلكترونية وغزو الفضاء، لا في عصر الجمال وقناديل الزيت! نريد أنْ نعيش مع الأحياء لا في مقابر الموتى! نريد أنْ نحيا مع الجديد المتحرِّك، لا في القديم المتحجِّر، نريد أنْ ننظر إلى الأمام، أنْ نتطلع إلى المستقبل، لا أنْ نمشي ونحن نتلفَّت دائمًا إلى الوراء! وهذه هي «التقدُّميَّة» الَّتي ندعو إليها ونحرص عليها: تقدُّميَّةُ العلم والقوَّة والرخاء والحُرِّيَّة والمعاصرة!

أهميَّة التراث لأُمَّتِنا:

هذا هو كلام هذه الفئة الَّتي تخلع على نفسها رداء «التقدميَّة»، وباسمها تريد أنْ تنسلخ من تراثها، وتبرأ من ماضيها، كأنما هي مبتوتة

QaradawiBooks.com

الجذور، ليس لها تاريخ. كل حديثها عن اليوم والغد. كأنَّ الزمن ليس فيه «أمس»! وكأن اللغة ليس فيها «فعلٌ ماضٍ»! وكأنَّ الله لم يخلق الإنسان مزوَّدًا بذاكرة تستوعب أحداث الماضي، كما خلق له مخيلة تستشف المستقبل!

هؤلاء الَّذين قال فيهم شوقي:

مَثَلُ الْقَوْمِ نَسُوا تَارِيخَهُمْ كَلَقِيطٍ عَيَّ فِي الْقَوْمِ انْتِسَابَا
أَوْ كَمَغْلُوبٍ عَلَى ذَاكِرَةٍ يَشْتَكِي مِنْ صِلَةِ الْمَاضِي انْقِضَابَا[1]

وعيب هؤلاء «التقدُّميين» ـ فيما يزعمون ـ أنَّهم يجهلون تراثهم ولا يعرفون عنه إلَّا قشورًا، أو أجزاء متناثرة مشوشة، كثيرًا ما أخذوها عن مراجع استشراقية، أو عن مراجع غير موثقة، أو عن مراجع لا يفهمون لغتها، ولا يميِّزون بين المقبول فيها والمردود.

وكان الأولى بهؤلاء ـ وهم ينتمون إلى فئة المثقَّفين ـ أن يبذلوا بعض الجهد في دراسة تراثهم، ومعرفة هذا الدين الَّذي ورثوه عن أهليهم. كما تورث العقارات! والذي أدخل هذه الأمة التاريخ من أوسع أبوابه، وصنع لها حضارة بزَّت الحضارات، ومن أوَّليات الثقافة أنْ يدرس المرء المكونات الأساسيَّة لشخصية أمته، وأولها الدين المؤثر الأوَّل في تفكيرها ووجدانها وسلوكها. على أنْ يعرف ذلك من منابعه الصافية، ومن مصادره الصحيحة لا من مراجع خصومه أو المتحاملين عليه، أو الجاهلين به.

لقد جهل هؤلاء تراثهم ـ والدين جزء منه ـ فخافوه وعادوه. وقديمًا قالوا: مَن جهل شيئًا عاداه. وهذا ما ذكره القرآن عن موقف

(١) أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١٩/٢)، نشر دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

المشركين من الإسلام فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

كما أنَّهم قرؤوا عن الغربيِّين أنَّهم لم ينهضوا إلَّا بعد أنْ تحرَّروا من تراثهم، وفكُّوا عن رقابهم رِبقة الماضي بما فيه من عوائق وأغلال. ومن ذلك تحرُّرهم من رِبقة الدين، وسيطرة رجاله الَّذين باركوا ظلم الملوك، وتسلُّط الإقطاع، وأقاموا محاكم التفتيش لتعذيب العلماء والمفكرين.

وحسِب هؤلاء أنَّ ماضينا كماضيهم، وتراثنا كتراثهم، وأنَّ لدينا كنيسة مثل كنيستهم وكهنوتًا مثل كهنوتهم، وأنَّ عندنا مَن يصدر قرارات الحرمان، أو مَن يبيع صكوك الغفران!

وإنَّ من أظلم الظلم أنْ يؤخذ الإسلام في الشرق، بجرائم الكنيسة في الغرب، وأنْ يُقاس تاريخنا على تاريخ القوم هناك، وأنْ يُحكم بالإعدام على تراثنا من أجل جناية تراث آخر لقوم آخرين.

ثم إنَّ هؤلاء يتوهَّمون أنَّ الرجوع إلى التراث يجعلنا سجناء الماضي، يضع قيدًا على حركتنا وانطلاقنا إلى الأمام.

والواقع أنَّ تراثنا ليس ـ كما تصوَّره هؤلاء ـ قيدًا في الأرجل، أو غِلًّا في الأعناق، إنَّما هو منارة تهدي، ونور يُضيء.

خصائص تراثنا:

إنَّ التراث الَّذي ندعو إليه ليس تراث أُمَّة بدائية أو جماعة خرافية، وليس تراثًا مغلقًا ولا متعصبًا، بل هو تراث رسالة خالدة، وحضارة ضخمة، وأمة كبرى. تراث أُمَّة عالَمية، جمعت بين العلم والإيمان،

QaradawiBooks.com

ووصلت الأرض بالسماء. تراث يَتَّسم بهذه الخصائص، الَّتي لا تخفى على دارس متعمِّق منصف، مسلمًا كان أم غير مسلم:

(أ) **الإنسانيَّة**: فهو ـ وإنْ كُتِب بالعربيَّة، وانطلق من المفاهيم والقِيَم الإسلاميَّة ـ تراث إنساني، يهدف إلى تحرير الإنسان، ويعمل على كرامة الإنسان، كلِّ إنسان، ويطالب له بالحقوق، كما يطالبه بالواجبات. يحفظ له حريته المدنيَّة، كما يحفظ له حريته الدينيَّة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، شعاره: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

(ب) **الأخلاقيَّة**: فهو تراث يؤمن بالقِيَم، في كلِّ جوانبه، فقهًا كان أو أدبًا أو علمًا أو فنًّا، أو عمارةً وحضارة، ولا يؤمن بفصل الأخلاق عن العلم، ولا عن الفن، ولا عن السياسة، ولا عن الاقتصاد، ولا عن الحرب، فهو تراث يُعبِّر عن رسالة هدفها أنْ تُتمِّم مكارم الأخلاق.

(جـ) **التكامل**: فهو يجمع بين أحكام الوحي الإلٰهي ونتاج العقل البشري، وفي ظلِّه الْتقى العلم والإيمان، وامتزجت الدنيا بالدين، واتَّصلت الشريعة بالحكمة، ولم ينفصم قلب عن فكر، ولا روح عن مادة، ولا دين عن دولة، ولا أدب عن علم، ولا عقل عن نقل.

(د) **التوازن**: فهو تراثٌ وَسَط لأُمَّة وسط، لا يقف في طرف ضدَّ طرف، فهو ليس تراث المثاليِّين ضدَّ الواقعيِّين، ولا الواقعيِّين ضدَّ المثاليِّين، وليس تراث الروحيِّين وحدهم، ولا الماديِّين وحدهم، إنَّه تراث التوازن بين المثاليَّة والواقعيَّة، بين الرُّوحيَّة والمادِّيَّة، بين الفرديَّة والجماعيَّة، فهو في أُسُسه وأصوله يُمثِّل وَسطيَّة الإسلام.

QaradawiBooks.com

(هـ) **التنوُّع**: فهو تراثٌ ديني ودنيوي، فقهي وصوفي، علمي وأدبي، فلسفي وتطبيقي، وفَنِّي وعمراني، نجد فيه فقه الشافعي، ورواية البخاري، وتفسير الطبري، وكلام الأشعري، ومعجم الخليل، ونحو سيبويه، وأدب الجاحظ، وشعر المتنبِّي، وفلسفة ابن رشد، وتصوُّف الغزالي، وطبَّ ابنِ سينا، وفيزياء ابن الهيثم، وألحانَ المَوْصلي، وخطَّ ابن مُقْلة، وتحليل ابن خلدون، جنبًا إلى جنب.

(و) **التسامح**: فهو وإن كان تراثًا إسلاميًّا ـ أنتجته العقول الإسلاميَّة بدوافع إسلاميَّة، على أرض إسلاميَّة ـ يتَّسع لكلِّ الأديان، ويؤمن بكلِّ الكتب الَّتي أنزلها الله، وبكلِّ الرسل الَّذين بعثهم الله. كما يؤمن بأنَّ اختلاف الناس واقع بإرادة الله، وسيحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، ولا غرو أنْ شاركت فيه فئات من غير المسلمين، وسعتهم دار الإسلام، وحضارة الإسلام.

(ز) **المرونة**: فهو ـ برغم أصوله الدينيَّة، وجذوره الأخلاقيَّة ـ قادر على مواجهة التطوُّر، وفيه من الثراء والخصوبة الداخليَّة ما يجعله صالحًا للنماء والتجدُّد الذاتي، جامعًا بين الثبات على الأصول والغايات، والمرونة في الفروع والوسائل.

نحن والتراث:

وأحبُّ أنْ أبيِّن هنا أنَّنا ـ نحن دُعاة الحل الإسلامي ـ لا ندعو إلى تقديس التراث كلِّه، وأخْذه بُعجَره وبُجَره، وصوابه وخطئه. ولهذا كان لا بدَّ لنا من تحديد معنى «التراث».

فكلمة «التراث» تشمل مجالين أو مستويين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافًا كليًّا وجذريًّا.

QaradawiBooks.com

المستوى المعصوم من التراث:

المستوى الأول: ما كان مصدره الوحي الإلٰهي متمثلًا في القرآن الكريم الَّذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٢]، وفيما ثبتت صحَّته من سُنَّة النبي ﷺ الَّتي هي البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن.

ونعني بهذا المجال، ما كان قطعي الثبوت والدلالة من كتاب الله وسُنَّة رسوله، ولا مجال فيه لاجتهاد أو تفسير. ولذا يعتبر رفضه رفضًا للدين نفسه، وكان التمرد عليه تمردًا على شرع الله جَلَّ شأنه.

فهذا لا يسعنا إلَّا أنْ نُذعن له، وننقاد إلى حكمه، راضين مُسَلِّمين، بمقتضى عقد الإيمان، وحكم الإسلام، وليس لنا أمامه خيار، إلَّا إذا راجعنا أصل الإيمان ذاته.

وهذا ما يُؤكِّده القرآن بصراحة وقوة في الكثير من آياته. لنقرأ هذه الآيات: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وهذا الجانب من التراث هو الَّذي يمثِّل فلسفة النظام، وأساس مشروعيَّته العليا، ويحدِّد إطاره وأسسه العامَّة، واتِّجاهاته الأساسيَّة في مختلف جوانب الحياة.

QaradawiBooks.com

وتسمية هذا الجانب «تراثًا» من باب التساهل والاتساع في التعبير. وإلَّا، فإنَّ الإسلام ليس تراثًا ولا ماضيًا، إنَّه الماضي والحاضر والمستقبل. وهو رسالة الله العامَّة الخالدة، الَّتي تخاطب الإنسان وتهديه في كلِّ زمان ومكان.

المستوى البَشري من التراث:

والمستوى الآخر من التراث: هو المستوى البَشري، وهو يمثل عمل العقل الإنساني في فهم الجانب الإلٰهي المعصوم من التراث، وفي شرحه وتفسيره، والاستنباط منه، وفي تطبيقه وتنفيذه، وفي شتَّى جوانب الحياة العقليَّة والأدبية والحضارية، وهذا المستوى يضمُّ كلَّ علوم الدين من التفسير وعلوم القرآن وعلوم الحديث والفقه وأصوله، وعلم التوحيد، والتصوف.. فهذا الجانب من التراث له أهميته ومكانته الخاصَّة لاتصاله بعقيدة الأمة، وسرِّ وجودها، ووحي الله إليها. كما يشمل علوم العربيَّة وآدابها وهي خادمة لعلوم الدين ووسيلة لفهمها.

ويشمل أيضًا العلوم العقليَّة وما يتعلق بها، والعلوم الكونيَّة من الطبِّ والكيمياء والفيزياء والرياضيات ونحوها، والعلوم المتعلِّقة بالفنِّ والجمال والتعبير عنه.

فهذه كلُّها ـ على تفاوت مراتبها ـ تراث إسلامي، وهي ـ على كلِّ حالٍ ـ إنتاجُ عقول لم تُضْمَنْ لها العصمة من خالقها، ففيها الصواب والخطأ، وفيها الحقُّ والباطل، وفيها الجِدُّ والهزل، وفيها الثمين والغثُّ.

ضرورة الانتقاء:

وموقفنا هنا هو موقف الانتقاء والاختيار. وهذا يعني قبول التراث ـ وبخاصَّة ما يتعلَّق بالدين والعربيَّة منه ـ في جملته لا في تفصيلاته، في

QaradawiBooks.com

مجموعه لا في جميعه، وبعد هذا القبول والتسليم العامِّ تبدأ عمليَّة الانتقاء والاختيار.

والانتقاء هنا ليس عملًا عشوائيًّا تأتي به المصادفات، والاختيار ليس اختيار تشهٍّ أو هوًى، تحكمه الانفعالات العاطفية، أو المواقف الشخصية، بل هو عمل عقلي يستند إلى موازين علميَّة وإلى أدلَّة من أصول الشرع، ومصالح الأمَّة، وحاجات العصر.

وليس من حقِّ أحدٍ ولا فئةٍ ولا مدرسةٍ أنْ تفرض علينا فكرةً أو رأيًا أو حكمًا معيَّنًا ممَّا حفل به التراث الغني، وأنْ تضرب بغيره عرض الحائط.

فموقف كلِّ عالِم أو مفكر هنا، هو موقف أبي حنيفة رضي الله عنه حين قال في شأن مَن سبقه ومَن عاصره من علماء التابعين: هم رجالٌ ونحن رجال[1]!

وهو موقف ابن القيم رحمه الله حين شرح رسالة شيخ الإسلام إسماعيل الهروي الأنصاري في التصوف «منازل السائرين إلى مقامات إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين»، وكان الهرويُّ حنبليًّا موافقًا لابن القيِّم في مشربه السَّلَفي في الأسماء والصفات، ولكنَّه خالفه وانتقده في جملة مواضع من كتابه «مدارج السالكين»، فلمَّا سُئِل في ذلك قال: شيخ الإسلام حبيب إلينا، ولكن الحقَّ أحبُّ إلينا منه[2]!

(١) رواه ابن عبد البر في الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء صـ ١٤٤، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) انظر: مدارج السالكين (٣٨/٢)، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

قد يكون هذا الرأي الَّذي نتبنَّاه لإمام مشهور، أو لعالم مغمور، فلن تزيده شهرة الأول، ولا ينقصه خمول الآخر، وقد قال الإمام عليٌّ رضي الله عنه: لا تعرف الحقَّ بالرجال، اعرف الحقَّ تعرف أهله[1].

وقد يكون هذا الرأي الَّـذي ننتقي ونختار من الآراء المهجورة، ممَّا طوته بطون الكتـب، وممَّا اعتُبِر في عصره شـاذًّا أو متروكًا، فلا جُناح علينا أنْ ننشر المهجور، ونُحيي المقبور.

فرُبَّ ملابسـات جدَّت، ووقائـع نزلت، وأعـراف تغيَّرت، جعلت الضعيف يقوى، والمتروك يظهر، والشاذَّ يصبح هو الموافق والملائم.

وها هو شـيخ الإسـلام ابن تيميـة وتلاميـذه: ابن القيـم، وابن عبد الهـادي، وغيرهما يحيون آراء فـي فقه الشـريعة ـ وخصوصًا في الطلاق وشؤون الأسرة ـ كانت تُعَدُّ قبلهم شاذة، وقد هُجِرت حتَّى ماتت، فمـا زالوا يجادلـون عنها باللسـان والقلم في دروسـهم وفـي كتبهم ورسائلهم، وفتاويهم، حتَّى حيت بعد موات، واستعلنت بعد اختفاء.

وقد اتهم العلماء المقلِّدون والجامدون الشيخ في زمنه بأنَّه خرج عن المذاهب الأربعة، وخرق الإجماع السـابق، وكادوا له عند ذوي السُّلطة حتَّى أدخل السجن أكثر من مرَّة من أجل رأيه، ومات رضي الله عنه في سجنه.

وها نحن اليوم في كثير من أنحاء العالَم الإسلامي نختار ما اختاره، ونرجِّح ما رجَّحه في عدم وقوع طلاق الغضبان، والطلاق الَّذي يُراد به الحمل على شيء، أو المنع منه، وفي وقوع طلاق الثلاث بلفظٍ واحدٍ أو في مجلس واحـد طلقة واحدة، وغير ذلك من الاجتهادات والاختيارات.

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي صـ ٧٤، نشر دار الفكر، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

ومن ثَمَّ ينبغي أنْ نبحث عن أجود الآراء، وأقوم الأفكار، وأصح المعلومات، وأجمل التعبيرات، حيثما وجدناها في تراثنا العريض.

عبقريات في عصور التخلف:

قد نجد الرأي الجيد، والفكرة الصالحة، والتعبير الجميل، في خير قرون هذه الأمة، في فجر الإسلام، في عصر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، في العصر الأموي أو العباسي، في العصور الذهبية للحضارة الإسلاميَّة أو في عصور التخلف والركود ذاتها، على ما بها من علل وأوصاب. فما من عصرٍ من هذه العصور إلَّا طلعت في سمائه كواكب تضيء وتسطع وتبهر الأبصار. وصدق الحديث النبوي القائل: «**مثل أمتي كالمطر، لا يُدرى أوله خير أو آخره**»[1].

ومن ذا الَّذي يجهل مثل أبي إسحاق الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ) وتجديده في أصول الفقه؟ وابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ) وتجديده في فلسفة التاريخ والاجتماع، وابن الوزير (ت: ٨٤٠هـ) وتجديده في علوم العقيدة والسُّنَّة، وابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) وخدمته لعلوم الحديث والرجال، ووقوفه حَكمًا بين المذاهب، والسُّيوطي (ت: ٩١١هـ) وخدمته لعلوم الدين واللغة والتاريخ ودعوته للاجتهاد المطلق، والدهلوي (ت: ١١٧٦هـ) وتجديده في الحديث والفقه وبيان أسرار الشريعة، والصنعاني (ت: ١١٨٢هـ) صاحب «سبل السلام» واجتهاداته واستقلاله في الفقه واتِّباع الدليل والتفقه على القرآن والحديث، والشوكاني (ت: ١٢٥٥هـ) وتجديده في الفقه والأصول وبناء فقه قائم على الدليل لا على التقليد،

(١) رواه أحمد (١٢٣٢٧)، وقال مخرِّجوه: حديث قويٌّ بطرقه وشواهده. والترمذي في الأمثال (٢٨٦٩)، وقال: حسن غريب. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٢٨٦)، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

وصدِّيق حسن خان (ت: ١٣٠٧هـ) تلميذ كتب الشوكاني، والسائر على دربه في الاجتهاد والترجيح؟

الحكمة ضالة المؤمن:

بل أقول: قد تكون الفكرة أو الحكمة أو الكلمة من شعر امرئ القيس، أو زهير بن أبي سلمى، أو عنترة العبسي، فلا يمنعنا أَنْ نتمثَّل بها أنَّهم من أهل الجاهلية، فالجاهلي قد يوفَّق فينطق بالحكمة، كما أنَّ المسلم قد يزيغ فيتكلَّم بالباطل. والنبيُّ ﷺ قال: «**أصدقُ كلمةٍ قالها شاعرٌ، كلمةُ لَبِيد:**

أَلَا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ بَاطِلُ»[(١)]

وقد قالها في جاهليَّته قبل أن يسلم.

ومَن منَّا لا يتمثَّل بقول امرئ القيس:

وحَسْبُكَ مِنْ غِنًى شِبَعٌ وَرِيُّ[(٢)]**!**

أو بقول زُهَيْر:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ[(٣)]

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٨٤١)، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦)، عن أبي هريرة. وانظر: ديوان لبيد صـ١٣٢، نشر دار صادر، بيروت.

(٢) انظر: الأمثال لابن سلام الجمحي صـ ١٦٧، تحقيق الدكتور عبد المجيد قطامش، نشر دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م. وديوان امرئ القيس صـ ١٩٥، عناية عبد الرحمٰن المصطاوي، نشر دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

(٣) قاله في معلقته، انظر: شرح القصائد السبع لابن الأنباري صـ ٢٨٩، تحقيق عبد السلام هارون، نشر دار المعارف، سلسلة ذخائر العرب (٣٥)، ط٥، وديوان زهير صـ ٧٠، شرح حمدو طماس، نشر دار المعرفة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

أو بقول السموءل، وهو يهودي جاهلي:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنْ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ[١]

وأبو نُوَاس على مجونه كم استشهد العلماء والمربون والمتصوِّفة بأبياتٍ له مثل قوله:

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ

وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ، وَابْنُ هَالِكٍ وَذُو نَسَبٍ فِي الْهَالِكِينَ عَرِيقُ[٢]

ومثل ذلك بشَّار بن بُرْد، على ما اتُّهم به من الزندقة، مَن ذا الَّذي لا يروي قوله:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَذَى ظَمِئْتَ، وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ؟

ومَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى الْمَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ[٣]**؟!**

الاستفادة من كلِّ المدارس الفِكْرِيَّة:

كما أحبُّ أنْ أُؤكِّد هنا: أنَّ اختلاف المذاهب، أو المدارس الفقهيَّة، أو الكلاميَّة لا يمنع من الاستفادة ممَّا عند الآخرين، فالحقُّ لا يشتمل عليه مذهب واحد، ولا مدرسة واحدة.

وخطأ إنسان في ناحية، لا يعني إلغاء نواحيه الإيجابيَّة الأخرى.

وقد رأينا علماء أهل السُّنَّة جميعًا يستفيدون من «تفسير الكشاف»

---

(١) انظر: ديوان السموءل صـ ٦٧، تحقيق د. واضح الصمد، نشر دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

(٢) ديوان أبي نواس برواية الصولي صـ ٧١٤، تحقيق الدكتور بهجت عبد الغفور الحديثي، نشر هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط١، ٢٠١٠م.

(٣) ديوان بشار (٣٢٦/١)، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، نشر وزارة الثقافة الجزائرية.

QaradawiBooks.com

للزمخشري، وينقلون عنه وهو معتزلي صريح في اعتزاله، ولا يدَع مناسبة يؤيد فيها مذهبه إلَّا فعل. ومع هذا أخذ منه كلُّ مَن بعده من المفسرين: الرازي والبيضاوي والنسفي وغيرهم.

ولم يمنعهم ذلك أنْ يردُّوا عليه، أو يتعقَّبوه في مؤلفاتهم «التفسيرية» أو غيرها، أو في مؤلف خاص كما فعل ابن المنيِّر في كتابه «الانتصاف من الكشَّاف» وهو مطبوع على هامش الكشاف.

وابن حجر خرَّج أحاديثه، وبيَّن مقبولها من مردودها في كتاب سمَّاه «الكافي الشاف في تخريج الكشاف» وقد سبقه إلى ذلك العلامة جمال الدين الزيلعي صاحب «نصب الراية لأحاديث الهداية».

وابن تيمية وابن القيم استفادا من بعض ما كتبه المعتزلة في الحُسن والقُبح وأفعال العباد ونحوها. وأخذا ببعضه، ولم يُسلِّما بكل ما قاله الأشاعرة هنا، بل أخذوا منهم وردُّوا عليهم.

وفي هذا المعنى يقول ابن القيم: «وأرباب هذه المذاهب مع كلِّ طائفة منهم خطأ وصواب. وبعضهم أقرب إلى الصواب، وبعضهم أقرب إلى الخطأ، وأدلَّة كلٍّ منهم وحججه إنَّما تنهض على بطلان خطأ الطائفة الأخرى، لا على إبطال ما أصابوا فيه...

وأهل السُّنَّة وحزب الرسول وعسكر الإيمان، لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، وهم مع أولئك فيما أصابوا فيه. فكلُّ حقٍّ مع طائفة من الطوائف، فهم يوافقونهم فيه وهم براء من باطلهم، فمذهبهم جمع حق الطوائف بعضه إلى بعض، والقول به ونصره.. ونفي باطل كل طائفة من الطوائف وكسره...»[1] اهـ.

(١) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل صـ ٥١ ـ ٥٢، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

QaradawiBooks.com

إحياء التراث:

وهذا يقتضي منَّا أنْ نعمل على إحياء التراث. ونشر كنوزه نشرًا علميًّا عصريًّا محققًا يقرِّب الانتفاع به، والاقتباس منه، وألَّا ندعه مطموسًا مبعثرًا في مكتبات الغرب والشرق، على حين نفتِّش على فلسفات وآداب عند هؤلاء وأولئك ممَّا نبت في أرض غير أرضنا لقوم غير قومنا.

والأوْلَى لمن يملك رصيدًا في مصرف أنْ ينفق منه أولًا قبل أنْ يمدَّ يده إلى غيره يسأله صدقة أو هبة أو قرضًا!

ولا يكفي أنْ نقف عند نشره وتحقيقه ثمَّ التغني به، والمباهاة بأصالته، بل لا بدَّ أنْ نحلِّله وندرسه دراسة الفاحص الناقد، حتَّى نكشف عن جواهره، ونستخرج روائعه، ونستفيد من إيجابيَّاته، ونتفادى سلبيَّاته.

ولا بدَّ لنا أنْ نبني عليه، ونضيف إليه، ونضفي عليه من روحنا، ممَّا صنعته عقولنا، ممَّا عملته أيدينا، حتَّى يعبِّر عنا، ويلبس ثوب عصرنا، ويتجاوب مع حياتنا، مع زماننا ومكاننا وحالنا.

وبهذا نجمع بين الأصالة والمعاصرة حقًّا. فلا نبخس الماضي، ولا نجور على الحاضر. فهل ينقم علينا منصف هذا الموقف من تراثنا؟ أم يراد منَّا لكي نكون عصريِّين أن نُهِيل التراب على الماضي بكل ما فيه، ونبدأ من جديد، من الصفر، بحجة أنَّنا نعيش مع الأحياء لا مع الأموات؟

فليت شِعري هل تموت الأفكار بموت أصحابها؟ إنَّ الأشخاص يموتون، ولكن أفكارهم لا تموت، ورُبَّ فكرة مضت عليها آلاف السنين يأتي مَن يحييها ويحيي بها أُمَّة بأسرها. ولولا أنَّ اللاحق يكمل ما بدأه

QaradawiBooks.com

السابق، ويبني على ما أسَّسه، ما تقدَّمت العلوم، ولا ارتقى العمران، ولا علا صرح الحضارة.

والذين يقولون: دعونا من الأموات، لا يفتؤون يتحدَّثون عن أموات آخرين مثل ماركس وإنجلز، أو فولتير وروسو، أو ديكارت وكانت، أو شكسبير وهوجو، بل عن سقراط وأفلاطون وأرسطو، ويعتبرون أنفسهم مع هذا معاصرين ومجددين!

بين القديم والحديث:

ولا بدَّ لنا من كلمة هنا حول ما سمِّي «القديم» و«الحديث» وموقف الناس منهما.

ما القديم؟ وما الحديث؟ وما القِدَم؟ وما الحداثة؟ ولماذا يرفض بعض الناس القديم لمجرَّد قِدَمه؟ ولماذا يتعلَّق آخرون بالحديث ويدعون إليه لمجرَّد حداثته؟

والواقع أنَّ قضية القديم والحديث والمفاضلة بينهما قضية شغلت الناس منذ زمن بعيد. فمن الناس مَن يستمسك بالقديم، ويعتزُّ به، ولا يحيد عنه، ولا يفرِّط فيه، كأنه يرى فيه أصوله وجذوره الممتدة، ومنهم مَن يعشق الحديث ـ أي حديث ـ ويباهي به ولا يرضى به بديلًا، كأنما يرى فيه فرعه وثماره.

تعظيم السابقين للقديم:

ولقد كان الناس منذ عدة قرون يمجِّدون القديم، ويباهون به، فالقديم في نظرهم يعني الأصالة والعراقة والمجد، والقدماء هم السابقون إلى

QaradawiBooks.com

كلِّ خير، المتفوِّقون في كل فنٍّ، والمتأخرون عالة عليهم، سواء في العلم أو الأدب أو الفن. وفي الشِعر قرأنا قولهم:

مَـا أَرَانَـا نَقُـولُ إِلَّا مُعَـارًا أَوْ مُعَادًا مِـنْ قَوْلِنَا مَكْـرُورَا[١]!

أمَّا الحديث فكان في حاجة إلى أن يثبت وجوده حتَّى يُعترف له بمجاراة القديم، وكان النوابغ والعباقرة يحاولون ـ بشتَّى الوسائل ـ بأنْ يبرِّروا نبوغهم، كما كان الأوائل قبلهم، وإنْ تأخَّر بهم الزمن عنهم. وخصوصًا بعد ما شاع قول بعضهم: ما ترك الأوَّل للآخر شيئًا! وأنشد بعضهم[٢]:

أَوَمَـا تَـرَى أَنَّ النَّبِـيَّ مُحَمَّـدًا فَـاقَ الْبَرِيَّةَ وَهْوَ آخِرُ مُرْسَـلِ؟!

وأبو العلاء حينما قال في «لاميَّته» بيته المشهور:

وَإِنِّـي وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيـرَ زَمَانُهُ لَآتٍ بِمَا لَمْ تَسْـتَطِعْهُ الْأَوَائِلُ[٣]!

كان ينفي وهمًا شائعًا، بل اعتقادًا راسخًا، بأنَّ الأواخر لا يمكنهم أنْ يفوقوا الأوائل، وأنَّ الجديد عالةٌ دائمًا على القديم. بل كلامه يدلُّ بوضوح على أنَّ الشاعر الفيلسوف نفسه يؤمن بأنَّ هذا هو الأصل والقاعدة، فهو يرى أنَّ المتأخر في الزمان لا يستطيع أنْ يجاري الأوائل أو يتفوَّق عليهم، إلَّا إذا كان ذلك من باب الفلتات والخوارق، فهو نفسه جاء شاذًّا عن القواعد، خارقًا للعوائد، وهذا ما توحي به الجملة

(١) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه (١٨٦/٦)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ. وهو بلفظ مشابه ديوان كعب بن زهير صنعة أبي سعيد السكري صـ ٦٦، تحقيق د. مفيد قميحة، نشر دار الشواف للطباعة والنشر، الرياض، ط١، ١٩٨٩م.

(٢) بلفظ مشابه في ديوان صفي الدين الحلي صـ ٤٣٩، نشر دار صادر، بيروت.

(٣) وأولها: ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل
انظر: سقط الزند صـ ١٩٣، نشر دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٧م.

QaradawiBooks.com

الاعتراضية في البيت: «وإن كنت الأخير زمانه»، ولعلَّ ذلك لارتباط القديم حينئذٍ بعصر النبوَّة وعهد الراشدين، وامتداد الإسلام، وازدهار حضارته، وظهور الأئمَّة الكبار، ونبوغ العباقرة الأفذاذ في كلِّ علم وفنٍّ، وتفرُّد الأُمَّة الإسلاميَّة بالتربُّع على القمة لعدَّة قرون.

على حين كان المتأخرون الَّذين برز نبوغهم، وظهر تفوُّقهم، في مجالاتهم العلميَّة والدينيَّة والأدبية ينتسبون إلى عصور التخلُّف والانحطاط، تلك العصور الَّتي فقدت الاجتهاد في الشريعة، والإبداع في العلم، والأصالة في الأدب، والابتكار في شتَّى نواحي الحياة!

وهذا ما جعل نوابغ المتأخرين في العصور الإسلاميَّة يحاولون أنْ يقيموا الأدلَّة لقرائهم من معاصريهم ومَن بعدهم على أنَّ تأخُّر زمانهم لا يعني حرمانهم من الفضل الَّذي أحرزه السابقون من قبلهم!

نقرأ في خطبة «القاموس» للعلَّامة الفيروز آبادي هذا المعنى في قوله: «ولكنِّي أقول كما قال أبو العباس المبرد في «الكامل» وهو القائل المحق: ليس لقِدَم العهد يفضل الفائل (أي المخطئ) ولا لحدثانه يهتضم المصيب، ولكن يُعطَى كلٌّ ما يستحقُّ»[1].

قال العلَّامة الزَّبِيدي شارحه: «ومثل هذا الكلام في خطبة «التسهيل» ما نصُّه: وإذا كانت العلوم منحًا إلٰهيَّة ومواهب اختصاصية، فغير مستبعَد أنْ يُدَّخَر لبعض المتأخرين ما عسُر على كثير من المتقدمين». قال الزَّبِيدي: «والمعنى: أنَّ تقدُّم الزمان وتأخُّره ليست له فضيلة في نفسه؛ لأنَّ الأزمان كلَّها متساوية، وإنَّما المعتبر الرجال الموجودون في تلك الأزمان، فالمصيب في رأيه ونقله ونقده، لا يضرُّه تأخر زمانه الَّذي أظهره الله فيه، والمخطئ

(١) انظر: مقدمة القاموس المحيط للفيروز آبادي صـ ٢٨، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٨، ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

الفاسد الرأي، الفاسد الفهم، لا ينفعه تقدُّم زمانه. وإنَّما المعاصرة ـ كما قيل ـ حجاب، والتقليد المحض وبال على صاحبه وعذاب.

أنشدنا شيخُنا الأديب (عبد الله بن عبد الله بن سلامة المُؤَذِّن):

قُلْ لِمَنْ لَا يَرَى الْمُعَاصِرَ شَيْئًا ... وَيَرَى لِلْأَوَائِلِ التَّقْدِيمَا
إِنَّ ذَاكَ الْقَدِيمَ كَانَ حَدِيثًا ... وَسَيُمْسِي هَذَا الْحَدِيثُ قَدِيمَا!

وأنشدني أيضًا لابن رَشِيق:

أُولِعَ النَّاسُ بِامْتِدَاحِ الْقَدِيمِ ... وَبِذَمِّ الْجَدِيدِ غَيْرِ الذَّمِيمِ
لَيْسَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ حَسَدُوا الْحَيَّ ... وَرَقُّوا عَلَى الْعِظَامِ الرَّمِيمِ!

وأنشدني أيضًا:

تَرَى الْفَتَى يُنكِر فَضْلَ الْفَتَى ... خُبْثًا وَلُؤْمًا، فَإِذَا مَا ذَهَبْ
لَجَّ بِهِ الْحِرْصُ عَلَى نُكْتَةٍ ... يَكْتُبُهَا عَنْهُ بِمَاءِ الذَّهَبْ!

والمراد من ذلك كله النظر بعين الإنصاف من المعاصرين وغيرهم، فإنَّ الإخلاص والإنصاف هو المقصود من العلم»[1] اهـ.

وهكذا كان «القديم» هو المنظور إليه بعين الإكبار والتعظيم، وكان «الحديث» أو «الجديد» أو «المتأخر» أو «المعاصر» يجهد كل الجهد كي يقدِّم المبرِّرات لإثبات وجوده.

ظاهرة التعظيم للحديث:

أما ظاهرة التعظيم للحديث والتشبُّث به، واعتقاد صلاحه ونفعه، والنفور من القديم، والدعوة إلى الإعراض عنه، فهي ظاهرة جديدة في

(١) مقدمة تاج العروس في شرح خطبة صاحب القاموس صـ ٩٣ ـ ٩٤، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، نشر وزارة الإعلام الكويتية، سلسلة التراث العربي، ط ٣، ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

الأُمَّة الإسلاميَّة، وهي ثمرة من ثمرات الاستعمار والتأثر بالفكر الغربي، وبالحضارة الغربيَّة.

وممَّا أيَّد هذه النزعة إلى تعظيم الحديث، واحتقار القديم، عدة أشياء:

١ ـ أنَّ الحضارة الغربيَّة الوافدة كانت في أوج مجدها، وقمة انتصاراتها، عسكريًّا وسياسيًّا وعلميًّا، وقد غلبت على العالَم كلِّه تقريبًا، ومنه العالَم الإسلامي، وهي ترفع شعارات برَّاقة جذَّابة مثل: الحرية والإخاء والمساواة.

فكانت هي الحديث الَّذي فُتِنَ به مَن فُتِن من أبناء المسلمين، وولعوا بمحاكاته، ولع المغلوب بتقليد الغالب، كما قال ابن خلدون[1].

٢ ـ أنَّ حضارتنا كانت في عصر أفولها وإدبارها، وكان قديمنا عند صدمة اللقاء بالحضارة الغربيَّة المنتصرة موسومًا في أذهان الكثيرين بالتخلُّف والجهل والضعف والتمزُّق، وفقدان الإبداع في كلِّ المجالات.

٣ ـ أنَّ كنوز القديم وجواهره النفيسة كانت مطمورة مجهولة لأهله أنفسهم. على حين كان الحديث ظاهرًا، بَيِّن المعالم، واضح الحدود. وما عرض من هذا القديم فقد كان عرضه في صورة منفِّرة، وفي أوعية تنكرها الأنفس والعقول.

٤ ـ أنَّ نُظم التعليم الجديدة بفلسفتها، ومناهجها، وكتبها، وروحها، كانت تغرس في الأجيال المتعلِّمة حبَّ الجديد، وهو يعني الحضارة الغربيَّة. والنفور من القديم، وهو يعني تراث الإسلام. هذا إلى مَن يُبعثون إلى الغرب ليُنهوا دراستهم هناك. وبعبارة أخرى: ليُصنعوا على أعين السادة المخطِّطين والموجِّهين!

(١) انظر: تاريخ ابن خلدون (١٨٤/١)، تحقيق خليل شحادة، نشر دار الفكر، بيروت، ط ٣، ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

القِدَم والحداثة لا علاقة لهما بقيمة الأشياء:

وأودُّ أنْ أقرِّر هنا أنَّ الزمن لا صلة له في ذاته بقيمة الأشياء، أعني أنَّه سواء تقدَّم أو تأخَّر، لا علاقة له بصواب الأشياء أو خطئها، ولا بحقيتها أو بطلانها. فكم من جديد كله صواب وحقٌّ، وكم من قديم كله خطأ وباطل، والعكس صحيح أيضًا.

المسلم لا يتبنَّى القديم لمجرَّد قِدَمه، كما لا يرفض الجديد أو الحديث لمجرَّد جدَّته وحداثته، ولا العكس.

وقد ظهر الإسلام في وقت كان عُشَّاق القديم ودُعاته هم أوَّل المناوئين للإسلام: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

بل كان هذا هو موقف الملأ والمترَفين في كل زمان من أنبيائهم، فهم يرفضون دعوة التوحيد والعدل والإصلاح بحُجَّة مخالفة ما كان عليه الآباء.

ولهذا يجب أنْ تُقوَّم الأمور تقويمًا موضوعيًّا بغَضِّ النظر عن قِدَمها أو جدَّتها.

فإذا قال بعض الناس: كيف يجوز للإنسان في القرن العشرين ـ القرن الَّذي صنع «الكمبيوتر» والذي حطَم الذَرَّة، وغزا الفضاء، ونجح في الصعود إلى الكواكب ـ أن يُحَكِّم في حياته منهجًا مضى عليه أربعة عشر قرنًا من الزمان؟ كيف يجوز لنا أنْ نرجع القهقرى هذه القرون كلها، لنتتلمذ على محمَّد ﷺ، أو نقتبس من أبي بكر وعمر، أو نأخذ عن مالك وأبي حنيفة وغيرهما؟

QaradawiBooks.com

إنَّ الالتــزام بمثل هذا المنهــج العتيق هو «الرجعيَّــة» الَّتي تعارض التقدُّم، وتؤخرنا إلى الوراء أربعة عشر قرنًا من الزمان.

إنَّ الإنســان الراقي هو الَّذي ينظر إلى الأمام، وليس هو الَّذي ينظر إلى الوراء.

إنَّ التطوُّر هو سُــنَّة الحيــاة كلها، والأحياء جميعًــا. وقانون التطور يسري على الأمم والجماعات كما يســري على الأفراد، وهو حتم لازم شاء المرء أو أبى.

فلا بدَّ أن نســاير التطوُّر ونجاريه حتَّى لا يغلبنا، وتســحقنا عجلاته الجبَّارة.

إذا كان بعــض الناس يقولون مثــل هذا الكلام، فنحــن نردُّ عليهم بمنطق أقوى من منطقهم، ونقول لهم: إنَّ الرجوع أربعة عشــر قرنًا إلى الوراء للاهتداء بوحي الله الكريم والتتلمذ على رســوله العظيم، والسير على سُنَّة خلفائه الراشدين المهديِّين، هو في الحقيقة تقدُّم إنساني رائع، تقدُّم في الأفكار والمشــاعر، وتقــدُّم في القِيَم والأخــلاق، وتقدُّم في الآداب والتقاليد، تقدُّم تحلم به الإنسانيَّة الراشدة، وإنْ لم يُتَح لها اليوم فرصة تحقيقه والوصول إليه.

وإنَّ من الحمق الَّذي لا يليق بالإنســان العاقل: أن يرفض الشــيء، لا لعيب إلَّا أنَّه قديم، وأن يرحِّب بشيء لا لمزية، إلَّا أنَّه جديد.

ولقد عرفنا وعــرف الناس قبلنا ـ بالمنطــق والتجربة ـ أنَّه ليس كلُّ قديم سيئًا، ولا كل جديد حسنًا. فكم من قديم فيه أكبر المنافع، وكم من جديد يحمل أكبر المضار، وهل عاب الشمس والقمر والنجوم، والجبال والبحار أنَّها قديمة، وأنَّ عمرها يُقدَّر بالملايين من السنين؟!

QaradawiBooks.com

القِدَم والحداثة نسبيَّان:

على أنَّ القِدَم والحداثة أمران نسبيَّان، فُربَّ حديثٍ عند قوم، يُعَدُّ قديمًا كل القِدَم عند آخرين، وكم من شيء يعدُّه الناس في عصرٍ ما، جديدًا كلَّ الجِدَّة، فإذا تعمَّقوا في الدراسة وجدوه أمرًا قديمًا عتيقًا، عرفته الأمم البدائية منذ أقدم العصور، كالإباحية الَّتي يحسبها بعض الناس من ثمرات هذا العصر، عصر الحرية والنور كما يزعمون، وهي لا تزال من سمات القبائل البدائية، والشعوب الهمجية إلى اليوم.

هذا إلى أنَّ الحديث لا يبقى أبدًا حديثًا، والقديم لم يكن من قبل قديمًا، فقديم اليوم كان حديث الأمس، وحديث اليوم سيصبح قديمًا غدًا، فإذا كان القِدَم يسلب الأشياء الحسنة حُسنها، وكانت الجدة أو الحداثة هي وحدها مصدر الحُسن والنفع والخير، فمعنى ذلك أنَّنا عدنا «سوفسطائيِّين» نرى أنَّ الأشياء ليس لها حقائق ثابتة، وأنَّ القِيَم ليس لها ثبات ولا خلود، ومعنى ذلك: أنَّ مرور الزمن وحده هو الحَكَم على الأشياء، فهو الَّذي يجعل الحق باطلًا، والمعروف منكَرًا. وهذا ما يرفضه العقل والعلم والدين جميعًا.

الغلوُّ في التحديث مرفوض:

لهذا وقف أولو الألباب في العالَم الإسلامي كله ضدَّ الغلاة من دعاة التحديث أو التجديد ـ الثائرين على كل قديم، المنسلخين من كل تراث ـ موقف المنكر الناقد، والساخط المعارض، وسخر منهم أديب العربيَّة والإسلام مصطفى صادق الرافعي بأنَّهم يريدون أن يُجدِّدوا الدين واللغة والشمس والقمر!

QaradawiBooks.com

وقال أمير الشعراء شوقي في قصيدته عن الأزهر:

لَا تَحْـذُ حَـذْوَ عِصَابَـةٍ مَفْتُونَةٍ يَجِـدُونَ كُلَّ قَدِيـمِ أَمْـرٍ مُنْكَرَا
وَلَوِ اسْتَطَاعُوا فِي الْمَجَامِعِ أَنْكَرُوا مَنْ مَاتَ مِـنْ آبَائِهِـمْ أَوْ عُمِّرَا!
مِنْ كُلِّ سَـاعٍ فِي الْقَدِيمِ وَهَدْمِهِ وَإِذَا تَقَـدَّمَ لِلْبِنَايَـةِ قَصَّـرَا[1]!

وسخر الفيلسـوف الشـاعر محمَّد إقبال من دعوة «كمال أتاتورك» للتجديد، ورماه بالانصيـاع والتقليد للغرب، واعتبـره محرومًا من كل أصالة وإبداع، فقال على لسـان بعض الشـخصيات: «إنَّ «كمال» تغنَّى بالتجديد في تركيا، ودعا إلى محو كل أثـر قديم، وتراث قديم، ولكنَّه جهل أنَّ الكعبة لا تُجدد، ولا تعود إلى الحياة والنشاط إذا جُلبت لها من أوربا أصنامٌ جديدة! إنَّ زعيم تركيا لا يملك اليوم أغنية جديدة، إنَّما هي كلها أغان مُردَّدة مُعادة، تتغنَّى بها أوربـا من زمان! إنَّ الجديد عنده هو القديم الأوربي الَّذي أكل عليه الدهر وشـرب! ليـس في صدره نفس جديد، وليس في نفسه عالَم حديث، فاضطر إلى أن يتجاوب مع العالَم الأوربي المعاصر. إنَّه لم يسـتطع أن يقاوم وهج العالَم الحديث، فذاب مثل الشمعة وفقد شخصيَّته»[2].

إنَّ «التقدميِّين» قومٌ يزعمون أنَّهم ينظرون أيضًا إلى الأمام، ولا ينظرون ساعة إلى الوراء، ينظرون إلى المسـتقبل، ولا ينظرون إلى الماضي، كأنَّ النظر إلى الماضي سُـبَّة يُبرأ منها، وما الماضي؟ إنَّه كان بالأمس حاضرًا حيًّا ماثلًا، وكان من قبل أمس مستقبلًا مرجوًّا، وغدًا مرتقبًا.

(١) انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١٥١/١).

(٢) نقلًا عن: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية لأبي الحسن الندوي صـ ٩٨، نشر الدار الكويتية للطباعة، ط ٢، ١٩٦٨م.

QaradawiBooks.com

إنَّ الله الَّذي خلق الإنسان، ومنحه خيالًا يُحلِّق به في استشفاف غده، جعل له ذاكرةً يستوعب فيها أمسه، فلماذا نطلب من الإنسان أن يتطلع إلى غده فقط، وننكر عليه أنْ يتصل بأمسه؟ لماذا نريد من المجتمع أنْ يفقد ذاكرته. مع أنَّنا نعدُّ الفرد المصاب بفقد الذاكرة مريضًا مبتلًى محتاجًا إلى العلاج؟!

إنَّ الإنسان يولد وهو يحمل في دمه خصائص أسرته وفصيلته، فضلًا عن خصائص نوعه؛ بحكم قوانين الوراثة. ومعنى هذا أنَّه منذ يُولد يحمل في إهابه شيئًا غير قليل من الماضي: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، ولولا هذا الماضي لكان مادَّة غفلًا، لا ترتقي إلى مستوى الكائن الحيِّ العاقل المفكِّر.

فلماذا نريد من الإنسان أن ينسلخ من ماضيه وتراثه، إذا أراد أن يرسم لنفسه حدود سلوكه، ويحدِّد منهج حياته.

يقول الكاتب الكبير الأستاذ عبَّاس محمود العقاد رَحِمَهُ اللَّهُ، في الفَرْق بين الاتجاه الطبيعي في الأدب، الَّذي يحافظ على الماضي، ويبني عليه، والاتجاه المصطنع الَّذي ينفصل عن الماضي كل الانفصال: «إنَّ الفَرْق بينهما ـ أي الطبيعي والصناعي ـ لا يخفى على ناظر يريد أن ينظر، لأنَّ الكائنات الطبيعيَّة الَّتي تنمو أمامنا نموًّا طبيعيًّا، أكثر من أن تحصى.

إنَّ البِنْية الحيَّة تقوم على كيانٍ مستمرٍّ لا ينقطع عن ماضيه، ولا ينفصل عن أصوله وموروثاته، ولا تزال كلُّ خلية فيه حافظة لسجل الحياة في عصوره الماضية آلافًا من السنين يظهر منها ما يظهر، ويستتر منها ما يستتر.

QaradawiBooks.com

ومن علامات البِنية الحية أيضًا: أنْ تتغيَّر على حسب الظروف، وأن تشتمل على قُدْرة متجددة، تتمكَّن بها من التوفيق بينها وبين ما حولها، ولا تستقر فيه استقرار الجماد، ولكنَّها تتغيَّر لتبقى، ولا تبقى لتمحو وجودها في هذا التغيير.

ولنضرب لذلك شجرة القطن مثلًا، ونضرب لها ما شئنا من الأشجار مثلًا بالقياس عليها:

فإنَّ شجرة القطن تتغيَّر حسب المنبت، وعلى حسب الوسائل الزراعية، وعلى حسب العناية بتطبيق هذه الوسائل، ولكنَّها تبقى «قطنًا» بعد هذا التغيير، ولا تزول منها هذه الصفة الأصلية إلَّا إذا آذنت كلها بالزوال.

وعلى هذا المثل يُقاس الاتجاه الطبيعي في كل بنية حيَّة»[1].

والمسلم مثل شجرة القطن هذه، إنَّه قد يتحوَّل من حياة زراعية إلى حياة صناعية، وقد ينتقل من البداوة إلى الحضارة، وقد يمتطي الطائرة بعد أنْ كان يركب البعير، ولكنَّه ـ مع هذا التغيير ـ يبقى مسلمًا، يؤمن بالله وباليوم الآخر، ويتمسَّك بمكارم الأخلاق، ويقيم شعائر الله، ويحتكم إلى ما شرع الله، وينتفع بتراث السابقين من الأئمَّة المهديين.

ويقول الدكتور محمَّد إقبال في بحثٍ له: «لا تنس أنَّ الحياة ليست تقلُّبًا وتطوُّرًا فحسب، فإنَّما توجد فيها عوامل البقاء والدوام كذلك، وذلك هو السِّرُّ في أنَّ الإنسان ـ رغم عمله المنتج المبتكر المستمر، وعكوفه الطويل على كشف طاقات الكون المبعثرة، والاطلاع على آفاقه

(١) نقلًا عن: الاستعمار أحقاد وأطماع للشيخ محمد الغزالي صـ ٢٢٢، نشر دار نهضة مصر، القاهرة، ط ٤، ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

الجديدة، وأجوائه الفسيحة ـ لا يزال يشعر باضطراب دفين، وقلق يساوره في كل حين. إنَّــه يضطرُّ إلى النظــر فيما يراه خــلال تقدُّمه، أو خلال رحلته، كأنَّه خائف يترقَّب، ويخجل من مواجهة عالَمه الفسيح المترامي الأطراف. ويمكــن أنْ نقول في عبــارة أخرى: إنَّ الحيــاة تحمل عبء الماضي دائمًا على أكتافها، ولا تســتطيع أنْ تتخلَّى عنه في أيِّ حالٍ من أحوالها، ولذلك لا ينبغي لأي نظريَّة من نظريَّات الاجتماع والعمران أن تزدري قيمة القديــم، وطاقاته وإنتاجه وتأثيره، كمــا يجب على العقليَّة الحديثة أنْ تنظر إلى تعاليم القرآن الأصيلة في ضوء هذه البصيرة النافذة والفراسة البعيدة، ثمَّ تحاول فهم مؤسساتنا وجهودنا على هذا الأساس.

إنَّه لا يمكن لأي شعب أنْ يرفض ماضيه رفضًا باتًّا؛ لأنَّ الماضي هو الَّذي يعرف به شخصيته وذاتيته.

إنَّ استعراض المؤسسات القديمة وكشــفها من جديد في المجتمع الإســلامي عمليَّة دقيقة خطيرة أكثر ممَّا هي في المجتمعات الأخرى، ولذلك تتضاعف في هذه الناحية مســؤوليَّة المصلحين، ورجال الفكر. إنَّ الإسلام بالنظر إلى خصائصه وسماته «غير محلي»، وهو يهدف إلى إيجــاد نموذج كريم للوحــدة والانســجام، تلتقي فيه ســائر الأجناس والألوان ويختلــط بعضها ببعض، ثمَّ تطوير هذه الــذَّرَّات المبعثرة في الآفاق إلى «مِلَّة» تدرك ذاتها وتعي شخصيتها. إنَّ هذا العمل كان عسيرًا شاقًّا، ولكن الإسلام نجح في تكوين إرادة اجتماعيَّة وضمير اجتماعي خاص بين هــذه الأكوام مــن الشــعارات والألــوان. إنَّ آداب الأكل والشرب، وشؤون النجاسة والطهارة، وما ماثلها من القوانين الاجتماعيَّة المدنيَّة، الَّتي لا تتبدَّل ولا تتغيَّر في مجتمع الإســلام، لها قيمة حياتية

QaradawiBooks.com

«حيوية» خاصَّة، وذلك لأنَّ هذه القوانين والآداب تمنح المجتمع «داخليَّة» أو «ذاتيَّة» من نوع خاصٍّ، وتوفِّق بين جوهره وملامحه، وداخله وخارجه، توفيقًا رائعًا جميلًا.

ولذلك فيجب على هؤلاء الَّذين ينتقدون هذه المؤسسات أن يحاولوا إدراك كُنْه الجهاز الاجتماعي للإسلام وأسراره، قبل أنْ يرتجلوا في الكلام عنه. إنَّه يجب عليهم أن يفكروا في صنع تلك المؤسسات وهيئتها في إطار هدف أوسع، لا في إطار مصلحة اجتماعيَّة محدودة لشعب خاصٍّ محدود»[1].

حقيقتان لا بدَّ من التنبيه عليهما:

وهناك حقيقتان أودُّ أن أُنبِّه عليهما:

الحقيقة الأولى: أنَّ الغربيِّين معذورون حين ينكرون ماضيهم، ويشنُّون الغارة على قديمهم، وينفرون من كل دعوة تتضمن الرجعة إليه؛ ذلك لأنَّ الماضي الَّذي سبق حاضرَهم وتقدُّمَ نهضتهم: ماضٍ عفنٌ خَرِبٌ، ليس فيه إلَّا المناوأة للعلم، والحجر على الفكر، وتحريق العلماء والمفكرين، ليس فيه عدالة ولا تكافل، ليس فيه للإنسان حقوق تُرعى، ولا أخوَّة يُعترف بها، وليس فيه إلَّا طبقيَّة صارخة، وأرستقراطيَّة مُستكبِرة، وإقطاعٌ متسلِّط، وحكم ظالم، وكنيسة تبارك كلَّ هذا الظلم والظلام، وتؤيِّده باسم الدين، باسم الله والمسيح. فمَن دعا إلى تحكيم الدِّين عندهم في شؤون الحياة، فمعناه أنَّه يعود بالناس إلى الوراء، إلى

(١) مقال الصراع بين القديم والجديد في مجال القانون الإسلامي، معرَّب عن الأوردية، للأستاذ خورشيد أحمد، العدد (٢)، المجلد (١٢)، مجلة البعث الإسلامي، أكتوبر ١٩٦٧م. ولاستبانة جوانب هذا الموضوع، راجع: التطور والثبات في حياة البَشرية للأستاذ محمد قطب.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الجهل، إلى التخلُّف، إلى التعصب المغلق، إلى التقليد الأعمى، إلى الإقطاع، إلى الطبقيَّة، إلى حكم الفرد المطلق، إلى تسليم الزمام لرجال الكهنوت، إلى محاكم التفتيش، والوقوف في وجه العلم والفكر والحرية.

أما نحن، فالأمر عكس ذلك تمامًا، إنَّ ديننا غير دينهم، ومجتمعنا غير مجتمعهم، وماضينا غير ماضيهم: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ينقل لنا الأستاذ فريد وجدي عن «درايبر» الأستاذ بجامعة نيويورك من كتابه «المنازعة بين العلم والدين» صفحات يقارن فيها بين تقدُّم المجتمع الإسلامي وتخلُّف المجتمع الأوربي حتَّى عصورهم الوسطى فيقول: «ولو أردنا أن نستقصي كل نتائج هذه الحركة العلميَّة العظمى، لخرجنا عن حدود هذا الكتاب، فإنَّهم قد رقَّوا العلوم القديمة ترقية كثيرة جدًّا. وأوجدوا علومًا جديدة لم تكن معروفة قبلهم. والفلكيون من العرب قد اهتموا أيضًا بتحسين آلات الأرصاد وتهذيبها، وبحساب الأزمنة بالساعات المختلفة الأشكال، والساعات المائية، والسطوح المدرَّجة الشمسية. وهم أوَّل مَن استعمل البندول (الرقَّاص) لهذا الغرض.

أمَّا في العلوم التجريبيَّة فقد اكتشفوا الكيمياء، وبعضًا من محللاتها الشهيرة بـ «حمض الكبريتيك» و«حمض النتريك» و«الكحول». وقد استخدم العرب علم الكيمياء في الطب؛ لأنَّهم أوَّل مَن نشر علم تحضير العلاجات و«الأقرباذينات»[1] واستخراج الجواهر المعدنيَّة.

أمَّا في علم «الميكانيكا» فإنَّهم عرفوا وحدَّدوا قوانين سقوط الأجسام، وكانوا عارفين كل المعرفة بعلم الحركة.

(١) أي الأدوية المركَّبة.

QaradawiBooks.com

أمَّا في «الإيدروستاتيك» فإنَّهم أوَّل مَن عمل الجداول المُبَيِّنة لضروب الأوزان النوعيَّة، وكتبوا أبحاثًا في الأجسام السابحة، والغائصة تحت الماء.

أمَّا في نظريَّات «الضوء والإبصار» فقد غيَّروا الرأي اليوناني الَّذي بمقتضاه أنَّ الإبصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئيِّ، وقالوا بعكس ذلك؛ أي إنِّ الإبصار يحصل بوصول شعاع من المرئيِّ إلى العين.

وكانوا يعرفون نظريَّات انعكاس الأشعَّة وانكسارها. وقد اكتشف الحسن بن الهيثم الشكل المنحني الَّذي يأخذه الشعاع في سيره في الجوِّ. وأثبت بذلك أنَّنا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة في الأفق. وكذلك نراهما في الغروب بعد أن يغيبا بقليل. إنَّ نتائج هذه الحركة العلميَّة تظهر جليًّا في التقدم الباهر الَّذي نالته الصنائع في عصرهم. فقد استفادت منها فنون الزراعة في أساليب الري والتسميد، وتربية الحيوانات، ومن النظامات الزراعية الحكيمة، وإدخال زراعة الأرز والسكر والبن. وقد انتشرت المعامل والصنائع لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن. وكانوا يذيبون المعادن، ويجرون في عملها على ما حسَّنوه وهذَّبوه من صنعها وسبكها.

وإنَّنا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلميَّة ما كنَّا نظنُّه من نتائج العلم في هذا العصر. من ذلك أنَّ مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الَّذي يعتبر مذهبًا حديثًا كان يُدرس في مدارسهم. وقد كانوا ذهبوا منه إلى مدى أبعد ممَّا وصلنا إليه، وذلك بتطبيقه على الجامدات والمعادن أيضًا»[1].

(١) انظر: الإسلام دين عام خالد للأستاذ محمد فريد وجدي صـ ١٥٦ ـ ١٥٨.

QaradawiBooks.com

ثُمَّ ينتقل «درايبر» إلى أوربا مقارنًا بين النور والظلام: «إنَّ أوربا في ذلك العهد كانت غاصة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة، وكانت المستنقعات قد كثرت حوالَيْ المدائن، فكانت تنتشر منها روائح قتَّالة اجتاحت الناس وأكلتهم، ولا مغيث لهم، وكانت البيوت في «باريس» و«لندن» تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب. ولم يكن فيها نوافذ ولا أرضيات خشبية. أما الأبسطة فكانت مجهولة لديهم، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض نشرًا. ولم يكونوا يعرفون المداخن، فكان الدخان يطوف البيت ثمَّ يتسرب من ثقب صنعوه له في السقف. فكان الناس في هذه البيوت معرَّضين لكل أنواع الإصابات الخطيرة. وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة، فيلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكوامًا أكوامًا، تتصاعد منها روائح قاتلة. ولا رقيب ولا حسيب. وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة من رجال ونساء وأطفال، وكثيرًا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية. وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من الصوف كمخدة. وكانت النظافة معدومة لديهم لا يعرفون لها رسمًا. وكان الغني منهم لا يأكل اللحم إلَّا كل أسبوع مرَّة. ولم يكن في الشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح.

هذه الجهالة كان من أثرها على أوربا أن عمَّتها الخرافات والأوهام. فانحصر التداوي في زيارة الأماكن المقدسة، ومات الطب، وأحييت أحابيل الدجَّالين. وقد كانوا إذا دهم البلادَ وباءٌ فزع رجال الدين إلى الصلاة، ولم يلتفتوا لأمر النظافة، فكانت تفتك بهم الأوبئة فتكًا ذريعًا. حتَّى إنَّها زارت أوربا عدة مرات، فاجتاحت الملايين من أهلها في أيام معدودة. وقد كان الموت في أوربا في هذه العصور بنسبة واحد إلى ثلاثة وعشرين، فصار اليوم الواحد إلى أربعين».

QaradawiBooks.com

ثم قال: «لم تكن أوربا العصرية بأعلى ذوقًا، ولا أرقى مدنية، ولا ألطف رونقًا من عواصم الأندلس على عهد العرب»[١].

الحقيقة الثانية: أنَّ الزعم القائل بأن المادِّيَّة في التفكير، والشهوانية في السلوك، هي تقدم للإنسان وتطور به إلى الأمام، وأنَّ القِيَم الروحيَّة والخُلُقية رجوع به إلى الخلف: زعم يناقضه التفكير السليم، والمنطق العلمي القويم.

فالواقع أنَّ التفكير المادي الَّذي يرفض الإيمان بالغيب، ولا يؤمن إلَّا بالمُحَسَّات إنَّما هو تفكير بدائي مناسب لمرحلة الطفولة الإنسانيَّة، فالطفل لا يعرف شيئًا، ولا يعترف بشيء غير ما يقع عليه سمعه وبصره وحواسه من الطعام والشراب والملبس واللعبة، وما يتصل بذلك، فإذا بلغ مرحلة المراهقة، اتسعت دائرة إدراكه فعرف بعض المعنويات والقِيَم. فإذا بلغ الرُشد استطاع أنْ يدرك المعنويات الرفيعة من العلم والحب والرحمة والأخوة والإيثار، ونحوها من القِيَم والمُثُل العليا. والإيمان بالله تعالى هو أرقى مراتب الرُشد الإنساني؛ لأنَّه يمثل اتصال الإنسان بالكائن الأعلى، الذي: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وشهوانيَّة السلوك ليست تقدُّمًا بالإنسان أيضًا، إنَّما هي هبوط به إلى درك الحيوانيَّة، فالإنسان مخلوق مركَّب من عقل وشهوة، فإذا غلب فيه عقله على شهوته ارتفع إلى أفق الملائكة، وإذا غلبت شهوته على عقله نزل إلى حضيض البهيمية، فالبهيمة لا يحكم سلوكَها غيرُ شهوتها

(١) الإنسان دين عام خالد صـ ١٠٧ ـ ١٠٩.

QaradawiBooks.com

الغريزية. فإذا لم يتميز الإنسان عنها. مع ما أوتيه من العقل. كان أدنى درجة منها، وفي مثل هؤلاء يقول القرآن: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۞ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

يقول أستاذنا الدكتور محمَّد البهي في محاضرة له عن مفهومي «التقدُّم» و«الرجعيَّة»: «اتِّجاهان متقابلان: اتِّجاه إلى الأمام، واتجاه إلى الوراء، والإنسان يبتدئ في تطوره من نقطة الطفولة الإنسانيَّة الَّتي تشبه حيوانيَّة الحيوان، وينتهي في هذا التطور إلى نقطة الرشد الإنساني، وهو مستوى الإنسانيَّة المهذب في السلوك، والدقيق في الحكم والتفكير، فما يدفعه إلى الرُشد الإنساني فهو من عوامل التقدم، وما يشده إلى الطفولة الإنسانيَّة فهو من عوامل الرجعيَّة، وما يقف به عن الحركة نحو الأمام، أو إلى الوراء، فهو عامل الجمود.

وإذن ليس من مفهوم التقدميَّة أو التطور شد الإنسان إلى الحيوانيَّة والتصرف الحيواني، وليس من مفهوم الرجعيَّة مساعدة الإنسان على الرُشد الإنساني بالسلوك المهذَّب، والتفكير الدقيق.

وهنا نجد دعوة الروحيَّة (يعني الدين، فهو ذَرْوة الروحيَّة) ليست دعوة إلى الانتكاس، وليست دفعًا بالإنسان إلى الوراء ـ وهو مرحلة الطفولة الإنسانيَّة ـ بل هي دفع إلى الأمام، إلى رُشد الإنسان وكماله وتمام تطوره. كما نجد دعوة المادِّيَّة ليست دعوة إلى التقدُّم والتطوُّر، بل على العكس هي دعوة إلى الطفولة الإنسانيَّة، دعوة إلى الحيوانيَّة في الإنسان، دعوة إلى إهمال الخصيصة الَّتي تميِّزه عن الحيوانيَّة، وهي مستوى الإنسانيَّة.

QaradawiBooks.com

وإذن ما توصف به الروحيَّة من أنَّهـا رجعيَّة، وما توصف به المادِّيَّة من أنَّها تقدميَّة، أغفل فيها تاريخ كل من الروحيَّة والمادِّيَّة، وحدد مفهوم كليهما من رغبات خاصَّة»[1].

المفاضلة بين القديم والحديث:

والخلاصة أنَّ المفاضلة بين القديم والحديث غير علميَّة، ولا معنى لها.

أوَّلًا: لأنَّ القِدَم والحدوث من الأمور الاعتبارية غير الحقيقيَّة، فرُبَّ حديث عند قوم يُعتبر قديمًا عند غيرهم، والعكس كذلك.

ثانيًا: لأنَّ القِدَم والحدوث من الأمـور غير الثابتة، فقديم اليوم كان حديثًا، وحديث اليوم سيغدو قديمًا.

ثالثًا: لأنَّ القِـدَم أو الحدوث لا يحمـل في ذاته حقًّـا ولا باطلًا، ولا خيرًا ولا شـرًّا، وولع بعض الناس بالحديث، يقابله شـغف آخرين بالقديم.

فليكن بحثنا عـن الحق، قديمًا كان أو حديثًـا، فلن ينفع الباطل أن يكون وليد اليوم، ولن يضر الحق أن تمضي عليه ألوف السنين. والعكس صحيح أيضًا.

بين التغريب والتحديث:

بقي ما يقال من أنَّ الاهتـداء بالتراث الإسـلامي، وبعبارة أصرح: الرجوع إلى المنهج الإسـلامي، سـيحول بيننا وبين تحديث مجتمعنا، وتحديث حياتنا، بحيث نتحوَّل إلى مجتمع معاصر، يحيا حياةً معاصرة.

(١) محاضرة تحديد المفاهيم أولًا صـ ١٢ ـ ١٦ بتصرف، نشر مطبعة الأزهر، القاهرة.

QaradawiBooks.com

وهنا نعود إلى النقطة الَّتي لا مفرَّ من التنبيه عليها، والتذكير بها دائمًا، وهي «تحديد المفاهيم».

فما المراد من «التحديث» أو «المعاصرة»؟

إنْ كان المراد «بالتحديث» هو «التغريب» فهو مرفوض قطعًا لدى دعاة الحلِّ الإسلامي.

فالغرب له دِينُه ولنا دِينُنا، له قِيَمه ولنا قِيَمنا، له مفاهيمه، ولنا مفاهيمنا، له تقاليده، ولنا تقاليدنا، له مواريثه، ولنا مواريثنا، له حضارته، ولنا حضارتنا.

ومن الخطأ البَيِّن التوهُّم أو الإيهام بأنَّ الحضارة القائمة في عصرنا ليست غربيَّة، بل هي عالَميَّة، فهذا غير صحيح.

فهذه الحضارة غير حضارة المسلمين، وغير حضارة الهنود، وغير حضارة الصينيِّين، وغير حضارة اليابانيِّين، ولكلِّ حضارةٍ خصائصها.

صحيح أنَّ حضارة الغرب هي الحضارة الغالبة والسائدة، بحكم ظروف كثيرة، وعوامل شتَّى، ولكن الغرب هو صاحبها، وبصماته عليها في كل جوانبها، وتحمل فلسفته في الحياة، ونظرته إلى الدين والدنيا، وإلى الكون والإنسان والتاريخ، وتصوُّره عن الألوهيَّة، وعن الآخرة، وعن القِيَم والأخلاق.

ولهذا لا نرضى أنْ يكون مجتمعنا نسخة من المجتمع الغربي المعاصر، ولا حياتنا صورةً للحياة الغربيَّة المعاصرة، ولا إنساننا تقليدًا للإنسان الغربي المعاصر. ولا أن نتبع سُنَن الغرب شِبرًا بشِبر، وذراعًا بذراع.

QaradawiBooks.com

فإن كان هذا هو المقصود بالتحديث، فلا، ثمَّ لا، فما يرضى مجتمع أصيل ولا فرد أصيل، أن يـذوب في غيره، ويمحو شـخصيَّته، ولا أن يكون ذَنَبًا وقد خلقه الله رأسًا، أو عبدًا وقد جعله الله حرًّا.

وإن كان المراد بـ «التحديث» و«المعاصرة»: الاستفادة ـ إلى أقصى حـدٍّ ممكن ـ من منجزات العلم المعاصر، وتطبيقاته التكنولوجية، ونقل أفضل ما عند القـوم من مبدعات التنظيـم والإدارة، وإتقان العمل، فإنَّ الإسلام بقرآنه وسُـنَّته وتراثه كلِّه، يُرحِّب بذلك أبلغ الترحيب، ويعين عليه أعظم المعونة، بل إنَّه ليعتبر ذلك فريضةً دينيَّةً واجبةً على الأمة، إذ لا يتمُّ لها اسـتقلالها الحقيقي وسـيادتها في أرضها، وقيامها برسالتها محليًّا وعالميًّا، إلَّا ببلـوغ ما بلغه الغرب من تقدم علمي وتقني وإداري وتنظيمي، وما لا يتم الواجب إلَّا به فهو واجب، كما قرَّره علماؤنا.

بل إنَّ المطلوب في الأصل من الأُمَّة الإسلاميَّة أنْ تتفوق على غيرها في هذه المجالات حتَّى تكون كما أراد الله لها شهيدة على الناس.

علـى أنَّ الأهم من منجـزات العلم واسـتخداماته التكنولوجية هو «الرُّوح العلميَّة» و«العقليَّة العلميَّـة» و«المنهجيَّة العلميَّة» الَّتي هي العِلَّة الأولى وراء هذا كله.

وهذه الرُّوح والعقليَّـة والمنهجيَّة نحن أولى الناس بها، فالإسـلام بكتابه وسُـنَّة نبيِّه، بقِيَمـه وتعاليمه، أقدر من أي فلسـفة أو نظام على تكوين تلك الرُّوح العلميَّة، والعقليَّة العلميَّة، والمنهجيَّة العلميَّة.

فبدل أن نتسـوَّل ذلك من موائد غيرنا، نعود إلى أصولنا وحضارتنا فنستمد منها. وسنجد عند ذلك من الحوافز والمعاني ما لا نجده عندما نستورد ذلك من الغرب أو الشرق.

QaradawiBooks.com

وقد عرضتُ لهذا الأمر في أكثر من كتاب من كتبي، وعرضتُ له في هذا الكتاب نفسه في أكثر من موضع، ولا بأس من التكرار حتَّى يتعلَّم الجاهل، ويتنبَّه الغافل، ويصمت المكابر، وحَسْبنا الرجوع إلى الفصلين الأوَّل والثاني، ففيهما غَناء[1].

كما أنَّ الأهم من الاعتناء بأشكال الإدارة وصور التنظيم: الروح الَّتي تُسَيِّر ذلك وتُنشِّطه وتدفعه إلى الأمام، روح الإيجابيَّة والجدية، والحرص على النظام والإتقان، والتعاون مع الآخرين.

والإسلام أقدر من غيره على إيجاد هذه الروح وتغذيتها، وإمدادها بالوقود الدائم واللازم، حتَّى تُحقِّق هدفها.

فهذه الأمور كلُّها (من الجِدِّيَّة والنظام والإتقان والتعاون، إلخ) قِيَم إسلاميَّة أصيلة، يتقرَّب بها المسلم إلى ربِّه، ويتمِّم بها دينه، فهي من فضائل الإسلام وشُعَب الإيمان.

ولو أحسنَّا تربية أبنائنا في الصغر، وتوعيتهم في الكبر، بمعاني الإسلام والإيمان والإحسان، لاستطعنا أنْ نعوِّض ما فاتنا في زمن البُعد عن الإسلام الصحيح.

لنضرب مثلًا يُقرِّب المفهوم المراد من الحداثة ويوضحه: إذا أردنا أن ننشئ بناية حديثة، وبعبارة أخرى: أن «نحدِّث» بناء المنازل والأحياء والمدن في مجتمعنا، فما الَّذي يجب أن نصنعه لنخرج من القِدَم إلى الحداثة، أو من تخلُّف العصور القديمة إلى تقدُّم العصر الحديث في فن الإنشاء والتعمير؟

(١) راجع على سبيل المثال كتابنا: الإسلام والعلمانية صـ ٥٧ ـ ٦٥، فصل: العلمية والعلمانية، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٧، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

هنا يقتضي التحديث أن نرجع إلى أهل الاختصاص في هذا الأمر، لتقديم الدراسة اللازمة عن الموقع الَّذي يُشاد فيه البناء ومدى صلاحيته للغرض المنشود وموافقة الجهات الصحية والبلدية عليه، ومدى إمكان البناء فيه، بدون معارضة من الجيران أو من بعض الدوائر الحكومية كالزراعة أو الري أو الآثار ونحوها، وعن مبلغ إمكان توصيل المرافق الضروريَّة إليه من الماء والكهرباء وغيرها، وعن نوعية التُّربة وعلاقتها بالأساس وعمقه وحجمه، إلى آخر هذه السلسلة من المعلومات الَّتي لا يقوم بناء حديث إلَّا بعد توافرها.

ولا بدَّ بعد ذلك من تصميم هندسي متكامل، يُشاد البناء على أساسه، ومراعاة الخامات المطلوبة بأنواعها ومقاديرها، من المسلَّح وغيره، حسب الامتداد سعةً وعمقًا وارتفاعًا، وتأمين القَدْر الكافي من الإضاءة والتهوية، ومراعاة التوصيلات اللازمة للكهرباء والماء، والتليفونات، والتلفاز وما شابهها، بالمواصفات والشروط العصرية، والتنبيه للحاجات المتنوعة حسب تنوع المناطق والمناخات، مثل التدفئة في الشتاء، والتبريد في الصيف، وحسب علو المبنى بحيث يحتاج إلى «مصعد» أم لا، وتوفير الأجهزة الحديثة لإطفاء الحريق، والأماكن اللازمة لتصريف القمامة، وتهيئة مكان لمواقف السيَّارات، إلى آخر هذه السلسلة من الإجراءات الَّتي يقوم عليها الهيكل المادي للبناء.

ولكن هذا البناء الحديث الَّذي يتابع مقيموه أحدث ما انتهى إليه العصر من علم وتكنولوجيا، لا يؤدي غرضه بالنسبة للإنسان المسلم ما لم يتضمن شروطًا ومواصفات أخرى، تتعلق في غالبها بجوانب غير ماديَّة، جوانب تتمايز فيها الحضارات والمجتمعات بعضها عن بعض.

QaradawiBooks.com

إنَّ المسلم لا يبني في أرض مغتصبة، فإنَّ بقاءه فيها حرام، وصلاته فيها لا تُقبل.

كما أنَّ المسلم يهمُّه في الدرجة الأولى ألَّا يجرح أحدًا من جيرانه، وألَّا يجرحه أحد كذلك، فلا بدَّ من المحافظة على استقلاليَّة البيوت، بحيث يبقى لكلٍّ منها خصوصيته.

وفي داخل البيت لا بدَّ من الفصل بين مكان الاستقبال وسائر البيت، حتَّى لا يطلع أجنبي على عورات مَن في الداخل.

وينبغي أن يُراعَى في ترتيب حجرات البيت ـ بقدر الإمكان ـ بحيث يُفرَّق بين البنين والبنات بعد سنِّ العاشرة، كما جاء في الحديث: «**وفَرِّقوا بينهم في المضاجع**»[1].

كما يجب الاهتمام في دورات المياه بأنَّ المسلم مطالَب بالطهارة اليوميَّة من الاستنجاء والوضوء والغُسل، فيراعى ذلك في تصميمها.

وكذلك لا يعرف المسلمُ «البار» في منزله، فالخمر أم الخبائث، وهو لا يشربها، ولا يسقيها لغيره.

وينبغي أنْ يتسم البناء الإسلامي عامَّة بالبساطة والاعتدال مع المتانة والأناقة والجمال، فإنَّ الله جميل يحب الجمال، ويبتعد عن مظاهر السرف والترف المدمِّرة للأمم، مثل استخدام الذهب والفضة في الأبواب والحمامات ونحوها، والابتعاد عن التماثيل، فإنَّ الملائكة لا تدخل بيتًا فيه تماثيل.

(١) رواه أحمد (٦٦٨٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الصلاة (٤٩٥)، وحسَّن إسناده النووي في خلاصة الأحكام (٢٥٢/١)، وصحَّحه ابن الملقن في البدر المنير (٢٣٨/٣)، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

هذا مع الحرص على السعة المناسبة للسكان وحاجاتهم، فقد كان من دعائه عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهم وَسِّع لي في داري**»[١].

ومن ذلك: أنْ يكون للضيف مكان، فإنَّ إكرام الضيف من شُعَبِ الإيمان، وفي الحديث الصحيح: «**فراشٌ للرجل، وفراشٌ للمرأة، وفراشٌ للضيف، والرابع للشيطان**»[٢]، وهذا يدلُّ على أنَّ الزيادة من غير حاجة مظنَّة الدخول في الحَرَج والإثم.

وقبل ذلك كلِّه أنْ يكون للمنطقة السكنية مرافق أساسيَّة مشتركة في مقدمتها المسجد، الَّذي يلزم مراعاته في التخطيط مثل المدرسة والمستشفى والسوق والبريد وغيرها.

بل إنَّ أوَّل مشروع أسَّسه النبي ﷺ في المدينة بعد الهجرة كان المسجد، إذ هو محور نشاط الجماعة المسلمة، دينيَّة وثقافية واجتماعيَّة وصحية ورياضيَّة، وينبغي أنْ يُراعَى في بنائه أداء هذه الخدمات المتعددة وإعطاؤه من المساحة ما يكفي، ووضعه في وسط المنطقة السكنية بحيث ييسِّر لأهلها أداء الصلوات والمشاركة في النشاط.

وبهذا كله يتبيَّن لنا أنَّ التحديث ليس معناه نقل مبنى أوربي أو أمريكي حديث بعُجَره وبُجَره إلى بيئتنا العربيَّة الإسلاميَّة، بل معناه نقل تكنولوجيا البناء العصري، ومستلزماتها فقط، أما أهداف المبنى وما يؤديه من خدمات وما يحكمه من قِيَم، وما يلابسه من اعتبارات معنويَّة، فمردُّه إلى الأصول والمواريث الَّتي يتعايش بها كل مجتمع، ويحتكم إليها. والخلط بين الأمرين يُفضي إلى فسادٍ كبير، وضلالٍ مبين.

(١) رواه أحمد (١٦٥٩٩)، وقال مخرِّجوه: حسن لغيره. عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢٠٨٤)، وأحمد (١٤٤٧٥)، عن جابر.

QaradawiBooks.com

ومن غرائب المصادفات أنِّي يوم كتبتُ هذا الكلام، فتحتُ صحيفة «الأهرام» الصادرة بالقاهرة، في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٨٧م فإذا بي أجد حديثًا للمهندس الكبير حسن فتحي الَّذي فاز بلقب أحسن مهندس إنشاءات في العالَم، وإذا هو يؤكد في حديثه ما قلته هنا، ولا بأس أنْ أنقل بعض فقراته لما فيها من عبرة.

يقول: «التطوُّر والتغيُّر في العالَم يفرض لونين من التأثير للحضارات.

فهناك ما يمكن تسميته «المتبادلات في الحضارة» أي ما تنقله حضارة عن حضارة أخرى.

وهناك ما يمكن تسميته «غير المتبادلات في الحضارة» أي ما لا يصلح للنقل من مجتمع إلى مجتمع آخر.

ونحن ـ بكل أسف ـ ننقل غير المتبادلات الَّتي أفرزتها الحضارة الغربيَّة.

ونسمع فينا مَن يقول بأخذ كل شيء من الغرب. بينما إفراز الحضارة الغربيَّة فيه أشياء يمكن أن تنفعنا، وفيه ـ أيضًا ـ أشياءُ ضدَّنا وضدَّ تكويننا الحضاري.

صحيح أنَّ التغيُّر من طبيعة الحياة الإنسانيَّة، وأنَّه من المستحيل أن يمكث كلُّ شيء كما هو بحالته إلى الأبد.

ولكن لا بدَّ أنْ نعلم جميعًا أنَّ عناصر الحضارة بعضها ثابت ولا يمكن لأيِّ مستجدات أن تغيِّره، وبعضها هو الَّذي يخضع لقانون التغيُّر، والتأثر بالمتغيرات الَّتي تحدث في الدنيا من حولنا» اهـ.

QaradawiBooks.com

الإسلام يفي بكل حاجات المجتمع التقدُّمي:

ونودُّ أن نوجِّه سؤالًا صريحًا إلى هؤلاء الَّذين يهاجمون التراث الإسلامي، أو على الأقل يتوجَّسون منه خيفة: أي شيء يريده المجتمع الحديث المتقدِّم حقًّا، ولا يدعو إليه الإسلام؟ العلم؟ الحُرِّية؟ المال؟ القوَّة؟ الصحَّة؟ الحياة الطيِّبة؟ الزراعة؟ الصناعة؟ التجارة؟

إنَّ الإسلام يدعو إلى هذا كلِّه، ويُقيم عليه مجتمعه، فلنقل كلمة في كلٍّ منها:

العلم:

إنَّ العلم النافع في الإسلام ليس مجرد حقٍّ للإنسان، إن شاء حصَّله، وإن شاء تركه. بل هو فرض عَيْن أو فرض كفاية، على حسب احتياج الفرد أو احتياج المجتمع إليه، سواء أكان علم دين أم علم دنيا. والإسلام أعظم دين يكوِّن العقليَّة العلميَّة الواعية، فهو يدعو إلى البرهان، ويرفض التقليد واتِّباع الظَّنِّ والهوى، ويحثُّ على التفكير في الأمور بحياد وإنصاف: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ: ٤٦]، ويأمر بالنظر في خلق السماوات والأرض: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ويعُدُّ اتِّباع الأوهام ـ مثل تصديق الكَهَنَة والعرَّافين وأشباههم ـ كفرًا بما أنزل الله على محمَّد ﷺ. وهو يدعو إلى الاستفادة من العلم النافع أيًّا كان أهله، والتماسِ الحكمة من أيِّ وعاءٍ خرجت، فهي ضالَّة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحقُّ بها. كما يقرُّ الإحصاء والتخطيط للمستقبل، كما تدلُّ على ذلك سُنَّة النبيِّ ﷺ. ويعتبر التجربة في الشؤون الدنيويَّة كالزراعة ونحوها هي المقياس الَّذي يجب الرجوع إليه[1].

(١) راجع كتابنا: الرسول والعلم صـ ٤٧ ـ ٥٢.

QaradawiBooks.com

وقد قامت في ظل الإسلام أعظم حضارة جمعت بين العلم والإيمان، كانت كتب علمائها ـ وهي مكتوبة بالعربيَّة أساسًا ـ مراجع للعالم لعدة قرون، وكانت جامعاتها منارات للعلم يؤمُّهـا الطلاب من أنحاء الدنيا. ومن أساتذتها ومناهجها وكتبها اقتبست الحضارة الغربيَّة، وعلى أساسها قامت نهضتها، وهذا ما وضَّحناه في الفصلين السابقين.

الفنُّ:

لعلَّ الفنَّ هو أكثر ما يُشَـغَّب به على دعاة الحلِّ الإسلامي، فهم يقولـون: إنَّكم تدعـون إلى حياة تحرم فيها البسـمة علـى أيِّ فم، والبهجة على أي قلب، والزينة في أي موقع، والإحسـاس بالجمال في أي صورة.

وأحبُّ أنْ أقول: إنَّ هذا الكلام لا أسـاس له من دين الله، وإذا كان رُوح الفن هو الشـعور بالجمال، والتعبير عنه، فالإسـلام أعظم دينٍ أو مذهبٍ غرسَ حبَّ الجمال والشعور به في أعماق نفس كل مسلم.

وقارئ القرآن الكريم يلمس هذه الحقيقـة بوضوح وجلاء وتوكيد. فهو يريد من المؤمـن أنْ ينظر إلى الجمال مبثوثًا فـي الكون كله، في لوحات ربَّانيَّة رائعة الحُسـن، أبدعتها يد الخالـق البارئ المصوِّر الَّذي أحسـن خلق كلِّ شيء، وأتقن تصوير كل شـيء: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

ثم نرى القـرآن الكريم بعـد ذلك يلفـت الأنظار، ويُنبِّـه العقول والقلوب، إلى الجمال الخاص لأجزاء الكون ومفرداته.

QaradawiBooks.com

فهو يلفت النظر إلى جمال السماء من فوقنا: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٣ ـ ٥].

ويلفت النظر إلى جمال الأرض، وما أخرجت من نبات بهيج، يَسُرُّ الناظرين: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وكذلك إلى جمال الحيوان في غدواته وروحاته، في مشهد طبيعي خلّاب، يقول القرآن بعد ذكر منافع الأنعام: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦].

كما يُنبِّه على الجمال في الإنسان الَّذي خلقه الله ﴿فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧، ٨].

إنَّ القرآن بهذا كله، وبغيره، يريد أنْ يوقظ الحسَّ الإنساني، حتَّى يشعر بالجمال الَّذي أودعه الله فينا وفي الطبيعة من فوقنا، ومن تحتنا، ومن حولنا، وأنْ نملأ عيوننا وقلوبنا من هذه البهجة، وهذا الحُسن المبثوث في الكون كلِّه.

وبعض الحضارات تغفل هذا الجانب وتوجِّه أكبر همِّها إلى محاولات الإنسان إلى نقل جمال الطبيعة على حجر أو ورق، أو غير

QaradawiBooks.com

ذلك. فهو يرى السماء أو البحر أو الجبل، أو الأنعام، ولا يلتفت إلى ما فيها من سرِّ الجمال الإلٰهي، وإنَّما يلتفت إليها حين تُنقل إلى لوحة، أو صورة مشكَّلة، فليت شِعري أيهما أهم وأقوى تأثيرًا في النفس البَشريَّة: الأصل الطبيعي أم الصورة المقلَّدة؟

إنَّ الإسلام يُحيي الشعور بالجمال، ويُؤيِّد الفنَّ الجميل، ولكن بشروط معيَّنة، بحيث يصلح ولا يفسد، ويبني ولا يهدم.

وقد أحيا الإسلام ألوانًا من الفنون، ازدهرت في حضارته وتميَّزت بها عن الحضارات الأخرى، مثل فن الخط والزخرفة والنقوش: في المساجد، والمنازل، والسيوف، والأواني النحاسية والخشبية والخزفية وغيرها.

كما اهتم بالفنون الأدبية الَّتي نبغ فيها العرب من قديم، وأضافوا إليها ما تعلَّموه من الأمم الأخرى. وجاء القرآن يمثِّل قمة الفن الأدبي، وقراءة القرآن وسماعه عند مَن عقل وتأمل، إنَّما هما غذاء للوجدان والروح لا يعدله ولا يدانيه غذاء، وليس هذا لمضمونه ومحتواه فقط، بل لطريقة أدائه أيضًا، وما يصحبها من ترتيل وتجويد وتحبير تستمتع به الآذان، وتطرب له القلوب، وخصوصًا إذا تلاه قارئٌ حسن الصوت، ولهذا قال النبيُّ ﷺ لأبي موسى: «**لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود**»[1].

الحُرِّيَّة:

أمَّا الحُرِّيَّة، فقد أقرَّها الإسلام بل أوجبها وفرضها بكل أنواعها، ما لم تتضمن عدوانًا على مصلحة الإنسان، وخصائص الإنسان.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٣)، عن أبي موسى.

QaradawiBooks.com

الحُرِّيَّة الدينيَّة: وحسبنا فيها قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والحُرِّيَّة الفِكْرِيَّة: حُرِّيَّة العقل في أنْ ينظر ويفكِّر، ويرى ويرجِّح، ولا يُقلِّد غيره، فقد خُلِق العقل لذلك، وقبيح بمن أُعطي شمعةً أنْ يطفئها ويمشي في الظلمة، كما قال الإمام ابن الجوزي[1].

الحُرِّية العلميَّة: حُرِّيَّة الاجتهاد العلمي، وافق اجتهاد الغير أم خالفه، حتَّى إنَّ الإسلام يعلن أنَّ المجتهد مأجور على اجتهاده وإن أخطأ فيه، ولولا الخطأ ما تعلَّم الإنسان الصواب. ومن هنا رأينا المذاهب والمدارس الفقهيَّة والكلاميَّة والصوفيَّة ونحوها، تتعايش في الحضارة الإسلاميَّة، ويسع بعضُها بعضًا.

الحُرِّيَّة السياسيَّة: حُرِّيَّة الشعب في اختيار حاكمه، وحقه في الشورى وإلزامه بنتيجتها، وحقه في نصيحته ومراقبة أعماله، ونقد ما يراه مخالفًا للشرع أو للمصلحة منها، وفقًا لقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحقه في رفض أيِّ أمرٍ فيه معصية لله تعالى، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، بل حقِّه في خلعه إذا انحرف عن الشرع، أو عطَّل حكم الله، أو أظهر كفرًا بواحًا فيه من الله برهان.

الحُرِّيَّة المدنيَّة: حُرِّيَّة الإنسان في الحركة والتنقُّل واختيار العمل الَّذي يناسبه في المكان الَّذي يلائمه، وحريته الشخصية داخل مسكنه الخاص فلا يُتجسَّس عليه، ولا يُقتحم عليه حُرمة منزله.

وفي كل هذه الأنواع من الحُرِّيَّة نصوص صريحة لا مطعن فيها.

---

(١) انظر: تلبيس إبليس صـ ٧٤.

QaradawiBooks.com

المال:

إنَّ الإسلام: قد حثَّ على تحصيله من وجوهه المشروعة، وحسَّن تنميته بالطرق السليمة، وتوزيعه على أهله بالمعروف، وإنفاقه في الحق، وإمساكه عن الباطل، ووصف القرآن المال بأنَّ الله جعله للناس «قيامًا»، وأمر بالحجر على السفهاء الَّذين لا يحسنون التصرُّف فيه، وجعل الإسلام «الغنيَّ الشاكر» أفضلَ من «الفقير الصابر»، ووضع لذلك أفضل نظام اقتصادي عرفه البَشر، جمع خير ما في المذهبَيْن المتنازعَيْن: الرأسماليَّة والشيوعيَّة، وتنزَّه عن مساوئهما، أقرَّ المِلْكية الخاصَّة المقيَّدة بالحقِّ، والحرية المقيَّدة بالعدل، والغِنَى المقيَّد بحدود الشرع في التملُّك والتنمية والإنفاق والاستهلاك.

القوَّة العسكريَّة:

إنَّ إعدادها في الإسلام فريضة أمر بها الله ورسوله، يقول القرآن: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ [الأنفال: ٦٠]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢]. ويقول الرسول ﷺ: «**من مات ولم يَغْزُ، ولم يُحدِّث به نفسه، مات على شُعْبةٍ من النفاق**»(١)، «**مَن عَلِمَ الرميَ، ثمَّ تركه، فليس منَّا**»(٢). وهذه النصوص تقتضي فرضية التدريب العسكري على الأُمَّة كلها، استعدادًا للطوارئ الَّتي تقتضيها أنْ تنفر جميعًا، ثمَّ استمرار هذا التدريب حتَّى لا يُنسى، وبهذا تكون أمة مجاهدة قادرة على الدفاع عن نفسها، تَغزو ولا تُغزَى، فما غُزِيَ قوم في عقر دارهم إلَّا ذُلُّوا.

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٠)، وأحمد (٨٨٦٥)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٩)، عن عقبة بن عامر.

QaradawiBooks.com

الصحة العامَّة:

لقد جاء الإسلام يدعو إلى النظافة حتَّى جعلها شرطًا لصحة الصلاة، وأوصى بالاغتسال مرَّة في كل أسبوع، وجعل ذلك حقًّا على كلِّ مسلم، وحثَّ على نظافة الشَّعر والفم والأطراف بصفة خاصَّة، وأمر بنظافة البيوت والطرقات، وجعل إماطة الأذى عنها عبادة، ونهى عن التبوُّل والتبرُّز في الماء أو الظل أو الطريق، وحذَّر من العدوى وقال: «**فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد**»[(١)]، وفرض العزل الصحي على المصابين بالأوبئة كالطاعون، وحرَّم المسكرات والمخدِّرات وكلَّ ما يضرُّ بالصحَّة: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وأمر بالتداوي: «**فما أنزل اللهُ داءً إلَّا أنزل له دواء**»[(٢)]، ونهى عن الإسراف في أيِّ عملٍ يؤذي البدن، ولو كان هو العبادة: «**إنَّ لبدنك عليك حقًّا**»[(٣)].

الحياة الطيِّبة:

إنَّ الإسلام يُرحِّب بها، ويدعو إليها، بل جعلها مثوبةً للمؤمنين الصالحين في الدنيا. قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وقال للرسول ﷺ وأصحابه: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

---

(١) رواه أحمد (٩٧٢٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح وهذا إسناد ضعيف. والبخاري تعليقًا (٥٧٠٧) مجزومًا به، والبيهقي في النكاح (١٣٥/٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٧٨٣)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٣٩٢٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. وابن ماجه في الطب (٣٤٣٨)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥١)، عن ابن مسعود.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصيام، عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

QaradawiBooks.com

وأنكر القرآن بشـــدَّة على الَّذين يُحرِّمون على أنفسهم وعلى الناس زينة الله وطيِّبات الحياة: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

الإســـلام يبيح اللهو البريء، والألعاب المُسَـــلِّية، وألـــوان الرياضة والفروسيَّة في غير إسراف ولا دخول في قمار.

الإســـلام يريد حياة جادَّة عاملة يتخلَّلها اللَّهو، ولا يريد حياة لاهية عابثة يتخلَّلُها العمل.

إنَّما حرَّم الإسلام ما يضرُّ بالفرد أو الأسرة أو المجتمع، مثل أواني الذهب والفضة الَّتي هـــي أحد مظاهر الترف الَّـــذي يُدَمِّر المجتمعات، ومثل ثياب الحرير، وحليِّ الذهب، على الرجال، حفظًا لجانب الرجولة فيهم. وما حرَّم الإسلام إلَّا خبيثًا، ولا أحلَّ إلَّا طيِّبًا، وما حرَّم إلَّا عوَّض الناس خيرًا منـــه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

الزراعة:

إنَّ الإسلام قد حثَّ عليها، ورغَّب فيها أعظم الترغيب حتَّى جعل كلَّ ما يؤكل من الـــزرع أو الغـــرس، لصاحبه صدقة، ولـــو أكل منه طير أو بهيمة. والرســـول أوَّل من دعا إلى «التشـــجير». ووعد على ذلك بأوفى المثوبة عند الله: «**مَن نصب شجرةً، فصبر على حفظها والقيام عليها حتَّى تُثْمِرَ، فـــإنَّ له في كلِّ شـــيءٍ يُصاب من ثمرها صدقـــة عند الله** ﷻ»[(١)].

(١) رواه أحمد (١٦٥٨٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٩٢٨): رواه أحمد وفيه قصة وإسناده لا بأس به. عمَّن شهد النبي ﷺ.

QaradawiBooks.com

وحسْبُنا هذا الحديث الشريف: «**إذا قامت الساعةُ وفي يدِ أحدِكم فَسِيلَةٌ** (نخلة صغيرة)، **فإن استطاع ألَّا يقومَ حتَّى يغرسها، فليَغْرِسْها**»(١).

وفي كلِّ كتب الفقه الإسلامي باب لبحث شؤون المزارعة والمساقاة، وما يجوز منها وما لا يجوز، ممَّا يدلُّ على عناية المجتمع الإسلامي بها، ورعايته لها. وباب آخر لـ «إحياء الموات»، ويراد به استصلاح الأرض البور: «**ومَن أحيا أرضًا ميتةً فهي له**»(٢).

التجارة:

إنَّ القرآن يخلع عليها وصفًا جميلًا يوحي بالرضا والقبول وهو: «الابتغاء من فضل الله» ويشرع التجارة حتَّى في موسم الحج: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]. ويصف القرآن العباد المتَّقين بأنَّهم: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، فهم مع تقواهم وعبادتهم تجَّار عاملون.

والرسول ﷺ يرفع التاجر الصدوق إلى مكانةٍ لم يحلم بها أحدٌ قبل الإسلام: «**التاجرُ الصَّدوقُ الأمينُ مع النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء**»(٣).

---

(١) رواه أحمد (١٢٩٨١)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، والضياء في المختارة (٢٧١٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩)، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (١٤٨٣٩)، وقال مُخرِّجوه: حديث صحيح. والترمذي في الأحكام (١٣٧٩)، وقال: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٧٥)، عن جابر.

(٣) رواه الترمذي (١٢٠٩)، وقال: حديث حسن. والدارمي (٢٥٨١)، والحاكم (٦/٢)، شاهدًا وحكم عليه بالإرسال، والدارقطني (٢٨١٣)، أربعتهم في البيوع، وحسَّنه ابن القطان في الوهم والإيهام (٤٧٨/٤، ٤٧٩)، وقال الذهبي في الميزان (٤١٣/٣): جيد الإسناد صحيح المعنى. وقال الألباني في صحيح الترغيب (١٧٨٢): صحيح لغيره. عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

هذا على حين كان رجال الكنيسة في العصور الوسطى يعتبرون ممارسة الأعمال التجارية خطيئة؛ لأنَّها تصرف النفس عن الله!

كلُّ ما في الأمر أنَّ الإسلام وضع لها قيودًا وشروطًا، بحيث لا تكون تجارة فيما حَرَّم الله، ولا تشتمل على ظلم أو ضرر أو غرر فاحش، أو غش أو احتكار، أو تطفيف، أو أي معاملة يحظرها الإسلام.

الصناعة:

لقد جعل فقهاء الإسلام كلَّ صناعة يحتاج إليها المسلم فرض كفاية، إذا لم يقم بها عددٌ كافٍ منهم أثموا جميعًا، وبخاصَّة أولو الأمر منهم، وقد ذكر القرآن صناعات كثيرة مدنية وعسكريَّة، كصناعة السفن الَّتي علَّمها الله لنبيِّه نوح، وصنعة البناء الَّتي كان يحسنها خليل الله إبراهيم وابنه إسماعيل، وصناعة الدروع الَّتي أثنى بها على نبيِّه داود: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وصناعة السدود الَّتي أثنى بها على عبده ذي القرنين ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٦، ٩٧]، وصناعة النحاس الَّتي مَنَّ الله بها على سليمان: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢]، والصناعات المتعلقة بالحديد حربية ومدنية: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥][1]، والصناعات الزراعية: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، وصناعة الدباغة والغزل والنسيج ونحوها: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

(١) إشارة إلى الصناعات الحربية.

QaradawiBooks.com

ويبارك الإسلام كل حرفة نافعة تغني المسلم عن التكفُّف وسؤال الناس الَّذي يُحرِّمه الإسلام: «**لأنْ يأخذَ أحدُكم حَبْلَه على ظهره فيحتطبَ، خيرٌ له من أن يسأل الناس، أَعْطَوه أو منعوه**»(١).

إنَّ الإسلام يحثُّ المسلمين على أن يكونوا متفوِّقين في وسائل الدنيا ليخدموا بها أهداف الدين، يريدهم الإسلام أن يكونوا أساتذة الأمم، والشهداء على الناس ليكونوا دائمًا بحيث يستغنون عن دنيا الآخرين، والآخرون محتاجون إلى دينهم.

بناء الإنسان الصالح:

وأهمُّ من هذا كلِّه أنَّ الإسلام يبني هذا المجتمع التقدُّمي المتحرِّر على أساس مكين، حتَّى يبني «الإنسان الصالح» الَّذي هو دعامة المجتمع، وركيزة بنائه.

إنَّه يبني هذا الإنسان أولًا بالإيمان، بالعقيدة السليمة، الَّتي تُعرِّفه بسرِّ وجوده، وتصله بالأزل والأبد، وتجيبه عن أسئلته الخالدة الَّتي لا يستطيع العلم التجريبي، ولا التكنولوجيا المتطورة أن تجيبه عن شيء منها: مَن أنا؟ وما رسالتي؟ ومن أين جئتُ؟ وإلى أين أذهب؟ ولماذا أعيش؟ ولماذا أموت؟

إنَّه يبني الإنسان بالإيمان بالله وبرسالته وباليوم الآخر، ليعرف المبدأ والمصير. ثمَّ يبنيه بالعبادة الَّتي هي غاية خلقه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. بالصلاة الَّتي تصله بربه، وتعينه على ضعفه، وتمنحه المدد الروحي في معركة حياته: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٤٧٠)، ومسلم (١٠٤٢)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وبالزكاة الَّتي يُزكِّي بها نفسه، ويُطهِّر ماله، ويرضي ربَّه: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وبالصيام الَّذي يربي الإرادة ويُعلِّم الصبر، ويُذكِّر بالنعمة، ويُشعر بالمواساة والرحمة، كما يغرس في النفس مَلَكة التقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وبالحج الَّذي هو هجرة إلى الله، بزيارة بيته، وتعظيم شعائره، وتثبيت معنى عالَمية دينه وتدريب على معاني الأخوة والمساواة الَّتي دعا إليها، وشهود المنافع المادِّيَّة والمعنويَّة المتبادلة بين وفود المسلمين في هذا المؤتمر الرباني.

ثم هو يبني الإنسان بعد ذلك بالأخلاق الفاضلة، والآداب العالية، والتقاليد الصالحة، والأسوة الحسنة، حتَّى يتكوَّن في ظلها الإنسان المؤمن الصالح في نفسه والمصلح لغيره، إنسان «سورة العصر» الناجي من خسران الدنيا والآخرة، إنسان الإيمان والعمل، والتواصي بالحق والصبر: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

والأخلاق الَّتي يريدها الإسلام ليست هي أخلاق العبودية والضعف واليأس، إنَّما هي أخلاق المؤمن القوي المنتج، الواثق من نفسه، البصير بيومه، الآمل في غده، المتفائل المتفتِّح على ما حوله ومَن حوله.

أجل، إنَّ الإسلام أعظم مُوجِّه إلى هذه الأخلاق، ومجتمعه الصحيح أفضل بيئة لغرسها وتعهدها ورعايتها.

QaradawiBooks.com

أما أخلاق العجز والكسل والضعف، فالإسلام يستعيذ بالله منها، ويدعو إلى ضدِّها: «**المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمنِ الضعيف... واستعنْ بالله ولا تَعْجِز**»[١]، «**اللَّهم إنِّي أعوذ بك من الهمِّ والحزن، ومن العجز والكسل**»[٢].

كما يكره الإسلام الذلَّ والخشوع لبَشر، كائنًا ما كان، ويعلن أنَّ العزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين، ويدعو الناس جميعًا ألَّا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله. وهو يُحرِّض المؤمنين أن يقاوموا الظلم والباطل والمنكر بكلِّ وسيلةٍ يستطيعونها، باليد، ثمَّ باللسان، ثمَّ بالقلب، وذلك أضعف الإيمان.

ويجعل الركون إلى الظالمين والميل إليهم بابًا موصلًا إلى جهنَّم: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

وخُلُق التوكُّل في الإسلام ليس معناه طرح الأسباب، وترك الحذر والتدبير فقد قال تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]. وقال الرسول لصاحب الناقة: «**اعقِلْها وتوكَّلْ**»[٣]، إنَّما معنى التوكُّل: الثقة بالله وقوة اليقين بما عنده، مهما نزل بالإنسان من نكبات.

والزهد ليس معناه ترك الدنيا يستحوذ عليها الكفار والملاحدة، بل الزهد أن تجمعها في يدك ولا تمكِّنها من قلبك. الزهد أن تملك الدنيا، ولا تملكك، وألَّا تتخذها لك ربًّا، فتتخذك لها عبدًا! وقد كان في

(١) سبق تخريجه صـ٧٢.

(٢) رواه البخاري في الدعوات (٢٨٩٣)، عن أنس.

(٣) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٧)، وقال: حديث غريب. وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٩٠/٨)، وحسَّنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (٢٢)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

الصحابة المبشَّرين بالجنة مَن يملكون الملايين، وهم عند الله ورسوله من المرضيِّين المقدَّمين، إنَّ الزهد في الشيء إنَّما يكون لمن قدر عليه.

والقناعة ليس معناها الرضا بالحرمان، والترحيب بكابوس الفقر، فقد استعاذ الرسول ﷺ من الفقر، وقرنه بالكفر[١]، وإنَّما معناها ما جاء في الحديث الصحيح: «**ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض، إنَّما الغِنَى غنى النَّفس**»[٢].

والصبر ليس معناه السلبيَّة والقعود انتظارًا للفَرَج، إنَّما هو حبس النفس عن اتباع الهوى، أو الاسترسال في الجزع، وتدريبها على ركوب المصاعب والمشقَّات، فإنَّ الناس لن يدركوا ما يحبون إلَّا بصبرهم على ما يكرهون، وقد صبر النبي ﷺ والمسلمون في مكة على البلاء، في الوقت الَّذي سلك فيه كل السبل للبحث عن أرض خصبة ليهاجر إليها، ويبذر فيها دعوته، حتَّى كانت الهجرة إلى يثرب، وأقام فيها دولة الإسلام.

إنَّ هذا الإنسان هو محور التقدُّم، وروح الإسلام، ودعامة التنمية الحقيقيَّة. وهذا الإنسان المؤمن الراقي لا تصنعه القوانين الوضعيَّة، ولا الأنظمة الأرضيَّة، من رأسماليَّة أو اشتراكيَّة أو ديمقراطيَّة، إنَّما تصنعه عقيدة تُفجِّر طاقاته، وتُبرز مكنوناته. وتستثير ما في داخله من قدرات مبدعة. فيعمل أضعاف ما يعمل غيره، مع إحكام وإتقان. لأنَّ الله يحب

(١) إشارة إلى الحديث: «اللهم إنِّي أعوذ بك من الكفر والفقر». رواه أحمد (٢٠٤٠٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده قويٌّ على شرط مسلم. والنسائي في السهو (١٣٤٧)، وابن خزيمة في الصلاة (٧٤٧)، عن أبي بكرة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الرِّقاق (٦٤٤٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

منه إذا عمل عملًا أنْ يتقنه، ولأنَّ الله كتب عليه إحسان كل شيء يعمله، فهو يؤدِّي ما كتب الله عليه، ليؤدِّي الله له ما كتب على نفسه.

فليت شِعري أي رجعيَّة في هذه الأمور؟ وماذا يريد دعاة التقدُّم الحق أكثر من هذا إنْ كانوا ينصفون؟

إلَّا أنَّ من المضحــك المبكي أنْ نجد بعض الكتَّــاب والصحفيين يقول لنا إذا دعوناهم إلى الإسلام:

نحن لا نريد أن ندع السيَّارات، لنعود إلى ركاب الجمال!

ولا نريد أن ندع القصور والعمارات، لنعود إلى سكنى الخيام!

ولا نريد أن ندع الطبَّ الحديث، لنعالج مرضانا بالتمائم والرُّقَى!

ولا نريد أن ندع ماكينات الريِّ، لنستعمل الشادوف والسواقي!

ولا نريد أن ندع مصابيح الكهرباء، لنعود إلى سراج الزَّيت!

هكذا والله ما كتبه يومًا بعض رؤساء التحرير في صحف عربيَّة سيَّارة!

فهل هؤلاء الكتَّاب يضحكون على أنفسهم أم يضحكون على قرَّائهم؟

هل هم عُمْيٌ عن الحقيقة أم متعامُون؟

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٥٢، ٥٣].

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

دولة إسلاميَّة.. لا دولة دينيَّة

أصدر الدكتور «فرج فودة» كتابًا سمَّاه «قبل السقوط» يُؤيِّد به العِلمانيَّة، ويهاجم الدعوة إلى تحكيم الشريعة الإسلاميَّة، وقد كفانا الردَّ عليه أخونا الأديب الباحث الفاضل الأستاذ عبد المجيد صبح حفظه الله. ولكنِّي أذكر هنا نموذجًا ممَّا قاله في تأييد عِلمانيَّته:

قال: «إنَّ المنادين بتطبيق الشريعة الإسلاميَّة فورًا دون إبطاء، يُردِّدون في ذات الوقت مقولة تبدو في ظاهرها منطقية، يواجهون بها كلَّ مَن يتصدَّى لهم بمجرَّد النقاش، وهي مقولة تُطْرَح في شكل سؤال منطقي: ما الَّذي يخيفك من تطبيق الحدود؟ إنَّها لن تُطبَّق إلَّا على سارقٍ أو زانٍ أو شارب خمرٍ أو مرتدٍّ أو مفسدٍ في الأرض، وهو تساؤل يبدو في ظاهره مفحمًا، لكنَّه يخفي حقيقة أرجو أنْ يلهمني الله القدرة على إيضاحها، وهي أنَّ تطبيق الشريعة الإسلاميَّة ليس مسألة «جزئيَّة» تتعلَّق بإقامة بعض الحدود، وإنَّما هو مدخل لتداعيات يهرب أنصار التطبيق الفوري للشريعة من إيضاحها، أو يغالطون في بيان أبعادها الحقيقيَّة.

إنَّ تطبيق الشريعة الإسلاميَّة لا بدَّ أنْ يعود إلى دولة دينيَّة، والدولة الدينيَّة لا بدَّ أن تقود إلى حكم بالحق الإلٰهي لا يعرفه الإسلام، أو قُلْ

QaradawiBooks.com

عرفه فقط في عهد الرسول، والحكم بالحق الإلٰهي لا يمكن أن يُقام إلَّا من خلال رجال دين، إمَّا بصورة مباشرة أو غير مباشرة»[١] اهـ.

وقال الدكتور وحيد رأفت: «دعاة تطبيق الشريعة يريدون أنْ يصبحوا «كهنة آمون» من جديد، لأنَّهم وحدهم الَّذين يملكون تفسير الشريعة، وإقامة «الثيوقراطيَّة» الدينيَّة، حيث سيطرة رجال الدين، والحكم بالحق الإلٰهي، وحافزهم على ذلك النموذج الإيراني»[٢].

وألحَّ الدكتور فؤاد زكريا ـ في مقالاته الَّتي نشرها في «الأهرام» في صيف ١٩٨٥م، والتي نشرها في كتابه «الحقيقة والوهم»[٣] وفي مقدمة كتابه وخاتمته ـ على ترديد كلمة «الحكم الإلٰهي» الَّذي ينادي به دعاة تطبيق الشريعة الإسلاميَّة، ليوهم قارئه بهذه العبارة أنَّهم يدعون إلى دولة دينيَّة «ثيوقراطيَّة».

وفي هذا الاتجاه نفسه مضت مقالات الدكتور لويس عوض في مجلة «المُصَوِّر» عن «قصَّة العِلمانيَّة» في مصر (سنة ١٩٨٣م)، وفيها اتَّهم حكم الإسلام: أنَّه بالرغم من أنَّه دين يقوم على الفلسفة الإنسانيَّة، وهو في جوهره لا يعرف حكم الكهنوت، قد عرف الدورات الثيوقراطيَّة والهيومانية! وزعم في حديث له مع «المصَوِّر» أنَّ معركة الديمقراطيَّة المصريَّة كانت دائمًا معركة بين الحق الطبيعي وبين مَن يدَّعون بالحق

(١) انظر: قبل السقوط لفرج فودة صـ ٤٢ ـ ٤٣، نشر مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.

(٢) مجلة فكر، العدد (٨)، ديسمبر ١٩٨٥ صـ ٧٣، ٧٤. ندوة التطرف السياسي الديني بتصرف. نقلًا عن مقال أكذوبة الحكم الإلٰهي للأستاذ فهمي هويدي، جريدة الأهرام، بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٨٦م.

(٣) وقد رددنا عليها في كتابنا: الإسلام والعلمانية صـ ١٢٤ وما بعدها.

QaradawiBooks.com

الإلٰهي، والذين يدَّعون بالحق الإلٰهي يريدون حرمان الشعب من ممارسة حقه الطبيعي كمصدر للسلطات.

وكتب الأستاذ شبلي العيسمي كتابًا عنوانه «العِلمانيَّة والدولة الدينيَّة» أوهم فيه التقابل بين المفهومين، فإمَّا العِلمانيَّة وإمَّا الدولة الدينيَّة، ولا يُتصوَّر أمرٌ ثالث في وَهْمه، والدولة الدينيَّة هي دولة «رجال الكهنوت» الَّذين يُضفون على تصرُّفاتهم العصمة والقداسة، فما حلُّوه في الأرض فهو محلول في السماء، وما عقدوه في الأرض فهو معقود في السماء، وليس من حقِّ أحدٍ أنْ يقول لأحدهم: أسأتَ أو أخطأت، لأنَّه بهذا يعترض على الله الَّذي يتحدث باسمه، والذي هو وكيله على الناس!

دولة الإسلام دولة مدنية:

ونريد أنْ نقول لهؤلاء الَّذين يتَّهمون دعاة الإسلام بأنهم يدعون لإقامة دولة دينيَّة: إنَّكم تقولون على دعاة الإسلام غير الحق، وتُقوِّلونهم ما لم يقولوا، فهم يدعون أبدًا إلى إقامة دولة إسلاميَّة، ولم يدعوا يومًا ـ ولن يدعوا ـ إلى دولة دينيَّة.

وفرق كبير بين الدولة الإسلاميَّة، أي الدولة الَّتي تقوم على أساس الإسلام، والدولة الدينيَّة الَّتي عرفها الغرب النصراني في العصور الوسطى. وعِلَّة ذلك أنَّ هناك خلطًا بين ما هو إسلامي وما هو ديني، فكثيرون يحسبون أنَّ كل ما هو إسلامي يكون دينيًّا. والواقع أنَّ الإسلام أوسع وأكبر من كلمة دين. حتَّى إنَّ علماء الأصول المسلمين جعلوا «الدين» إحدى الضروريات الخمس أو الست الَّتي جاءت الشريعة لحفظها، وهي: الدين والنفس والعقل والنسب والمال، وزاد بعضهم: العِرض.

QaradawiBooks.com

أضرب مثلًا موضحًا: نحن ندعو إلى تربية إسلاميَّة متكاملة، وهذه التربية تشمل أنواعًا من التربية تبلغ بضعة عشر نوعًا، إحداها: التربية الدينيَّة، إلى جوار التربية العقليَّة والجسمية والخُلُقية والعسكريَّة والاجتماعيَّة والاقتصادية والسياسيَّة والعلميَّة والأدبية والمهنية والفنية والجنسية، إلخ. فالتربية «الدينيَّة» شُعْبة واحدة من شُعَب التربية «الإسلاميَّة» الكثيرة.

فالخطأ كل الخطأ الظنُّ بأنَّ الدولة الإسلاميَّة الَّتي ندعو إليها دولة دينيَّة. إنَّما الدولة الإسلاميَّة «دولة مدنية» تقوم على أساس الاختيار والبيعة والشورى، ومسؤوليَّة الحاكم أمام الأُمَّة، وحق كل فرد في الرعية أنْ ينصح لهذا الحاكم، ويأمره بالمعروف، وينهاه عن المنكر، بل يعتبر الإسلام هذا واجبًا كفائيًّا على المسلمين، ويصبح فرض عَيْن إذا قدر عليه وعجز غيره عنه أو جبن عن أدائه.

إنَّ الحاكم في الإسلام مُقَيَّد غير مطلق، فهناك شريعة تحكمه، وقِيَم توجهه، وأحكام تُقَيِّده، وهي أحكام لم يضعها هو ولا حزبه أو حاشيته، بل وضعها له ولغيره «ربُّ الناس، مَلِك الناس، إلٰه الناس». ولا يستطيع هو ولا غيره من الناس أنْ يلغوا هذه الأحكام أو يجمِّدوها، فلا مَلِك، ولا رئيس، ولا برلمان، ولا حكومة، ولا مجلس ثورة، ولا لجنة مركزية، ولا مؤتمر للشعب، ولا أي قوَّة في الأرض تملك أن تغيِّر من أحكام الله الثابتة شيئًا.

ومن حقِّ أي مسلم أو مسلمة إذا أمره الحاكم بما يخالف شريعة الله، أنْ يرفض، بل من واجبه أنْ يرفض؛ لأنَّه إذا تعارض حق الحاكم وحق الله، فحق الله مقدَّم ولا شك، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

QaradawiBooks.com

والقرآن حين ذكر بيعة النساء للنبي ﷺ وفيها طاعة النبي وعدم معصيته عليه السلام قيَّد ذلك بقوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢]، هذا وهو المعصوم المؤيَّد بالوحي، فغيره أولى أنْ تكون طاعته مقيَّدة. وفي الحديث الصحيح المتفق عليه: «**إنَّما الطاعةُ في المعروف**»[١]، والحديث الآخر: «**السمعُ والطاعةُ حقٌّ على المرء المسلم فيما أحبَّ وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمِر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»[٢].

وقد قال أوَّل خليفة في الإسلام في أوَّل خطاب له: «أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأتُ فقوِّموني»[٣].

والحاكم أو الإمام، أو الخليفة، في الإسلام ليس وكيل الله، بل هو وكيل الأُمَّة، هي الَّتي تختاره، وهي الَّتي تراقبه، وهي الَّتي تعزله، وقد قال عمر: «مَن رأى منكم فيَّ اعوجاجًا فليُقوِّمني»[٤].

ورفض سلمان أنْ يسمع لأمير المؤمنين عمر، حتَّى يُفسِّر له: كيف كفته قطعة «القماش» الَّتي وزَّع مثلها على سائر الصحابة، وهو رجل طوال، لا تكفيه قطعة واحدة لثوبٍ كامل؟

واستجاب أمير المؤمنين وقام ابنه عبد الله يُفسِّر ذلك بأنَّه تنازل عن قطعته الَّتي كانت من نصيبه لأبيه[٥]!

---

(١) رواه البخاري في الأحكام (٧١٤٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٤٠)، عن علي بن أبي طالب.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٧١٤٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٩)، عن ابن عمر.

(٣) رواه الطبري في تاريخه (٢١٠/٣)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٤١٥/٩)، وصحَّح إسناده، عن أنس.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٢٩).

(٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية (١٢٣/٢)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

QaradawiBooks.com

وردَّت امرأة على عمر وهو يخطب، فرجع عن قوله إلى قولها[١].

ودخل الفقيه التابعي الجليل أبو مسلم الخولاني على معاوية وهو خليفة فقال: السلام عليك أيها الأجير! فأنكر عليه بعض مَن حوله، وأعاد قوله، وأعادوا قولهم. فقال معاوية: دعوا أبا مسلم، فهو أعلم بما يقول[٢].

وقال عمر بن عبد العزيز: إنَّما أنا واحد منكم، غير أنَّ الله جعلني أثقلكم حملًا[٣].

وقال صلاح الدين الأيوبي: إنَّما أنا عبد الشرع وشحنته، أي: شرطيُّه وجنديُّه، أي مهمتي الحراسة والتنفيذ[٤].

شُبهات العِلمانيِّين في دعوى الدولة الدينيَّة:

فعلام استند العلمانيون في اتهامهم للإسلاميِّين بالدعوة إلى إقامة دولة دينيَّة؟

لقد تأملتُ فيما كتبوه في ذلك فوجدته يدور حول شُبهات محدودة، أسجلها بأمانة، ثمَّ أردُّ عليها:

١ ـ فكرة «الحاكميَّة» الَّتي نادى بها في عصرنا إمامان من أئمَّة الدعوة والفكر، وهما أبو الأعلى المَوْدودي، وسيد قطب، رحمهما الله. ومؤداها: أنَّ

(١) رواه عبد الرزاق في النكاح (١٠٤٢٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٥٠٦)، والبيهقي في الصداق (٢٣٣/٧)، وقال منقطع. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٥٠٢): رواه أبو يعلى في الكبير وفيه مجالد بن سعيد وفيه ضعف وقد وثق. وذكره البوصيري في إتحاف الخيرة (٣٢٧٦)، بسند أبي يعلى. وجوَّد إسناده ابن كثير في تفسيره (٢٤٤/٢)، والسخاوي في المقاصد (٨١٤).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٢٥/٢)، وابن عساكر في تاريخه (٢٢٣/٢٧).

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات (٣٤٠/٥)، والدارمي في المقدمة (٤٣٣).

(٤) ذكره ابن جبير في رحلته صـ ٢٤٤، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت.

QaradawiBooks.com

الحكم لله تعالى، وليس لأحدٍ من البَشر، فالكون مملكته سبحانه، وليس لأحدٍ فيها حكم دونه ولا معه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

٢ ـ كلمة قالها سيدنا عثمان رضي الله عنه في حصاره، فتلقَّفها الدكتور فرج فودة وضخَّمها وجعل منها حُجَّة لا تُدْحض، ودعامة لا تُنقض، قال: «لكن الأمر المؤكد أنَّ نظريَّة الحكم بالحق الإلٰهي، تجد تأصيلًا قويًّا في مقولة الخليفة عثمان بن عفان حين طلب منه الثائرون عليه أنْ يعتزل الخلافة، فأجابهم بالعبارة الَّتي أصَّلت تصوُّر الحكم بالحق الإلٰهي عند مَن تلاه: «لا والله، إنِّي لن أنزع رداءً سربلنيه الله»[1]. وهي العبارة الَّتي وضعت الفكر السياسي الإسلامي كلَّه عند مفترق طرق بين أغلبيَّة تأخذ برأي عثمان رضي الله عنه، في أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الَّذي يولِّي الخليفة، ومن ثَمَّ فلا حقَّ للرعية في نزع الإمام من مكان رفعه الله إليه، وأقلية ترى أنَّ الأمة مصدر السُّلطات، هي الَّتي تولِّي وهي الَّتي تعزل، وهو الرأي الَّذي تبنَّاه المعتزلة فيما بعد، ولعلَّ في تسميتهم بالمعتزلة دليلًا على موقف الدولة الإسلاميَّة منهم وموقفهم منها»[2] اهـ.

٣ ـ كلمة أخرى تُنسب إلى أبي جعفر المنصور، الخليفة العبَّاسي، فبعد أنْ استولى العباسيُّون على زمام الملك، وأصبح الأمر بأيديهم بعد سقوط دولة بني أُمَيَّة، حيث قال في خطبةٍ له بمكَّة: «أيُّها النَّاس، إنَّما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسُكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على

(١) رواه الدارقطني في الأحباس (٤٤٤٢).

(٢) انظر: قبل السقوط لفرج فودة صـ ٥٧.

QaradawiBooks.com

ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه، فقد جعلني الله عليه قفلًا إنْ شاء أنْ يفتحني فتحني لإعطائكم وقَسْم أرزاقكم، وإن شاء أن يُقْفِلَني عليها أقفلني»[1].

٤ ـ تجربة الثورة الإيرانيَّة المعاصرة، حيث يقوم على الحكم فيها رجال الدين هناك، وعلى رأسهم رجل الدِّين الأكبر عندهم آية الله الخميني، ممَّا يعطي انطباعًا لأوَّل وهلة أنَّ الحكم هناك حكمٌ دينيٌّ بحت، وأنَّ أي حكم إسلامي يقوم عندنا سيكون نسخة من الحكم الإيراني القائم عندهم.

* * *

(١) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٢٣٦٧)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، نشر دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ.

QaradawiBooks.com

فكرة الحاكميَّة ومدى صلتها بالدولة الدينيَّة

ولنبدأ بمناقشة فكرة «الحاكميَّة» الَّتي زعم زاعمون أنَّها لا تأتي إلَّا بدولة دينيَّة.

والحقُّ أنَّ فكرة الحاكميَّة أساء فَهمها الكثيرون، وأدخلوا في مفهومها ما لم يُرِدْه أصحابها. وأودُّ أنْ أنبِّه هنا على جملة ملاحظات حول هذه القضيَّة:

١ ـ **الملاحظة الأولى**: أنَّ أكثر مَن كتبوا عن «الحاكميَّة» الَّتي نادى بها المَوْدودي وأخذها عنه سيِّد قُطْب، ردُّوا أصل هذه الفكرة إلى «الخوارج» الَّذين اعترضوا على عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه في قبوله فكرة التحكيم من أساسها، وقالوا كلمتهم الشهيرة: «لا حُكْم إلَّا لله». وردَّ عليهم الإمام بكلمته التاريخيَّة البليغة الحكيمة حين قال: «كلمة حقٍّ يُراد بها باطل[١]! نعم، لا حُكْمَ إلَّا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلَّا لله! ولا بدَّ للناس من أمير بَرٍّ أو فاجِرٍ»[٢]!

وهذا المعنى الساذج للحكم أو الحاكميَّة أصبح في ذمَّة التاريخ، ولم يعد أحد يقول به، حتَّى الخوارج أنفسهم وما تفرَّع عنهم من الفِرق، فهم

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠٦٦)، عن عبيد الله بن أبي رافع.
(٢) رواه ابن أبي شيبة في الجَمَل (٣٩٠٦٢)، والبيهقي في قتال أهل البغي (١٨٤/٨).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

طلبوا الإمارة، وقاتلوا في سبيلها، وأقاموها بالفعل، في بعض المناطق، فترات من الزمان.

أمَّا الحاكميَّة بالمعنى التشريعي، ومفهومها: أنَّ الله سبحانه هو المشرِّع لخلقه، وهو الَّذي يأمرهم وينهاهم، ويحـلُّ لهم ويحرِّم عليهم، فهذا ليس من ابتكار المَوْدودي ولا سـيِّد قُطْـب، بل هو أمر مقرَّر عند المسـلمين جميعًا. ولهذا لم يعترض عليٌّ ﷺ على المبدأ، وإنَّما اعترض على الباعث والهدف المقصود من وراء الكلمة. وهذا معنى: «كلمة حقٍّ يُراد بها باطل».

وقد بحـث في هـذه القضيَّة علماء «أصـول الفقه» فـي مقدِّماتهم الأصولية الَّتي بحثوا فيها عن الحكم الشرعي، والحاكم، والمحكوم به، والمحكوم عليه.

فها نحن نجد إمامًا مثل أبي حامـد الغزالي يقول في مقدمات كتابه الشـهير «المسـتصفى من علم الأصول» عن «الحكم» الَّـذي هو أوَّل مباحث العلم، وهو عبارة عن خطاب الشرع، ولا حكم قبل ورود الشرع، وله تعلُّـق بالحاكم، وهو الشـارع، وبالمحكوم عليـه، وهو المكلف، وبالمحكوم فيه، وهو فعل المكلف.

ثم يقول: «وفي البحث عن الحاكـم يتبيَّن أن «لا حُكْم إلَّا لله»، وأن لا حكم للرسول، ولا للسيد على العبد، ولا لمخلوق على مخلوق، بل كل ذلك حكم الله تعالى ووضعه، لا حكم لغيره»[1].

ثم يعود إلى الحديث عن «الحاكـم» وهو صاحب الخطاب الموجَّه إلى المكلفيـن، فيقول: «أما اسـتحقاق نفوذ الحكم فليـس إلَّا لمن له

(١) المستصفى صـ ٨، نشر دار صادر، بيروت.

QaradawiBooks.com

الخلق والأمر، فإنَّمـــا النافذ حكم المالك علـــى مملوكه، ولا مالك إلَّا الخالق، فلا حكم ولا أمر إلَّا له، أما النبي ﷺ، والسلطان والسيد والأب والزوج، فإذا أمروا وأوجبوا لم يجب شيء بإيجابهم، بل بإيجاب من الله تعالى طاعتهم، ولولا ذلك لكان كل مخلوق أوجب على غيره شيئًا كان للموجب عليه أن يقلب عليه الإيجاب، إذ ليس أحدهما أولى من الآخر، فإذن الواجب طاعة الله تعالى، وطاعة مَن أوجب الله تعالى طاعته»[(١)].

٢ ـ **الملاحظة الثانية**: أن «الحاكميَّة» الَّتي قال بها المَوْدودي وقطب، وجعلاها لله وحده، لا تعني أنَّ الله تعالى هو الَّذي يولِّي العلماء والأمراء، يحكمون باسمه، بل المقصود بها الحاكميَّة التشريعيَّة فحسب، أما سند السُّلطة السياسيَّة فمرجعه إلى الأُمَّة، هي الَّتي تختار حكَّامها، وهي الَّتي تحاســبهم، وتراقبهم، بل تعزلهم. والتفريق بين الأمرين مهم، والخلط بينهما موهــم ومضلِّــل، كما أشــار إلى ذلــك الدكتور أحمــد كمال أبو المجد، بحق[(٢)].

فليس معنى الحاكميَّة الدعوة إلى دولة ثيوقراطيَّة، بل هذا ما نفاه كلٌّ من سيِّد قُطْب والمَوْدودي رحمهما الله.

(١) المستصفى صـ ٦٦. وفي فواتح الرحموت: «مسألة: لا حكم إلَّا من الله تعالى، بإجماع الأُمَّة، لا كما في كتب بعض المشــايخ أن هذا عندنا، وعند المعتزلة: الحاكم العقل، فإنَّ هذا ممَّا لا يجترئ عليه أحد ممَّن يدَّعي الإسلام، بل إنما يقولون: إنَّ العقل معرِّف لبعض الأحكام الإلٰهية، سواء ورد به الشرع أم لا، وهذا مأثور عن أكابر مشايخنا أيضًا (يعني الماتريدية)». فواتح الرحموت المطبوع مع المستصفى (٢٥/١).

(٢) انظر: بحث نحو صيغة جديدة للعلاقة بين القومية العربية والإســلام صـ ٥٣٠، ٥٧٠، ضمن بحوث ومناقشات ندوة القومية العربية والإسلام، التي نظمها ونشر بحوثها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

QaradawiBooks.com

أمَّا سـيِّد قُطْب فقال في «معالمه»: «ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولَّى الحاكميَّة في الأرض رجال بأعيانهم ـ هم رجال الدين ـ كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة، كما كان الحال فيما يُعرف باسم «الثيوقراطيَّة» أو الحكم الإلٰهي المقدَّس! ولكنَّها تقوم بأنْ تكون شريعة الله هي الحاكمة، وأنْ يكون مردُّ الأمر إلى الله وفق ما قرَّره من شريعة مُبَيَّنة»[١].

وأمَّا المَوْدودي فقد أخذ بعـض الناس جزءًا من كلامه وفهموه على غير ما يريد، ورتَّبوا عليه أحكامًا ونتائج لم يقل بها، ولا تتفق مع سائر أفكاره ومفاهيـم دعوته، الَّتي فصَّلها في عشـرات الكتب والـرسـائل والمقـالات والمحاضرات. وهـذا ما يحدث مـع كلام الله تعالى وكلام رسوله، إذ أُخِذَ جزء منه معزولًا عن سياقه وسباقه، وعن غيره ممَّا يكمله أو يُبيِّنه أو يُقيِّده، فكيف بكلام غيرهما من البَشر؟

فقد ذكر المَوْدودي خصائص الديمقراطيَّة الغربيَّة ثمَّ قال: «وأنت ترى أنَّها ليست من الإسلام في شـيء. فلا يصح إطلاق كلمة «الديمقراطيَّة» على نظام الدولة الإسـلاميَّة، بل أصـدق منها تعبيرًا كلمـة «الحكومة الإلٰهيَّة أو الثيوقراطيَّة».

ثم استدرك فقال: «ولكن الثيوقراطيَّة الأوربيَّة تختلف عنها الحكومة الإلٰهيَّة «الثيوقراطيَّة الإسلاميَّة» اختلافًا كليًّا، فإنَّ أوربا لم تعرف منها إلَّا الَّتي تقوم فيها طبقة من السدنة مخصوصة يشـرِّعون للناس قانونًا مـن عنـد أنفسهم[٢] حسَب ما شاءت أهواؤهم وأغراضهم، ويُسلِّطون ألوهيَّتَهم

(١) معالم في الطريق للشهيد سيد قطب صـ ٦٠، نشر دار الشروق، القاهرة.

(٢) لم يكن عند البابوات القساوسة المسيحيين شيء من الشريعة إلاَّ مواعظ خُلُقية مأثورة عن =

QaradawiBooks.com

على عامَّة أهل البلاد متستِّرين وراء القانون الإلٰهي، فما أجدر مثل هذه الحكومة أن تسمَّى بالحكومة الشيطانيَّة منها بالحكومة الإلٰهيَّة!

وأمَّا الثيوقراطيَّة الَّتي جاء بها الإسلام، فلا تستبدُّ بأمرها طبقة من السدنة أو المشايخ، بل هي الَّتي تكون في أيدي المسلمين عامَّة، وهم الَّذين يتولَّون أمرها والقيام بشؤونها وفق ما ورد به كتاب الله وسُنَّة رسوله. ولئن سمحتم لي بابتداعِ مصطلحٍ جديدٍ لآثرْتُ كلمة «الثيوقراطيَّة الديمقراطيَّة» أو «الحكومة الإلٰهيَّة الديمقراطيَّة» لهذا الطراز من نظم الحكم؛ لأنَّه قد خُوِّل فيها للمسلمين حاكميَّة شعبيَّة مقيَّدة، وذلك تحت سُلطة الله القاهرة وحكمه الَّذي لا يُغْلَب، ولا تتألَّف السُّلطة التنفيذيَّة إلَّا بآراء المسلمين، وبيدهم يكون عزلها من منصبها، وكذلك جميع الشؤون الَّتي يوجد عنها في الشريعة حكم صريح لا يُقطع فيها بشيء إلَّا بإجماع المسلمين.

وكلَّما مسَّت الحاجة إلى إيضاح قانون، أو شرح نصٍّ من نصوص الشرع، لا يقوم ببيانه طبقة أو أسرة مخصوصة فحسب، بل يتولى شرحه وبيانه كل مَن بلغ درجة الاجتهاد من عامَّة المسلمين»[1].

فمن هذه الوجهة يُعَدُّ الحكم الإسلامي «ديمقراطيًّا». فهذا ما يُفهم من مجموع كلام المَوْدودي، وإن كان لنا تحفُّظ على تسميته الحكومة

= المسيح عليه السلام ولأجل ذلك كانوا يشرِّعون القوانين حسب ما تقتضيه شهوات أنفسهم، ثم ينفذونها في البلاد قائلين: إنَّها من عند الله. كما ورد في التنزيل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. (المودودي).

(١) نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور لأبي الأعلى المودودي صـ ٣٤ ـ ٣٦، نشر دار الفكر، ١٩٦٧م.

QaradawiBooks.com

الإسلاميَّة «ثيوقراطيَّة» لما فيه من إيهام التشابه بـ «الثيوقراطيات» المعروفة في التاريخ، وإن نفى هو ذلك.

٣ ـ **الملاحظة الثالثة**: أنَّ الحاكميَّة التشريعيَّة الَّتي يجب أن تكون لله وحده، وليست لأحدٍ من خلقه، هي الحاكميَّة «العليا» و«المطلقة» الَّتي لا يحدُّها ولا يقيِّدها شيء، فهي من دلائل وحدانية الألوهيَّة.

وهذه الحاكميَّة ـ بهذا المعنى ـ لا تنفي أن يكون للبَشر قَدْر من التشريع أَذِنَ به الله لهم. إنَّما هي تمنع أن يكون لهم استقلال بالتشريع غير مأذون به من الله، وذلك مثل التشريع الديني المحض، كالتشريع في أمر العبادات بإنشاء عبادات وشعائر من عند أنفسهم، أو بالزيادة فيما شرع لهم باتباع الهوى، أو بالنقص منه كمًّا أو كيفًا، أو بالتحوير والتبديل فيه زمانًا أو مكانًا أو صورة. ومثل ذلك التشريع في أمر الحلال والحرام، كأن يحلُّوا ما حَرَّم الله، أو يُحَرِّموا ما أحَلَّ الله، وهو ما اعتبره النبي ﷺ نوعًا من «الربوبيَّة» وفسَّر به قوله تعالى في شأن أهل الكتاب: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وكذلك التشريع فيما يصادم النصوص الصحيحة الصريحة كالقوانين الَّتي تقرُّ المنكرات، أو تشيع الفواحش ما ظهر منها وما بطن، أو تعطِّل الفرائض المحتَّمة، أو تلغي العقوبات اللازمة، أو تتعدَّى حدود الله المعلومة.

أما فيما عدا ذلك فمن حقِّ المسلمين أن يشرِّعوا لأنفسهم. وذلك في دائرة ما لا نصَّ فيه أصلًا، وهو كثير، وهو المسكوت عنه الَّذي جاء فيه حديث: «**وما سَكَتَ عنه فهو عفو**»[1]. وهو يشمل منطقة فسيحة من حياة الناس.

(١) سبق تخريجه صـ٨٨.

QaradawiBooks.com

ومثل ذلك ما نصَّ فيه على المبادئ والقواعد العامَّة دون الأحكام الجزئيَّة والتفصيليَّة.

ومن ثَمَّ يستطيع المسلمون أن يُشرِّعوا لأنفسهم بإذنٍ من دينهم في مناطق واسعة من حياتهم الاجتماعيَّة والاقتصادية والسياسيَّة، غير مقيَّدين إلَّا بمقاصد الشريعة الكُلِّيَّة، وقواعدها العامَّة. وكلها تراعي جلب المصالح، ودرء المفاسد، ورعاية حاجات الناس أفرادًا وجماعات.

وكثير من القوانين التفصيليَّة المعاصرة لا تتنافى مع الشريعة في مقاصدها الكُلِّيَّة، ولا أحكامها الجزئيَّة؛ لأنَّها قامت على جلب المنفعة، ودفع المضرَّة، ورعاية الأعراف السائدة.

وذلك مثل قوانين المرور أو الملاحة أو الطيران، أو العمل والعمال، أو الصحة أو الزراعة، أو غير ذلك ممَّا يدخل في باب السياسة الشرعية، وهو باب واسع[١].

ومن ذلك تقييد المباحات تقييدًا جزئيًّا ومؤقتًا، كما منع سيدنا عمر الذبح في بعض الأيام، وكما كره لبعض الصحابة الزواج من غير المسلمات حتَّى لا يقتدي بهم الناس، ويكون في ذلك فتنة على المسلمات[٢].

(١) انظر كتابنا: شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل مكان وزمان صـ ١٢٥ وما بعدها، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

(٢) رواه ابن جرير في التفسير (٧١٦/٣)، عن شقيق قال: تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: خلِّ سبيلها. فكتب إليه: أتزعم أنَّها حرام فأخلِّي سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنَّها حرام، ولكن أخاف أن تعاطوا المومسات منهن. وصحح إسناده ابن كثير في التفسير (٥٨٣/١).

QaradawiBooks.com

والأستاذ المَوْدودي ـ وهو أشهر مَن نادى بالحاكميَّة، وتشدَّد فيها ـ قد جعل للناس مُتَّسعًا في التشريع فيما وراء القطعيَّات والأحكام الثابتة والحدود المقـــرَّرة. وذلك عن طريق تأويل النصوص وتفســـيرها، وعن طريق القياس، وطريق الاستحسان، وطريق الاجتهاد[١].

* * *

غير مرخصة للطباعة

(١) انظر: نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور صـ ١٧١ وما بعدها.

نسخة معدلة

QaradawiBooks.com

مقولة عثمان

أما عثمان رضي الله عنه، فلم يزعم يومًا من الأيام أنَّه يحكم بحقٍّ إلٰهي. والثابت أنَّه بويع من المسلمين على أنْ يحكم بكتاب الله وسُنَّة رسوله، وأن يسير سيرة الشيخين قبله.

وليس في سيرته رضي الله عنه، ولا في أقواله ما يؤيِّد دعوى أنَّه كان يحكم في الأرض باسم السماء، بل روي عنه قوله: «أَمْرِي لأمركم تَبَع»[(١)].

وحين ثار عليه مَن ثار من الغاضبين والطائشين، وأنكروا عليه بعض أمور من سيرته في الرعية ـ أشاعها مَن أشاعها من أعداء الإسلام، وصدَّقها مَن صدَّقها من المغرَّر بهم من المسلمين ـ لم يقل لهم: إنَّ معي حقًّا إلٰهيًّا أحكم به، فليس لكم إلَّا أن تذعنوا. بل دافع عن نفسه وعن تصرفاته دفاعًا مجيدًا، بالمنطق العلمي والموضوعي، لا بأي دعوى أخرى.

وأمَّا كلمة: «قميص سَرْبَلَنِيه اللهُ لا أخلعه»[(٢)]، فقد قيل: إنَّما قال ذلك لأنَّ النبيَّ ﷺ أوصاه بذلك في نبوءة من نبوءات الغيب، حيث قال له: «**إنَّ الله لعلَّه يُقَمِّصُكَ قميصًا، فإنْ أرادك أحدٌ على خلعه، فلا تخلعْه**»

(١) رواه الطبري في تاريخه (٤/٣٤٤، ٣٤٥).
(٢) سبق تخريجه صـ١٩٠.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ثلاث مرَّات[١]. وهنا يكون موقفه موقف امتثال وتنفيذ لوصية النبي ﷺ، وتوجيهه له.

وإذا لم يصح ذلك ـ عند بعض النـــاس ـ فهو إنَّما يقصد بكلمته ألَّا تصبح الخلافة ألعوبة في يد الطائشين والمتعجِّلين، الَّذين تُحَرِّكهم قوًى خَفِيَّة، تستغلُّ حماسَهم وهم لا يشعرون.

ومن المعلوم الَّذي لا شكَّ فيه أنَّ الَّذين طالبوه بالتخلي عن منصبه ليسوا هم أهل الحل والعقد، الَّذين هم أولو الأمر، وأصحاب الشأن في هذه القضيَّة، حتَّى يسلِّم الخليفة لهم، وينزل على رأيهم.

وفيما ذكره الطبري وابـــن كثير وغيرهما: أنَّه أبـــى أن ينزع قميصًا قمَّصه الله إيَّاه ـ وهو الخلافـــة ـ ويترك أُمَّة محمَّد يعـــدو بعضها على بعض، ويُوَلِّي «الســـفهاء والغوغـــاء» مَن يختارونه هـــم، فيقع الهَرْج، ويفسد الأمر[٢].

«فعثمان بن عفان ـ ذلك الخليفة المظلوم ـ كان يتحدَّث عن بيعةٍ له، وكان يعلم أنَّ الَّذيـــن بايعوه لم ينقضوا بيعتـــه، وأنَّ الَّذين خرجوا عليه وطالبوا بخلعه كانوا قِلَّة من الغاضبين أو الطائشين، وكان يرى بعينيه نُذُر فتنةٍ تُهدِّد كيان الأمة، وعندما رفض أن يستجيب للخارجين على خلافته، فإنَّه قرر أنْ يُقدِّم نفســـه فداءً وقربانًا، وكان بوســـعه أن يســـتنفر مؤيديه

(١) رواه أحمد (٢٤٤٦٦)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والترمذي في المناقب (٣٧٠٥)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في المقدمة (١١٣)، وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٦٠٧٧)، عن عائشة.

(٢) انظـــر: تاريـــخ الطبـــري (٣٧١/٤، ٣٧٢)، والبداية والنهايـــة (٢٩٥/١٠)، تحقيـــق عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر دار هجر، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

ليصدُّوا الخارجين، إذ تجمَّع ببابه كثير من أبطال الصحابة وأبنائهم من المهاجرين والأنصار، وجاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر، ليقفوا إلى جواره ويدافعوا عنه، لكنَّه قال لمن حوله: لا حاجة لي في ذلك. ومنع مَنْ سَلَّ السيوف بين المسلمين، ثمَّ اتجه إلى الله ومضى يقرأ القرآن، حتَّى دخلوا عليه وقتلوه!

هل يمكن أن تُحمل مقولة ذلك الشهيد العظيم بأنَّها احتماء بالحق الإلٰهي لفرض السلطان على الناس؟ وهل يُقبل عقلًا أن يتمسك حاكم بالتفويض الإلٰهي ـ كما يصوِّرونه ـ ثمَّ يقدِّم نفسه إلى الشهادة راضيًا مرضيًّا؟!»[(١)].

وأما قول الدكتور فرج فودة: «إنَّ كلمة سيدنا عثمان وضعت الفكر السياسي الإسلامي كله، عند مفترق طرق، بين أغلبيَّة تأخذ برأي عثمان رضي الله عنه، في أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الَّذي يولي الخليفة، ومن ثَمَّ فلا حقَّ للرعية في نزع الإمام من مكان رفعه الله إليه، وأقلية ترى أنَّ الأُمَّة مصدر السلطات، هي الَّتي تولي وهي الَّتي تعزل، وهو الرأي الَّذي تبنَّاه المعتزلة فيما بعد. ولعلَّ في تسميتهم بالمعتزلة دليلًا على موقف الدولة الإسلاميَّة منهم وموقفهم منها»[(٢)].

فهو قول مَن يجهل الإسلام، ويجهل تاريخه، ويجهل القيادات الفِكْرِيَّة فيه، أو فهمه فهمًا مشوَّشًا اختلط فيه القصور واتباع الهوى.

والواقع أنَّ كلامه مردود من عدة أوجه:

(١) مقال أكذوبة الحكم الإلٰهي للأستاذ فهمي هويدي، صحيفة الأهرام، بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٨٦م.

(٢) انظر: قبل السقوط لفرج فودة صـ ٥٧.

QaradawiBooks.com

أولًا: أنَّ جمهور الأمة ـ وعلى رأسهم أهل السُّنَّة ـ يرون أنَّ من حق الأمة ـ بل من واجبها ـ ممثلة في أهل الحل والعقد أنْ تختار الإمام، وأن تحاسبه وتقوّمه، بل وتعزله، إذا لم يترتب على ذلك منكر أكبر من وجوده، وأنَّ مقاومته واجبة إذا رأت منه كفرًا بواحًا عندها فيه من الله برهان. هذا هو رأى جمهور الأمة، وليس رأي أقلية فيها كما زعم الكاتب! حتَّى علي عبد الرازق ـ الَّذي ينقل عنه فودة ـ لم يسعه إلَّا أنْ يقرِّر من الناحية النظريَّة: أنَّ الأصل في الخلافة عند المسلمين أن تكون راجعة إلى اختيار أهل الحل والعقد، إذ الإمامة عقد يحصل بالمبايعة من أهل الحل والعقد لمن اختاروه إمامًا للأمة بعدالته بينهم[1].

ثانيًا: أنَّ الكاتب خلط خلطًا فاضحًا بين نسبة أفعال العباد إلى الله تعالى باعتباره صاحب المشيئة العليا في الكون، وهو ما يدلُّ عليه مثل قوله تعالى: ﴿**تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ**﴾ [آل عمران: ٢٦]. وهو مذهب أهل السُّنَّة وجمهور المسلمين، وبين مسؤوليَّة العباد عن أعمالهم وإن كانت بمشيئة الله تعالى وخلقه، خلافًا للمعتزلة.

فأهل السُّنَّة جميعًا يرون أنَّ مشيئة الله تعالى وقَدَره لا تُسقط مسؤوليَّة الإنسان. ولهذا فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشرعت العقوبات، وسُنَّ الثواب والعقاب، وكانت سوق الجنة والنار.

أمَّا ما نسبه إلى المعتزلة، وما اعتبره سبب تسميتهم، فذلك ادِّعاء لا أصل له، ولا دليل عليه، ولم يقل به أحد من مؤرخي الفِرق

(١) انظر: الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق دراسة ووثائق لمحمد عمارة صـ ١٢٨، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

الإسلاميَّة قديمًا أو حديثًا، لا ابن حزم، ولا الشهرستاني، ولا البغدادي قديمًا، ولا أحمد أمين ـ في فجر الإسلام وضُحاه ـ ولا غيره ممَّن كتب عن المذاهب والفِرق الكلاميَّة، وما أكثرهم.

ومن المؤسف أنَّ المعتزلة حين صارت لهم دولة وصولة ـ في زمن المأمون والمعتصم والواثق ـ هم الَّذين أسكتوا صوت المعارضة بالسياط والتعذيب والزجِّ في السجون، كما سجَّله التاريخ عليهم في المحنة المعروفة بمحنة «خَلْق القرآن». وحسبهم ما صنعوه بالإمام الجليل الممتحَن الصابر الشامخ: أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

ثالثًا: أنَّ الَّذين ثاروا على ذي النورين عثمان رضي الله عنه، لم يكونوا هم جمهور الأمة، ولا أهل الرأي والمكانة فيها، بل جماعة من «الغوغاء» ـ كما وصفهم المؤرخون ـ استغلهم آخرون من ذوي الأهواء، ومن الكائدين للإسلام في الخفاء. وقد كان هؤلاء نواة للذين قالوا بعد ذلك بانحصار الحكم في سلالة خاصَّة تتوارثه بحكم «الحقِّ الإلٰهي» خروجًا على الخط الإسلامي العامِّ.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

مقولة المنصور

أما مقولة المنصور، فقد نقلها الكاتب عن مؤلف كتاب «الإسلام وأصول الحكم» الَّذي أشار في حاشيته إلى نقلها من كتاب «العِقد الفريد في الأدب»[١] لابن عبد ربه الأندلسي. فهل يصح ـ كما يقول الأستاذ الدكتور عبد الحميد متولي ـ أن تُعَدَّ كتب الأدب في عِداد المراجع في المسائل الفقهيَّة[٢]؟ وعلى فرض ثبوتها عن المنصور ـ وهذا ما لا يثبته أي بحثٍ أو تمحيص ـ فإنَّما هي كلمة هو قائلها، لا يؤخذ منها حكم ولا توجيه. فلسنا مأمورين باتِّباع سُنَّة المنصور، ولا قوله حُجَّة في دين الله؛ فقوله مردود عليه.

هذا لو أخذنا بالكلمة على ظاهرها، وحملناها هنا على أسوأ محمل، والحقيقة أنَّ الكلمة تحتمل التأويل، وأنَّ المراد منها أنَّه يمثِّل شرع الله في الأرض، وتنفيذ حكمه في خلقه، لا أنَّ معه حقًّا إلٰهيًّا يحكم به.

كيف وقد رأينا في المسلمين مَن يعظه ويأمره وينهاه، فلم يقل لهم: أنا معصوم من الخطأ، أو معي حق إلٰهي. أو نحو ذلك من العبارات؟

(١) العقد الفريد (١٨٦/٤)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

(٢) مبادئ نظام الحكم في الإسلام صـ ١٩٠، ط٢، نشر منشأة المعارف، الإسكندرية.

QaradawiBooks.com

بل رأينا من القضاة مَن يرفض أوامـــره، ويقضي بما يرى أنَّه الحقُّ، فلم يصنع معه شيئًا.

أخرج ابن عســـاكر في «تاريخه»، عن عبد الله بـــن صالح قال: كتب المنصور إلى سوار بن عبد الله قاضي البصرة: انظر الأرض الَّتي تخاصم فيها فلان القائد، وفلان التاجر، فادفعها إلى القائد. فكتب إليه سوار: إنَّ البيِّنة قد قامت عندي أنَّها للتاجر، فلستُ أخرجها من يده إلَّا ببيِّنة. فكتب إليه المنصور: والله الَّـــذي لا إلٰه إلَّا هو لتدفعنَّها إلـــى القائد. فكتب إليه ســـوار: والله الَّذي لا إلٰه إلَّا هو، لا أخرجنَّها من يد التاجر إلَّا بحقٍّ. فلمَّا جاءه الكتاب قال: ملأتُها والله عدلًا، وصار قضاتي تردُّني إلى الحق[1]!

وأخرج عن نمير المدنـــي قال: قدم المنصـــور المدينة، ومحمد بن عمـــران الطلحي على قضائـــه، وأنا كاتبـــه، فاســـتعدى الجمالون على المنصـــور في شـــيء، فأمرنـــي أن أكتب إليـــه بالحضُـــور وبإنصافهم، فاستعفيتُ فلم يعفني، فكتبتُ الكتاب ثمَّ ختمته. وقال: والله لا يمضي به غيرك. فمضيتُ بـــه إلى الربيع، فدخل عليه ثمَّ خـــرج، فقال للناس: إنَّ أمير المؤمنين يقول لكم: إنِّي قد دعيتُ إلى مجلس الحكم، فلا يقومنَّ معي أحد. ثمَّ جاء هـــو والربيع، فلم يقـــم له القاضي، بـــل حلَّ رداءه واحتبى به، ثمَّ دعا بالخصوم، فادَّعوا، فقضى لهـــم على الخليفة، فلمَّا فرغ قال له المنصور: جزاك الله عن دينك أحســـن الجزاء! قد أمرتُ لك بعشرة آلاف دينار[2].

(١) رواه ابن عســـاكر في تاريخ دمشـــق (٣٢٥/٣٢). تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

(٢) المصدر السابق (٣٢٦/٣٢).

QaradawiBooks.com

وقال عبد الرحمٰن بن زياد بن أنعم الإفريقي: كنتُ أطلب العلم مع أبي جعفر المنصور قبل الخلافة، فأدخلني منزله، فقدَّم إليَّ طعامًا لا لحم فيه ثمَّ قال: يا جارية، عندك حلواء؟ قالت: لا. قال: ولا التمر؟ قالت: لا. فاستلقى وقرأ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، فلما ولي الخلافة وفدتُ إليه فقال: كيف سلطاني من سلطان بني أُميَّة؟ قلتُ: ما رأيتُ في سلطانهم من الجور شيئًا إلَّا رأيته في سلطانك. فقال: إنَّا لا نجد الأعوان. قلت: قال عمر بن عبد العزيز: إنَّ السلطان بمنزلة السوق يُجلَب إليها ما ينفق فيها، فإنْ كان برًّا أتوه ببرِّهم، وإن كان فاجرًا أتوه بفجورهم. فأطرق[١].

وذكَّره بالله أحد الرعية يومًا وهو يخطب، فقال: مرحبًا مرحبًا! لقد ذكرتَ جليلًا، وخوَّفت عظيمًا، وأعوذ بالله أن أكون ممَّن إذا قيل له: اتَّق الله أخذته العزَّة بالإثم[٢]!

ذكر ذلك كله الحافظ السيوطي في كتابه: «تاريخ الخلفاء»[٣].

فهل يُعَدُّ مثل هذا الخليفة أو الملك حاكمًا بالحق الإلٰهي، كما قد يُشْتَمُّ من تلك الخطبة الَّتي قالها، إن صحَّت عنه؟!

ومَن قرأ كتاب «الخراج» لأبي يوسف، وقد ألَّفه لحفيد المنصور: هارون الرشيد أعظم خلفاء العباسيين وأشهرهم، وتأمَّل ما حفل به من

(١) تاريخ دمشق (٣٥٢/٣٤).

(٢) المصدر السابق (٣١٢/٣٢).

(٣) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي صـ ١٩٣ ـ ٢٠٠، تحقيق حمدي الدمرداش، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

QaradawiBooks.com

الوصايا والأحكام، وما استند إليه من الأحاديث والآثار: يوقن تمام اليقين، ببراءة العباسيين ممَّا تقوَّله عليهم المتقوِّلون.

والواقع أنَّ دعوى الحكم بالحق الإلٰهي أبعد ما تكون عن الشرع الإسلامي، وعن الفكر الإسلامي، وعن الحسِّ الإسلامي، ولهذا لا وجود لها في تاريخ الحكم الفعلي عند المسلمين.

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

تجربة الثورة الإيرانيَّة

فإذا جاوزنا وقائع التاريخ الَّتي تمحَّك بها هؤلاء ـ وهي لا تعدو كلمتين قيلتا في مناسبات خاصَّة، هما كل ما عثروا عليه خلال أربعة عشر قرنًا مرَّت على الأُمَّة ـ وجئنا إلى الواقع الحاضر، لم نجد عندهم سوى الاستدلال بالتجربة الإيرانيَّة وقيامها على حكم «الآيات» أو «الملالي» كما يُسَمَّون.

ولا يخفى على دارس منصف أنَّ الاستدلال بالوضع الإيراني في هذا المقام استدلال منقوض من عدة نواح:

فالحكم في المذهب الإيراني الشيعي مخالف له عند أهل السُّنَّة، وهم جمهور المسلمين.

والخط الشيعي في هذه القضيَّة معروف بمخالفته لخط الفكر الإسلامي العام، في مجال العقيدة، وفي مجال الفقه.

فالإمامة عندهم من مسائل العقيدة والأصول، وهي عند أهل السُّنَّة من مسائل العمل والفروع.

الإمامة أصلها عندهم النص، وأصلها عندنا الاختيار.

الإمام عندهم معصوم، وهو عندنا بَشر من الناس يُخطئ ويُصيب.

QaradawiBooks.com

الإمام عندهم يرتقي إلى مقام لا يبلغه مَلَك مُقرَّب، ولا نبيٌّ مرسل، والإمام عندنا يمثِّله قول الصِّدِّيق: «إنِّي وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم»[١]. وقول عمر بن عبد العزيز: «إنما أنا واحد منكم غير أنَّ الله جعلني أثقلكم حملًا»[٢].

الإمام عندهم لا يُعزل؛ لأنَّ أحدًا لم يُوَلِّه حتَّى يُعزل، والأمة عندنا هي الَّتي تملك حق تولية الإمام، فهي الَّتي تملك حقَّ عزله.

هذا هو المقرر عندهم اعتقادًا وفقهًا، ولكن هل ينطبق وصف الإمام المعصوم على حكَّام إيران اليوم، أم أنَّ الإمامة بهذه الأوصاف أمر تاريخي جُمِّد وأغلق بابه، بغياب الإمام الثاني عشر منذ اثني عشر قرنًا؟

ماذا يقول حكَّام إيران اليوم، وماذا يقول دستورهم، وماذا يقول واقعهم؟ أليس الخميني «إمامًا» له ما للأئمَّة من قداسة، قد تصل به إلى العصمة أو تقربه منها؟

يجيب عن ذلك الأستاذ فهمي هويدي الكاتب الإسلامي المعروف، الَّذي زار إيران عدة مرات، ولقي رجالها، ودرس أوضاعها، كتب في رده على «أكذوبة الحكم الإلٰهي» الَّتي يردِّدها العِلمانيون فيقول: «هم أيضًا يحيلوننا دائمًا إلى التجربة الإيرانيَّة، باعتبار أنَّ الَّذي يجري هناك هو من قبيل «الحكم الإلٰهي» الَّذي تباشره السُّلطة الدينيَّة، وهي مقارنة لا تخلو من مغالطة ذات وجهين:

الوجه الأول: أنَّهم يتحدَّثون عن تجربة عند أهل الشيعة احتملت فكرة ولاية الفقيه، الَّتي هي أساس النظام القائم هناك، بينما نحن

(١) سبق تخريجه صـ١٨٨.

(٢) سبق تخريجه صـ١٨٩.

QaradawiBooks.com

ـ وثلاثة أرباع مسلمي العالَم على الأقل ـ أهل سُنَّة، والخلاف كبير بين المذهبين في مسألة الإمامة، الَّتي هي عندهم من أصول الاعتقاد في المذهب، وهي عندنا من الفروع.

الوجه الثاني: أنَّ النظام القائم في إيران لم يَدَّع لنفسه لا تفويضًا ولا حقًّا إلٰهيًّا، وهو زعم ليس له من دليل سوى أنَّ الفقهاء هم الَّذين يحكمون لاعتبارات سياسيَّة بحتة، وليست دينيَّة. ولنذكر أنَّ قيادة الثورة انحازت في البداية لحكم السياسيين أو المدنيين ـ إن صح الوصف ـ فكان المهندس «بازركان» هو أوَّل رئيس للوزراء وأبو الحسن بني صدر ـ وهو اقتصادي ـ كان أوَّل رئيس للجمهورية. وأنَّ الرأي المبكر كان يرى أنْ يكتفي الفقهاء بمجرَّد الإشراف والتوجيه دون التنفيذ، وعندما لم ينجح التعاون بين الطرفين لسبب أو آخر، تولَّى الفقهاء السُّلطة، لا باعتبارهم سدنة أو رجالًا للكهنوت، ولكن بحسابهم «أهل ثقة»، كما نقول في الصياغات السياسيَّة المعاصرة، وهو مسلك شائع في كل الأنظمة الثورية الَّتي نعرفها.

الأهم في ذلك أنَّ الشيعة الإمامية يقولون حقًّا بعصمة الإمام، ولكن هذه العصمة تنسحب فقط على الأئمَّة الَّذين هم من سلالة النبي ﷺ «فاطمة والحسين بوجه أخص»، وهو ما ثبت عندهم لاثني عشر إمامًا، لم يباشروا الحكم، واكتفوا بالزعامة الروحيَّة دون السياسة، ثمَّ اختفى آخرهم منذ حوالي (١٢) قرنًا يُعَد في عقيدتهم إمامًا غائبًا. وفي «عصر الغيبة» فإنَّ الَّذي يباشر قيادة المجتمع الشيعي يُعَد نائبًا للإمام، وله احترامه باعتباره مرجعًا دينيًّا، ولكن ليس له أي نصيب من العصمة، الَّتي انقطعت بغياب الإمام الثاني عشر، وهو ما ينطبق على النظام

QaradawiBooks.com

السياسي الإيراني الراهن. واللقب الأصلي لآية الله الخميني بصفته «نائبًا للإمام» لكن كلمة «الإمام» سرت على الألسنة، ربما لأنَّها الأيسر والأسهل. وحكومته لا تحاسب معارضيها باعتبارهم أعداء الله، ولكن بحسبانهم أعداء للنظام فقط. وبين مراجع الفقه الشيعي الكبار مَن يعارض فكرة «ولاية الفقيه» الَّتي هي أساس نظام الخميني، ولم يكفِّر أيٌّ منهم، ولم يحاسَب على موقفه. ووزراء الحكومة يحاسَبون حسابًا عسيرًا أمام مجلس الشورى، وليس لأحد منهم حصانة من أي نوع، حتَّى إنَّ المجلس أسقط سبعة وزراء مرَّة واحدة وسحب الثقة منهم، في صيف عام ١٩٨٤م. وطبقًا للدستور فإنَّ نائب الإمام ـ قائد الدولة ـ يُنَصَّب بالانتخاب، وكذلك رئيس الجمهورية الَّذي يُختار بالاقتراع العام. الأمر الَّذي لا مجال في ظلِّه للقول بأن الحكم هناك يتم بالحق الإلٰهي، أو التفويض السماوي»[1] اهـ.

على أنَّ التجربة الإيرانيَّة ـ نظرًا لطبيعتها الخاصَّة من حيث أصل الفكرة، ومن حيث النشأة والظروف المحيطة، ومن حيث القائمون على تطبيقها ـ تظل لها خصوصيتها الَّتي تُحفظ ولا يُقاس عليها كما يقول الفقهاء، ولا يجوز أنْ يُحتجَّ بها على أهل السُّنَّة.

* * *

(١) انظر: تزييف الوعي لفهمي هويدي صـ ١٠٠ ـ ١٠٢، نشر دار الشروق، ط ٣، ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

ليس الإسلام هو الحدُود

الصحوة وتطبيق الشريعة:

لا ريب أنَّ من أبرز ما عنيت به الصحوة الإسلاميَّة المعاصرة ـ حتَّى حسب بعض الناس أنَّه أكبر همِّها، ومبلغ علمها ـ ما يتعلق بالجانب التشريعي أو القانوني في الإسلام، هو ما يُعبَّر عنه بالدعوة إلى تحكيم الشريعة، أو تطبيق الشريعة. كما اتهمها بعض خصوم الصحوة بأنَّ كل تركيزها على تطبيق الحدود فقط من أحكام الشريعة، أي ما يتَّصل بالعقوبات على جرائم السرقة والزنى والقذف والسُّكر والحرابة والرِدَّة.

ولا ننكر أنَّ بعض أفراد ـ وربَّما فئات ـ من فصائل الصحوة قد تتصور هذا التصور، أو ـ على الأقل ـ قد يُفهم هذا من تصريحاتها وأقوالها.

ولكن تيار «الوسطية الإسلاميَّة» الَّذي نتحدَّث باسمه ينظر إلى الأمر نظرة شاملة متكاملة.

نسخة مجانية

مكانة الحدود في التشريع الإسلامي:

فهو لا يهمل جانب الحدود والقِصاص من التشريع الإسلامي، فهذه الحدود ـ على تفاوت بينها ـ ثبتت بنصوص محكمة من كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ.

وهي لازمة لردع المجرمين واستئصال شأفة الجريمة، الَّتي لم يعد يجدي معها مجرد السجن الَّذي يدخله المجرم، ويخرج منه ـ بعد انقضاء مدة العقوبة ـ أكثر خبرة بفنِّ الإجرام، وأشد ضراوة فيه، وإصرارًا عليه، إلَّا ما ندر.

ولسنا مع المستشرقين من أبناء الغرب، ولا مع المستغربين من أبناء الشرق الَّذين يُهوِّلون ويضخِّمون أمر الحدود، ويستبشعون عقوبتها، بناءً على الفلسفة الغربيَّة الرأسماليَّة الَّتي تُعَظِّم شأن الفرد، وإنْ جنى وأجرم في حقِّ الجماعة، ولهذا تتحيَّز له ضدَّ مصلحة المجتمع وأمنه.

وهي تعتبر الجاني دائمًا ضحية، أما المجني عليهم من الرجال والنساء والأطفال، فدماؤهم وأعراضهم وأموالهم وحرماتهم هَدَر!

ولكننا نعلم مع هذا أنَّ الشريعة شدَّدت في إثبات الجريمة، كما شدَّدت في شروط إقامتها، وجعلت أي شُبهة معتبرة كفيلةً بدرء عقوبة الحدِّ عن المتهم، فأي شك يُفسَّر لمصلحته، وفي الحديث: «**ادرؤوا الحدود ما استطعتم، ومَن وجدتم له مخرجًا، فخلُّوا سبيله، ولأن يخطئ الإمام في العفو، خير من أن يخطئ في العقوبة**»[(١)].

على أنَّ التشريع في الإسلام ليس هو الحدود والعقوبات، إنَّ التشريعات العقابية جزء من تشريع متكامل متناسق، يشمل جوانب الحياة كلها، من الأسرة إلى الدولة، إلى العلاقات الدولية، ولهذا يشمل التشريع الإسلامي مجالات القانون كلها: مدنية ومالية وإدارية ودستورية ودولية وجنائية.

(١) رواه الترمذي في الحدود (١٤٢٤)، وذكر أنَّه روي مرفوعًا وموقوفًا، وأنَّ الموقوف أصح. والحاكم (٣٨٤/٤)، وصحَّح إسناده، وقال الذهبي: قال النسائي: يزيد بن زياد شامي متروك. وضعَّفه الألباني في الضعيفة (٢١٩٧)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

وآيات الحدود ـ مع القِصـاص ـ في القرآن الكريم لم تبلغ عشـر آيات. في حين أنَّ أطول آية في القرآن نزلت في شأن من شؤون القانون المدني، وهي المتعلقة بكتابة الدَّيْن.

ليس الإسلام تشريعًا فقط:

ثم إنَّ الجانب التشريعي أو القانوني ليس هو كل الإسلام؛ فالإسلام عقيدة تلائم الفِطرة، وعبادة تُغذِّي الروح، وخُلُق تزكو به النفس، وأدب تجمل به الحياة، وعمل ينفع الناس، ودعـوة لهداية العالَم، وجهاد في سـبيل الحق والخير، وتواصٍ بالصبر والمرحمة. كمـا أنَّه ـ في الوقت نفسه ـ تشريع يضبط سـير الحياة، وينظِّم علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بأسرته، وعلاقته بمجتمعه، وعلاقته بدولته، وعلاقة دولته به، وعلاقتها بالدول الأخرى مسالمة ومحاربة.

إنَّ الإسلام توجيه وتربية وتكوين للفرد الصالح، وللمجتمع الصالح، قبل أن يكون قانونًا وعقابًا.

إنَّ العقـاب للمنحرفين من الناس، وهؤلاء ليسـوا هـم الأكثرين، وليسوا هم القاعدة، بل هم الشواذ عن القاعدة.

والإسـلام لم يجئ لعلاج المنحرفين أساسًـا، بل لتوجيه الأسوياء ووقايتهم أن ينحرفوا.

والعقوبة ليسـت هي العامل الأكبـر في معالجـة الجريمة في نظر الإسلام، بل الوقاية منها بمنع أسـبابها هو العامل الأكبر، فالوقاية دائمًا خير من العلاج.

QaradawiBooks.com

مكانة الحد في جريمة الزنى:

فإذا نظرنا إلى جريمة كالزنى نجد أنَّ القرآن الكريم ذكر في شأن عقوبة الحدِّ فيها آية واحدة في مطلع سورة النور، وهي قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [النور: ٢].

ولكن السورة نفسها اشتملت على عشرات الآيات الأخرى الَّتي توجِّه إلى الوقاية من الجريمة.

وحسْبنا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النور: ١٩].

وقوله سبحانه في تنظيم التزاور وآدابه، واحترام البيوت ورعاية حرماتها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ٢٧].

ويدخل فيها آداب الاستئذان للخدم والأطفال الَّذين لم يبلغوا الحُلُم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾ [النور: ٥٨].

وأهم من ذلك تربية المؤمنين والمؤمنات على خُلُق العفاف والإحصان، بغَضِّ البصر، وحفظ الفَرْج، وذلك في قوله جل شأنه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

QaradawiBooks.com

وهنا بـــرز عنصر جديد في الوقاية من الزنـــى وجرائم الجنس، وهو منع النســـاء من الظهور بمظهر الإغراء والفتنة للرجال، وإثارة غرائزهم وأخيلتهم، حتَّى جاء في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ ثمَّ تختم الآية بقوله سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وأهم من ذلـــك كله الأمـــر بتزويج الأيامـــى من الرجال والنســـاء ومخاطبة المجتمـــع كله بذلك، باعتباره مســـؤولًا مســـؤوليَّة تضامنية: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

ومسؤوليَّة المجتمع هنا ـ وعلى رأسه الحكَّام ـ تتمثل في تيسير أسباب الارتباط الحلال، إلى جوار ســـدِّ أبـــواب الحرام، وذلـــك بإزاحة العوائق المادِّيَّة والاجتماعيَّة أمام راغبي الزواج، من غلاء المهور، والإســـراف في الهدايا والدعوات والولائم والتأثيث، وما يتصل بذلك من شؤون.

فليست إقامة الحدِّ هنا هي الَّتي تحلُّ المشكلة، والواقع أنَّ الحدَّ هنا لا يمكن أن يقام بشروطه الشرعية إلَّا في حالة الإقرار في مجلس القضاء، أربع مرات على ما يراه عدد من الأئمَّة، أو شـــهادة أربعة شـــهود عدول برؤية الجريمة رؤية مباشـــرة أثناء وقوعها، ومـــن الصعب أنْ يُتاح ذلك. فكأن القصد هنا هو منع المجاهرة بالجريمة، أما مَن ابتُلِيَ بها مســـتترًا، فلا يقع تحت طائلة العقاب الدنيوي، وأمره في الآخرة إلى الله سبحانه.

ولهذا نطالب بتطبيق الشـــريعة الإســـلاميَّة وحدودهـــا، موقنين أنَّ القوانين والعقوبات وحدها لا تصنع المجتمعات، ولا تبني الأمم، إنَّما تُبنَى الأمم وتُصنَع المجتمعـــات بالإيمان الصـــادق، والخُلُق الفاضل،

QaradawiBooks.com

والتوجيه الرشيد، والتربية المستمرة، يسندها تشريع عادل، وقانون مُحْكَم، لا يفُرِّق بين سيِّد ومسود.

مكانة الحد في جريمة السرقة:

وإذا نظرنا إلى جريمة أخرى مثل السرقة، نجد أنَّ القرآن الكريم تحدَّث عن عقوبتها في آيتين فقط من سورة المائدة، وهما قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨، ٣٩].

وهذه الآية الَّتي أوجبت قطع يد السارق، إنَّما نزلت في سورة المائدة، وهي من أواخر ما نزل من القرآن، أي بعد أن توطَّدت أركان المجتمع الإسلامي الَّذي أسَّسه رسول الله ﷺ، في المدينة، وهو مجتمع يقوم على العدل والتكافل والأخوة، وأهله كالأسرة الواحدة، بل كالجسد الواحد، أو كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضًا، يأخذ قويُّه بيد ضعيفه، ويصب غنيه على فقيره، ويتكافل أهله في سرَّائهم وضرَّائهم؛ فليس بمؤمنٍ فيه من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع. وليس بمسلم مَن يستأثر بالخير دون أخيه، الغني فيه مستخلف في ماله، بل في مال الله عنده، وفي ماله حقٌّ معلوم للسائل والمحروم. والزكاة فريضة دينيَّة مالية اجتماعيَّة، تُؤخذ من أغنياء المجتمع لتُرَدَّ على فقرائه، هي الركن الثالث من أركان الإسلام، ومَن لم يدفعها طوعًا أُخِذت منه كرهًا. ومَن أبى وكان ذا شوكة، أُعلنت عليه الحرب حتَّى يؤديها، ولو كانت عناقًا أو عقال بعير.

والزكاة هي أوَّل الحقوق في المال وليست آخرها. ومَن كان عنده فضل مالٍ فليعُد به على مَن لا مال له.

QaradawiBooks.com

لقد نزلت قبل آية حدِّ السرقة عشرات الآيات، بل مئاتها، تأمر بإيتاء الزكاة، وتحضُّ على طعام المسكين، وتدعو إلى الإنفاق في سبيل الله، وتحثُّ على إقامة العدل والقِسط بين الناس، وتنهى عن الظلم في كل صوره وأشكاله، وتحذِّر من مصاير الظالمين في الدنيا والآخرة.

ولهذا لا يُتصوَّر في ظل «الحلِّ الإسلامي» الصحيح ـ الَّذي ألقينا بعض الضوء على شروطه ومعالمه، في الجزء الثاني من هذه السلسلة ـ أن تقطع يد السارق في مجتمع لا يجد العاطل فيه عملًا، ولا الجائع خبزًا، ولا العريان كساءً، ولا المريض علاجًا، ولا الأمِّي مدرسةً يتعلَّم فيها، في حين تلعب فئة قليلة منه بالملايين من الجنيهات، أو الدنانير أو الريالات تنثرها يمينًا وشمالًا، إلَّا على الفقراء والمتعبين!

إنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوقف تنفيذ حدِّ السرقة في عام المجاعة[1]، وليس معنى هذا أنَّ الحد قد وجب مستوفيًا شروطه وأركانه ثمَّ أسقطه! فما كان ليفعل ذلك. ولكنَّه رأى بما منحه الإسلام من بصيرة، وفقه في الدين، اقتبسه من مشكاة النبوَّة، أنَّ جوَّ المجاعة العامَّة، بضغوطه وتأثيراته، يثير لونًا من الشكِّ أو الشُّبهة يُفسَّر لمصلحة السارق المتهم، فإنَّ الغالب في مثل هذه الحال، أنَّه لم يسرق إلَّا من حاجة، ومثل هذا أهل لأن يُرحَم ويُعذَر، لا أن يُعاقَب ويُقطع. ومعنى هذا أنَّ الحدَّ لم يجب أصلًا حتَّى يُقام.

وأكثر من ذلك أن نجد عمر الملهَم المسدَّد، يهدِّد بالقطع سيدًا سرق غلمانه، لأنَّه رآه لا يعطيهم ما يكفيهم، ويغنيهم عن التطلُّع إلى

(١) قد رددنا على هذه الدعوى ردًّا علميًّا مفصلًا في كتابنا: السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها صـ ١٦٩ ـ ٢٢٢، نشر مكتبة وهبة، ط ٢، ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

ما عند الآخرين. لهذا أعفى الغلمان من العقوبة وهدَّد سيدهم بها إذا تكرَّر منهم ذلك[١].

فالحل الإسلامي الَّذي ندعو إليه، وتتبناه الصحوة الإسلاميَّة المعاصرة وتيارها الوسطي المستنير، هو الَّذي ينبِّه ويؤكِّد، قبل تطبيق الحدود، على علاج مشكلات المجتمع، وبخاصَّة مشكلات الفئات الضعيفة والمسحوقة فيه: مشكلة البطالة، ومشكلة الفقر، ومشكلة الجهل، ومشكلة المرض، ومشكلات الزواج، والإسكان، والغلاء، والكوارث، ومشكلة التفاوت غير المعقول بين الثراء الفاحش والفقر المدقع، وغيرها[٢]. ويركز كل التركيز على ضرورة إقامة عدل الإسلام الاجتماعي، تحقيق التكافل المادي والأدبي بين أبنائه وفئاته، وإشاعة الوعي الإسلامي، وإحياء الضمير الإسلامي بين أهله، وليس كل همِّه أن يقطع يد السارق، وإن لم يُعلِّمه المجتمع من جهل، أو يؤْوِه من تشرُّد، أو يداوه من مرض، أو يؤمِّنه من خوف، أو يُطعمه من جوع. إنَّ الله جَلَّ وعَلا، إنَّما طالَب قريشًا أن يعبدوه سبحانه، بعد أن هيَّأ لهم أسباب الكفاية والأمن، فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٣، ٤].

العودة إلى التشريع الإسلامي تحقيق لوجودنا الديني والقومي:

على أنَّ التشريع عندنا نحن المسلمين جزء لا يتجزَّأ من ديننا، فلا يتم إيماننا إلَّا بالحكم به والاحتكام إليه، ولا خيار لنا في ذلك بعد

(١) إشارة إلى قصة حاطب وغلمانه، رواها مالك في الأقضية (٢٧٦٧) تحقيق الأعظمي، عن يحيى بن عبد الرحمٰن بن حاطب.

(٢) راجع كتابينا: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، وفقه الزكاة (٨٩١/٢)، باب أهداف الزكاة وآثارها في حياة المجتمع، نشر مكتبة وهبة، ط ٢٥.

QaradawiBooks.com

التزامنا بالإسلام، والرضا به دينًا وشِـرْعة ومنهاجًا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وتحكيم الشـريعة فيه معنى آخر يتَّصل بأصالتنا وقوميَّتنا؛ فالقوانين الوضعيَّة الَّتي نُحْكَـم بمقتضاها في بلادنا العربيَّة والإسـلاميَّة، قوانين أجنبية عنَّا، دخيلة علينا، لم تنبت في أرضنا، ولم تسـتمدَّ أحكامها من عقائدنـا وقيمنا وأعرافنا ومسـلَّماتنا. ولهـذا أحلَّت ما نعتقـده حرامًا، وحرَّمت ما نعتقده حلالًا، وأسقطت ما نعتقده واجبًا.

والعودة إلى أحكام الشـريعة تعني التحرُّر من بقايا الاسـتعمار في المجال التشريعي، والرجوع إلى منابعنا الأصيلة، نستقي منها ما لا نصلح بغيره لأنَّ فيه هداية ربنا، وأصالة تراثنا، المتجاوب مع أنفسنا وتطلُّعاتنا، والمعبِّر عن حقيقة اتجاهنا، والمحقِّق لأهدافنا وحاجاتنا.

لقد كان دخول القوانين الوضعيَّة إلى بلادنا، أشبه بدخول اليهود إلى فلسطيننا، بدأ تسلُّلًا خفيًّا، ثمَّ انتهى اغتصابًا علنيًّا.

إنَّ الَّذي يقرأ كيف دخل القانون الوضعي إلى بلد كمصر سبق غيره في ذلك ليأخذه العجب كل العجب، كيف تمَّ ذلك العدوان في بسـاطة تثير غضب الحليم. وحسـبك أنَّ هذا القانون وضعه شخص لا تتعدَّى ثقافته العلميَّة أو المهنية درجة المتوسـط. وهو محـامٍ أرْمَنيٌّ، أتمَّه في وقت أقل ممَّا يستغرقه وضع كتاب صغير جدًّا.

والحقيقة أنَّه لم يضع قانونًا، بل نقله بجملتـه نقلًا حرفيًّا، كما قال الأستاذ «مسينا» أحد المستشارين الإيطاليين في المحاكم المختلطة في

QaradawiBooks.com

مصر. وقد وصف هذه القوانين بأنهـا: «مجمَّعة من هنا وهناك على غير أصول وضع القوانين وفقًا لحاجات الجماعة ومصالحها».

ويقول مسينا: «وإنَّ شبح زعيم المدرسة التاريخيَّة (سافيني) لترتعد فرائصه من تصوُّر استيراد أو اقتراض أمَّة لتشريعاتها»[1]!

ولكن هـذه القوانيـن اسـتوردت، أو اقترضت دون حاجـة إليها، ولا طلب لها، ولا رغبة فيها، ودون أن تُستشـار الأمة في شـأنها، كأنَّ الأمر لا يخصُّها ولا يتعلَّق بحياتها.

وما كان لهذه القوانين أن تدخل وتبقـى لولا أنَّ الاحتلال هو الَّذي أدخلها وحماها بأسنَّة رماحه.

واليوم تطالب الشعوب العربيَّة والإسـلاميَّة بإكمال استقلالها بالعودة إلى أحكام شـريعتها، وهو أمرٌ نادى به كبار رجال القانون الوضعي نفسه، الَّذين أتيح لهم أن يدرسوا فقه الشريعة، ويطَّلعوا على بعض كنوزه وأسراره.

ومن أبـرز هؤلاء علَّامـة القانونيين العـرب الدكتـور عبد الرزاق السنهوري، الَّذي أشاد بقيمة الفقه الإسلامي وأصالته وغناه في أكثر من كتاب وأكثر من مناسبة، وخصوصًا في المراحل الأخيرة من عمره، بعد أن تعمَّق أكثر في قراءة مصادر الفقه، وكتب كتابه الشهير «مصادر الحق في الفقه الإسلامي».

ففي محاضرة له نشـرتها الأهرام في أوَّل يناير سـنة ١٩٣٧م يقول: «وإنِّي زعيم لكم بأن تجدوا في ذخائر الشـريعة الإسلاميَّة من المبادئ

(١) انظر: في أصول النظام الجنائي الإسـلامي للدكتور محمد سـليم العوا صـ ٢٠، نشـر دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٣م.

QaradawiBooks.com

والنظريَّات ما لا يقل في رقـي الصياغة وفي إحكام الصنعة، عن أحدث المبادئ والنظريَّات وأكثرها تقدُّمًا في الفقه الغربي»[١].

غير مرخصة للطباعة

شُبهات العِلمانيِّين حول تشريع الحدود:

هذا هو شأن التشريع الإسـلامي عامَّة، وشأن تشـريع الحدود فيه خاصَّة.

ورغم وضوح ما ذكرناه نجـد للعِلمانيِّين هنا شُـبهات وتمحُّلات، وأحيانًا أباطيل وافتراءات.

ولسنا هنا بصدد الردِّ على كل العِلمانيِّين ومقولاتهم، حول الشريعة الإسلاميَّة وتطبيقها وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وقد رددنا على ما قاله أحد رؤوسـهم حول هذا الموضوع، وهو الدكتور فؤاد زكريا، في كتاب صدر بحمد الله تعالى، وهو «الإسلام والعِلمانيَّة وجهًا لوجه»[٢].

على أنَّ بعـض ما يثيره العلمانيُّـون، وما يسـوِّدونه من صفحات، لا يسـاوي المداد الَّذي يكتب به، ولا يسـتحقُّ إضاعة الوقت في الـرد عليـه. وأقـرب مثـل لذلـك ما كتبه حسـين أحمد أميـن، في بعض المجلات المصريَّة، الَّتي تتخذ موقفًا معيَّنًا من الإسلام ودعاته.

وسأكتفي هنا بالردِّ على أحد العِلمانيِّين الَّذين ينتسبون إلى القانون ويقـومون ـ للأسف ـ بتدريسه لأبنائنا المسلمين، الَّذين وضعتهم الأمة أمانةً بين أيديهم، وذلكم هو الدكتور نور فرحات أسـتاذ القانون وعميد كلية الحقوق بجامعة الزقازيق.

---

(١) انظر: في أصول النظام الجنائي الإسلامي صـ ٢٢.

(٢) الإسلام والعلمانية صـ ١٠٩ ـ ١٤٨، فصل: العلمانيـة والـدعـوة إلى تطبيق الشريعة.

QaradawiBooks.com

يقول الدكتور نــور فرحات: «لا يختلف علماء الشــريعة والباحثون فيها، والمؤرخون لها، على أنَّها تتضمَّن ثوابت ومتغيرات، فثوابتها هي تلك المبادئ والأحكام والأفكار الَّتي لا تتغيَّر أو تتبدَّل بتغير الأمكنة أو تبدل الأزمنة. أما متغيراتها فهي ذلك القدر النسبي من المبادئ والأحكام والأفكار، الَّذي يتبع أعراف الناس ومعتقداتهم وأحوالهم ودرجة التقدُّم والمدنيَّة الَّتي يعيشــون عليهــا. فقضية احتواء الشــريعة على بعض من الثوابت وبعض من المتغيرات قضية لا خلاف عليها، ولكن الخلاف هو حول محتوى هذه الثوابت وتلــك المتغيرات، أي حــول ما يُعَدُّ ثابتًا، وما يُعَدُّ متغيِّرًا من أحكام الشريعة ومبادئها.

ولا خلاف أيضًا على أنَّ أوَّل ثوابت الشريعة وأساسها ما تعلَّق منها بالعقائد وبأركان الإســلام وبالعبادات، فهذه أحكام أساسيَّة في الإسلام تُعَد بمثابة الدعائم الكبرى له، لا يُقبل من مسلم إلَّا أن يسلِّم بها كحقائق كلية لا تتغير بتغير الزمان والمكان. ولا خــلاف أيضًا أنَّ ما لم يرد فيه نصٌّ قطعيُّ الثبوت وقطعي الدلالة، يُعتَبــر من المتغيرات، الَّتي تختلف باختلاف الظروف، الَّتي تمرُّ على المجتمعات الإســلاميَّة، ما دام داخلًا في إطار المقاصد العامَّة للشريعة الإســلاميَّة، ولكن الخلاف هو حول ما ورد فيه من مسائل المعاملات نصٌّ شرعي قطعي الثبوت ـ أي ثابت بمصــدره على وجه القطــع واليقين ـ قطعي الدلالة ـ أي لا شُــبهة في تأويله ـ هل يُطبَّق حتَّى ولو كان فيه إضرار بمصالح المســلمين؟ وهل يؤخذ به حتَّى لو اختلف الســياق التاريخي وقت التطبيق عن الســياق التاريخي وقت نزول النصِّ؟ وهل تؤخذ هذه النصوص الأخيرة بالحكمة منها دون تمسُّــك بحرفية تطبيقها عملًا بمبدأ «إنَّ الدين يُسْر لا عُسْر»، وإنَّ الأحكام مبناها مصالح العبــاد؛ لأنَّ الله ﷻ ما جعل علينا في الدين

QaradawiBooks.com

من حَرَج؟ أم أنَّهـا واجبة التطبيـق دون النظر لما نتصـوره عن آثارها الاجتماعيَّة الَّتي قد تبدو لنظرتنا القاصرة أنَّهـا غير ملائمة؛ لأنَّها تمثل شرع الله، وشرع الله أولى بالتطبيق من شرع الناس؟!».

يقول الكاتب: «في هذه الفئة الأخيرة من الأحكام العمليَّة، الَّتي ثار الخلاف حول ثباتها أو تغيرها، يدخل أغلب ما ينادي بالأخذ به وتطبيقه اليوم دعاة تطبيق الشريعة الإسـلاميَّة، وأظهرها مسائل الحدود، وإبطال الربا في المعاملات المالية.

إذن يبقى الخلاف محصورًا في مسائل الحدود والمعاملات الَّتي أتى بها نصٌّ شرعيٌّ قطعيُّ الثبوت والدلالة، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨]، ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ [المائدة: ٣٣]، وقوله ﷺ: «**مَنْ بدَّل دينه فاقتلوه**»[1]، إلى آخر ذلك من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة الَّتي تضع حكمًا قطعيًّا لأمر من أمور الدنيا يهم معايش المسلمين، وينظِّم علاقاتهم الاجتماعيَّة».

ويتكئ الكاتب هنا ـ كما اتكأ غيره من الكتَّاب العِلمانيِّين الَّذين عرفوا قشورًا مشوَّهة من تراثنا، وجهلوا لبابه وجذوره وآفاقه وأعماقه ـ على مقولة نجم الدين الطوفي الحنبلي (المتوفى سنة ٧١٠هـ) في شرحه لحديث: «**لا ضَرر ولا ضِرار**»[2] من «الأربعين النوويَّة» الشهيرة، وفيها

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٧)، عن ابن عباس.

(٢) سبق تخريجه صـ٨٩.

QaradawiBooks.com

يقول: «من المحال أنْ يراعي الله ﷻ مصلحة خلقه في مبدئهم ومعادهم، ومعاشهم، ثمَّ يهمل مصلحتهم في الأحكام الشرعية، إذ هي أهم، فكانت بالمراعاة أولى، ولأنَّها أيضًا من مصلحة معاشهم؛ إذ بها صيانة أموالهم ودمائهم وأعراضهم، ولا معاش بدونها. فوجب القول: إنَّه رعاها لهم. وإذا ثبت رعايته إياها لم يجز إهمالها بوجه من الوجوه، فإن وافقها النص والإجماع وغيرهما من أدلة الشرع فلا كلام، وإن خالفها دليل شرعي وُفِّق بينه وبينها بما ذكرناه، من تخصيصه بها، وتقديمها بطريق البيان»[(١)].

أي: أنَّ الإمام الطوفي الحنبلي يرى أنَّه إذا تعارضت المصلحة مع نصٍّ مثبت لحكم شرعي قُدِّمت المصلحة على النصِّ، ويبرر الإمام ذلك بقوله: «ولا يقال: إنَّ الشرع أعلم بمصالحهم ـ مصالح العباد ـ فلتؤخذ من أدلَّته، فهذا ممَّا يقال في العبادات، الَّتي تخفى مصالحها عن مجاري العقول والعادات، أما مصلحة سياسة المكلفين في حقوقهم، فهي عمليَّة معلومة لهم بحكم العادة والعقل، فإذا رأينا دليل الشرع متقاعدًا عن إفادتها، علمنا أنَّا أُحِلْنا في تحصيلها على رعايتها»[(٢)].

يقول الكاتب: «ولو قُدِّر لنا أن نخاطب شيخنا الجليل الإمام سليمان الطوفي رحمه الله ورضي عنه وأرضاه، لسألناه سؤال الفتى الحائر لشيخه العالِم الوقور:

أستاذنا وشيخنا الجليل، أنت تعلم أنَّ النصَّ الشرعي الموجب لقطع يد السارق قد نزل في مجتمع كان يعتمد في نشاطه الاقتصادي على التجارة، الَّتي لا يزرع مباشرها حقلًا، ولا يدير آلة في مصنع، فهل ترى

(١) انظر: التعيين في شرح الأربعين للطوفي صـ ٢٤٦، تحقيق أحمد حاج محمد عثمان، نشر مؤسسة الريان، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

(٢) المصدر السابق صـ ٢٧٩ ـ ٢٨٠ بتصرف.

QaradawiBooks.com

أن نُبقي على تطبيق النصِّ بعقوبة النصِّ في مجتمعنا الَّذي نحن أحوج ما نكون فيه إلى سواعد أبنائه على استقامتهم وانحرافهم؟!»[١].

ليعذرني القارئ المسلم في نقل هذا الكلام الطويل الممل للكاتب المذكور، فقد أردتُ ألَّا أختصره، ولا أتصرَّف فيه؛ لأبيِّن عواره وتهافته، وفساد استدلاله، من نصِّ كلامه ذاته، الَّذي حسب أنَّه ساق به الحُجَّة الَّتي لا تُدحض، والمنطق الَّذي لا يُنقَض، وهو كما ترى أوهن من بيت العنكبوت!

وأنا هنا أكتفي ببعض النقاط الأساسيَّة الَّتي تغني عن سواها في بيان فساد كلام الكاتب:

أولًا: ليس صوابًا ما يصوِّره الكاتب من التقليل والتهوين لحجم الداعين إلى تطبيق الشريعة الإسلاميَّة، فهو يتحدث عن «دعاة تطبيق الشريعة» كأنَّهم حفنة من الناس.

والواقع أنَّ الَّذي يريد تطبيق الشريعة، وينادي بها، ويصرُّ عليها هو: مجموع الشعب المصري، وأنَّ المخالفين لهذا التيار العارم الكاسح إنَّما هم حفنة من الناس، تملك إمكانات كثيرة، وتسندها قُوًى خارجيَّة كبيرة، وهذا وحده هو الَّذي جعل صوتها عاليًا.

وطالما ناديتُ ـ ولا أزال أنادي ـ أن يُحتكم إلى استفتاءٍ حرٍّ نزيه، تشرف عليه هيئات قضائية، يُجاب فيه عن سؤال واحد: مَنْ مع الشريعة الإسلاميَّة؟ ومَنْ ليس معها؟

(١) المجتمع والشريعة والقانون للدكتور محمد نور فرحات صـ ٧٧ ـ ٨١، نشر دار الهلال، ١٩٨٦م.

QaradawiBooks.com

على أنَّ الدستور قد حسم الأمر بالنصِّ الصريح على أنَّ أحكام الشريعة الإسلاميَّة هي المصدر الرئيسي للتشريع، ولم يكتفِ بالنص القديم القابل للتفسيرات المختلفة، وهو: أنَّ دين الدولة الإسلام.

ثانيًا: خالف الكاتب القواعد الشرعية القطعيَّة الَّتي أجمع عليها المسلمون في جميع العصور، ومن كل المذاهب، حيث جعل المسائل الَّتي أتى بها (نص شرعي قطعي الثبوت والدلالة) قابلة للخلاف، وهو مخالف للإجماع اليقيني، ومخالف لطبيعة هذه النصوص، باعتبارها «قطعيَّة الثبوت والدلالة».

فالمفروض أنَّ هذه «القطعيات» هي الَّتي يُحتكم إليها عند الخلاف، ويُرجع إليها عند التنازع، لا أن تكون هي نفسها موضعًا للخلاف، وإلَّا لما صحَّ وصفها بالقطعيَّة في الجانبين: الثبوت والدلالة معًا.

ويبدو من الأمثلة الَّتي ذكرها الكاتب أنَّه حشر نفسه فيما لا يحسنه، وأنَّه لا يفهم معنى قطعيَّة الثبوت، ولا معنى قطعيَّة الدلالة!

ثالثًا: أوهم الكاتب أنَّ نصوص الشريعة القطعيَّة يمكن أن تتعارض مع المصالح الاجتماعيَّة للناس. وهذا لا يمكن أن يقع إلَّا من باب الوهم والخطأ.

فإمَّا أن يتوهَّم غير المصلحة مصلحة، وإمَّا أن يتوهم غير القطعي قطعيًّا.

وقد لمسنا هذا وشاهدناه فيما طالبَ ويطالبُ به دعاة العِلمانيَّة والتبعية للغرب أو الشرق.

فمنهم مَن طالب باسم المصلحة بإباحة البغاء، ومنهم مَن طالب بإباحة الخمر، ومَن طالب بإباحة الربا، ومنهم مَن طالب بتعطيل فريضة

QaradawiBooks.com

الصيام، ومنهم مَـن طالب بتجميـد فريضة الحج، ومنهـم مَن طالب بالتسوية بين الأبناء والبنات في الميراث!

كل هذا بدعوى الحرص على المصلحة، مع اليقين أن لا مصلحة في شيء من ذلك على التحقيق. وهؤلاء يزعمون أنَّهم أعلم بمصالح الناس من ربِّ الناس، أو أنَّهم أبرُّ بهم ممَّن خلقهم فسـوَّاهم، وأسـبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

ولم يجد الكاتب مَن يعتمد عليه في دعـاواه المرفوضة والمنقوضة إلَّا ما نقله عن نجم الدين الطوفـي، الَّذي انفرد بمقولة لم يوافقـه عليها فقـيه في الـقديم أو الحديث، واعتبرت من «زلَّات العلماء» الَّتي يُستعاذ بالله من شرِّها.

على أنَّ الطوفي ـ وإن تجاوز وشـطح ـ حين تحـدَّث عن تعارض النصِّ والمصلحة لم يقيِّد النصَّ بأنَّه «القطعي الثبوت والدلالة» فكلامه عن مطلـق النصوص، وهذا قد يـراد به النصوص الظَّنِّيَّـة الَّتي تحتمل التخصيص بالمصلحة القطعيَّة. وهو فعلًا جعل ذلك من باب التخصيص لا من باب الإلغاء، أو الافتيات على النص.

رابعًا: ذكر الكاتـب ـ كما ذكر غيره مـن الخطَّافيـن المتعجِّلين ـ اسـتدلالًا على جواز تعطيل النص بالمصلحة: موقف عمر من المؤلَّفة قلوبهـم، حيث منعهـم ما كانوا يأخـذوه على عهد النبـي ﷺ، وعهد أبي بكر رضي الله عنه [1].

(١) رواه ابن أبي حاتم في التفسـير (١٠٣٧٧)، تحقيق أسـعد محمد الطيب، نشـر مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط ٣، ١٤١٩هـ.

QaradawiBooks.com

ولا أدري ـ والله ـ أي نـــصٍّ فـــي القـــرآن الكريم أبطلـــه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؟!

إنَّ القرآن الكريم نصَّ على أنَّ للمؤلَّفة قلوبهم سهمًا في الصدقات، كما لسائر المصارف السبعة الأخرى، المذكورة في آية التوبة المعروفة، ولم ينصَّ القرآن على أنْ يظل عيينة بن حصـــن الفزاري، أو الأقرع بن حابس التميمي، وأمثالهما من زعماء القبائل مؤلَّفة قلوبهم أبد الدهر.

وكل الَّذي فعله عمـــر رضي الله عنه ، أنَّه أوقف الصرف لهـــؤلاء، إذ لم يعد يعتبرهم من المؤلَّفة قلوبهم، إمَّا لأنَّهم قد حسن إسلامهم بمضي الزمن والتفقُّه في الإسلام، والاندماج برجاله الصادقين. وإمَّا لأنَّ قبائلهم الَّتي كانوا هم القوَّة الأولى المؤثرة عليها، قد حسن إسلامها، ولم تعُدْ تبالي بهم، حتَّى لو ارتدُّوا والعياذ بالله. وإمَّا لأنَّ الإسلام نفسه قد قويت شَوْكته وعزَّت دولته، ولم يعد يخشـــى من فتنة يقوم بها بعـــض الطامعين في المال من القبائل أو زعمائها.

أيًّا ما كان الســـبب، فلم يعد هـــؤلاء ـ في رأي عمر ـ مـــن المؤلَّفة قلوبهم الَّذين يستحقون الأخذ من الصدقات أو غيرها.

أما «تأليف القلوب» نفســـه، فهو عمل سياســـي، يتصل بمهمَّة الدولة المسلمة ذاتها، وبولي الأمر المسلم وأهل شوراه، ومدى احتياجها للتأليف أو لا. ولهذا كان الصحيح، بل الصواب، هو بقاء سهم «المؤلَّفة قلوبهم» إلى اليوم وإلى ما شاء الله، كما وضَّحنا ذلك بأدلَّته في موضعه من كتابنا «فقه الزكاة»، فليرجع إليه مَن يهمه استيفاء البحث في الموضوع[1].

(١) راجع كتابنا: فقه الزكاة (٦٠٦/٢ ـ ٦٢٢)، الباب الرابع: مصارف الزكاة، الفصل الثالث: المؤلفة قلوبهم.

QaradawiBooks.com

خامسًا: أما ما ذكره الكاتب حول «الحدود» فقد سقط فيه سقطات لا نهوض له منها، إلَّا أنْ يتداركه الله بتوبة منه ورحمة، فقد ظهر فيما كتب قلة معرفته بمقام الله تعالى في علاه، وبالشرع والفقه، وبالقرآن، وبالتاريخ، وبالواقع.

(أ) أما قلة معرفته بالله تعالى، فقد وقف ممَّا شرعه الله من الحدود موقف الحائر المرتاب، وحاول أن يستنجد بشيخه (الطوفي) في قبره، ليخرجه من حيرته وشكِّه.

وكان يكفيه قول الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] ليحزم أمره ويعلن كما أعلن المؤمنون دائمًا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

أما أن يتعالم على الله، ويستدرك عليه، ويحسب أنَّه أعلم منه بأحوال خلقه، وأبرُّ بهم منه ﷻ، فهذه هي الطامة: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]!

(ب) وأمَّا ضحالة معرفته بالشرع فيتمثل في أمرين:

أولًا: توهُّمه أنَّه قد يأتي بما ينافي مصلحة الخَلْق، والشرع إنَّما أُقيم لمصلحة العباد في المعاش والمعاد، كما حقَّق علماء الأمة، وكما دلَّ عليه استقراء الأحكام الثابتة بالنصوص الصحيحة الصريحة.

وإذا قيل فيما لا نصَّ فيه: «حيث توجد المصلحة، فَثَمَّ شرع الله»، فأولى أن يقال فيما فيه نصٌّ: «حيث يوجد شرع الله، فثَمَّ المصلحة».

غير أنَّ عقول بعض الناس تقصر عن فهم حقيقة المصلحة فيتصوَّرونها جزئيَّة، فرديَّة، محليَّة، ماديَّة، آنية، دنيويَّة. والشرع ينظر إلى

QaradawiBooks.com

المصالح نظرة شمولية: جزئيَّة وكلية، فرديَّة وجماعيَّة، محليَّة وعالميَّة، ماديِّيَّة ومعنويَّة، آنيَّة ومستقبليَّة، دنيويَّة وأخرويَّة.

ولا يقدر على الإحاطة بهذه الجوانب كلها إلَّا مَن أحاط بكل شيء علمًا، ولا يعزب عن علمه مثقال ذَرَّة في السماوات ولا في الأرض.

ثانيًا: أنَّه يريد أنْ يحيل الثوابت إلى متغيِّرات. أعني أنَّه يريد أن يجتهد فيما لا يقبل الاجتهاد، إذ محل الاجتهاد ـ بالإجماع اليقيني ـ هو ما كان ظنيًّا في ثبوته أو في دلالته أو فيهما معًا.

أما الأحكام القطعيَّة، ثبوتًا ودلالةً ـ مثل أحكام الحدود الثابتة بمحكم القرآن ـ فليست محلًّا للاجتهاد والقيل والقال، إلَّا في تفصيلات أحكامها وتطبيقاتها.

ولو كان كل حكم شرعي قابلًا للأخذ والرد، والجذب والشد، لأصبح شرع الله مادة «هلامية» يشكِّلها كلُّ مَن شاء بما شاء، وكيف شاء. ولم يصبح الشرع ميزانًا يحتكم الناس إليه إذا اختلفوا، ويرجعون إليه إذا انحرفوا، بل يصبح هو نفسه في حاجة إلى ميزان آخر، ومعيار آخر، ويتشكَّل وفق أهواء الناس وأوضاعهم، يستقيم باستقامتهم ويعوجُّ باعوجاجهم. وفي هذا إلغاء لمهمة شرع الله، ورسالته في ضبط أحوال الناس، وتقويم مسيرتهم بالقسط، وردِّهم إلى عدل الله وصراطه المستقيم.

واستنجاد الكاتب بالشيخ الطوفي هنا لا ينجده، لأنَّ الطوفي لم يقل: إنَّ المصلحة تلغي النصوص القطعيَّة أو تنسخها. ولا يُتصور من مسلم ـ فضلًا عن فقيه أصولي ـ أن يقول هذا، لأنَّ مقتضى هذا أن ينسخ الناس أحكام الشرع بأهوائهم أو آرائهم القاصرة، وأن يكون رأي البَشر فوق

QaradawiBooks.com

وحي الله، وأن يكون الإنسان أعلم من الله بمصلحة عباده، وهذا ما يرفضه الطوفي ومَن دونه بيقين لا ريب فيه.

كل ما يؤخذ من كلام الطوفي أنَّ النصوص الظنيَّة تخصِّصها المصالح القطعيَّة؛ فالمصلحة عنده لا تفتئت على النصِّ ولا تُلغيه، ولكنَّها تخصِّصه وتقيِّده. وهذا لا يكون في النصوص القطعيَّة الثبوت والدلالة؛ لأنَّ طبيعتها القطعيَّة تأبى أنْ تقبل التخصيص أو التقييد.

ثم إنَّ الطوفي استثنى «العبادات والمقدَّرات» من تأثير المصالح عليها.

و«العبادات» معروفة. أما «المقدَّرات» فيعني ما قدَّر الشرع فيه مقادير وحدودًا معينة، مثل أنصبة الميراث، وعِدَدِ الطلاق والوفاة، وعَدَدِ الجلدات في الحدود ونحوها.

فلا يُقبل عند الطوفي أن يقول قائل: إنَّ المصلحة تقتضي أن نجعل حدَّ الزنى ثمانين جلدة مثل حدِّ القذف، لعموم البلوى بالزنى، وغير ذلك من الأعذار والتعلُّلات؛ لأنَّ هذا التقدير من حقِّ الشرع، وليس للناس أن يجتهدوا فيه بدعوى المصلحة أو غيرها.

وأبعد من ذلك ـ بلا ريب ـ أنْ يقال: نغيِّر حد السرقة بالجلد بدل القطع، إذ لا يجوز لنا أنْ نضع حدًّا مكان حد آخر، فنبدِّل أحكام الله تعالى.

وأبعد ثمَّ أبعد من ذلك أن يقال: «إنَّ المصلحة في عصرنا تقتضي أن نلغي الحد بالكُلِّيَّة، ونستبدل به عقوبة أخرى من عندنا، أو لا نستبدل به شيئًا قط كما في كثير من جرائم الزنى الَّتي لا يرى القانون الوضعي المستورد أي عقوبة عليها، ما دامت برضا الطرفين الراشدين!

QaradawiBooks.com

إنَّ الطوفي لا يقبل إنقاص الحدِّ المنصوص عليه عشر جلدات، فكيف يُتصور أن يلغي حدود الله كلها باسم المصالح المزعومة؟

(ج) وأمَّا ضحالة معرفته بالقرآن الكريم، فهي ضحالة فاضحة، مع جرأة بالغة، فهو يريد أن يفسِّره بهواه، ويحرِّف كلمه عن مواضعه، ويقول على الله بغير علم، مخالفًا الأولين والآخرين.

وضحالته هنا تتمثل في عدم إلمامه بمعاني القرآن، وأحكامه، وتاريخ نزوله، وكل ما يتعلق بعلوم القرآن.

فهو يزعم أنَّ القرآن نزل في مجتمع لا يحتاج إلى سواعد أبنائه في زراعة ولا صناعة، كما يحتاج مجتمعنا اليوم! إذ كان ذلك المجتمع يعتمد على التجارة، فلهذا شُرع له حدُّ السرقة بقطع اليد، ومعنى كلامه أنَّ حد السرقة لا يشرع إلَّا في المجتمعات التجارية دون غيرها!

ولا أدري كيف اجترأ الكاتب أن يقول مثل هذا القول؟ وعلى أيِّ منطقٍ استند؟

فالمجتمع الَّذي نزلت فيه آية حدِّ السرقة ـ وهو مجتمع المدينة ـ كان في أساسه مجتمعًا زراعيًّا، على خلاف مجتمع أهل مكَّة.

ثم كان هو مجتمع جهاد وكفاح مسلح، كل أبنائه في حالة تعبئة ضد القوى المعادية والمتربصة: وثنية ويهودية وبيزنطية ومجوسية. وهو في حاجة إلى سواعد أبنائه للجهاد العسكري، كما هو في حاجة إلى سواعدهم للجهاد من أجل العيش والحياة الطيبة.

ثم هل القرآن نزل لمجتمع المدينة وحده، أم أنزله الله للعالمين؟ فهو هداية الله للناس، ورحمة الله للعالَم، في كل زمان ومكان، ونصوص القرآن نصوص عامَّة خالدة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومن ناحية أخرى هل شرع الله الحكيم حدَّ السرقة ليحرم المجتمع من سواعد أبنائه؟! أم ليحمي المجتمع من الَّذين يستخدمون سواعدهم لتدمير أمن المجتمع وحرمان الَّذين يستعملون سواعدهم من ثمرات عملهم؟

وليت شِعري كم ساعدًا ستقطع من السواعد المعتدية، لتحمي آلافًا وملايين من السواعد والرؤوس الَّتي لا يبالي أولئك المجرمون بقطعها في سبيل الوصول إلى مآربهم، والنجاة بأنفسهم من أيدي العدالة؟!

(د) وأما قِلَّة معرفته بالتاريخ، فواضح للعيان، برغم ما يدَّعيه أنَّه من قارئي التاريخ، ومستنطقيه، ولكنَّه يقرأ منه ما يوافق مشربه، ويخدم غرضه، ويهمل منه ما لا يلائم هواه، ثمَّ هو يستنطقه بما لا ينطق، ويستلهم منه ما لا يلهم. فهي قراءة انتقائية موجهة مغرضة.

لقد جهل الكاتب أو تجاهل أنَّ الإسلام ـ منذ القرن الأوَّل ـ حكم أقطارًا شتَّى تضم بلاد الحضارات العريقة الكبيرة: حضارات الفُرس والروم، وبابل، ومصر، واليمن وغيرها، ولم يقل أحد في تلك الأقطار: إنَّ أحكام القرآن إنَّما نزلت لمجتمع بسيط غير مجتمعاتنا هذه العريقة في المدنيَّة، فلا يليق بنا أنْ نطبقها!

بل وجدت كل هذه المجتمعات في أحكام القرآن حمايتها وأمنها ومصلحة دنياها وأخراها، برغم أنَّها كلها كانت في حاجة إلى سواعد أبنائها!

وجهل الكاتب أو تجاهل أنَّ المجتمعات الَّتي سعدت بالإسلام، وطبقت فيها أحكامه، وأقيمت حدوده، كانت في طليعة المجتمعات البشريَّة إنتاجًا وازدهارًا وتقدمًا، ولم يمنعها قطع يد السارق أن تنتج

QaradawiBooks.com

وتتقدم وتتبوأ مكانتها تحت الشمس، بل وفرت الحدود لها الأمن الَّذي لا بدَّ للناس منه لكي يعملوا وينتجوا.

وكأنِّي بالكاتب يتخيل أنَّ إقامة حدِّ الله في السرقة ستملأ الطرقات بمقطوعي الأيدي!

وهذا ما لم يحدث قَط في التاريخ. فعقوبة السرقة عقوبة رادعة زاجرة، فهي تردع السارق نفسه أن يعود لمثل جريمته، وتردع غيره أنْ يمضي في نفس طريقه، فيصيبه ما أصابه، ولهذا وصفها القرآن بقوله: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

على حين نرى عقوبة السجن لا تردع المجرم، ولا تزجر غيره، ولهذا كثر «أصحاب السوابق» الَّذين يُكرِّرون الجريمة، برغم السجن عليها مرات ومرات، فالسجن لا يردع ولا يؤدِّب، بل كثيرًا ما يعطي فرصة لمزيد من المهارة في السرقة وفنونها، ومزيد من الضراوة في اقتحام المخاطر.

(ه) وأما قلَّة معرفته بالواقع، فإنَّ ما يحدث في العالَم الإسلامي كلِّه يردُّ عليه. فقد عطَّل المسلمون في شتَّى أوطانهم أحكام الشريعة، ومنها الحدود، وحد السرقة على الأخص، وسلمت «السواعد» الَّتي أظهر الكاتب الإشفاق عليها، فماذا كانت النتيجة؟

هل انتقل المسلمون بتعطيل حدِّ السرقة وبقية أحكام الشريعة من دنيا التخلف إلى دنيا التقدم؟ هل لحقوا بعصر الفضاء والكومبيوتر؟ بل هل صنعوا السلاح الَّذي يحميهم، وأنتجوا الغذاء الَّذي يكفيهم؟

للأسف لم يفعلوا شيئًا من ذلك، وما زالوا في مؤخرة القافلة، في العالم الثالث، أو الرابع، لو كان هناك رابع!

QaradawiBooks.com

لقد أشفق الكاتب ـ بقلبه الحنون ـ على سواعد اللصوص المجرمين أن تُقطع، ولم نرَ لديه مثل هذا الحنان والإشفاق على ضحايا المجرمين الَّذين تُسلب أموالهم وتُهَدَّد بيوتهم، وتُنتهك حرماتهم، وقد تُقطع أيديهم، ورقابهم، إذا همُّوا بالتعرض للجاني أو الإمساك به.

وبجوارنا بلد عربي إسلامي، كان يُضرب به المثل في الفوضى واختلال الأمن، حتَّى كان يُقال فيمن يرحل إليه لحج أو عُمرة: الذاهب مفقود، والراجع مولود. فما إنْ حكمه المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود، وأقام فيه الحدود حتَّى تغيَّر الحال، وغدا يُضرب به المثل في الأمان والاطمئنان. حتَّى تمر الأشهر ولا تُقطع فيها يد واحدة. بفضل تنفيذ هذا الجانب من أحكام الإسلام، وإن كان هناك تقصير في بعض الجوانب الأخرى.

إنَّ مصلحة الناس الحقيقيَّة تتجلَّى في طاعتهم لربهم، وتحكيم شرعه في حياتهم وإقامة حدوده ـ بشروطها ـ على مَن يستحقها منهم.

فلم يشرع ربُّ الناس للناس إلَّا ما فيه خيرهم وصلاحهم، وإنْ جهل ذلك مَن جهل منهم. فهو أبرُّ بهم من آبائهم وأمهاتهم، وأعلم بمصلحتهم من أنفسهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

* * *

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

الحل الإسلامي.. والبرامج التفصيليَّة

تصوير الشُّبهة:

يقول بعض الناس: إذا كنتم تنادون بالحل الإسلامي، والعودة إلى شريعة الإسلام، ومنهج الإسلام؛ فأين هي برامجكم التفصيليَّة، ومناهجكم الشاملة، وأنظمتكم الدقيقة لكل شأن من شؤون الحياة، ولكل ناحية من نواحي المجتمع؟ وما حلولكم للمشكلات الاقتصادية والاجتماعيَّة والثقافية؟ كيف تعالجون مشكلات البنوك وما يجري في عروقها من الربا؟ وكيف تصنعون بشركات التأمين؟ وما موقفكم من قضية المرأة، والاختلاط والتبرج والأزياء؟ وهل أعددتم قوانين جديدة تحلُّ محلَّ القديمة؟ أم تريدون أن تقودونا إلى متاهات لا يُعرف فيها دليل، ولا يُهتدى فيها إلى سبيل؟ أو تخوضوا بنا بحارًا من التجارب، لا ندري أين شواطئها، ولا كيف عواقبها؟

الرد عليها:

والذين يتساءلون هذا التساؤل أحد رجلين:

إما رجل غافل حسن النية، خُيِّل إليه، أو ألقِيَ في رُوعه أنَّ الَّذي ذُكِر من الحلول والتفصيلات شيء متعذر أو متعسر، فيظنه عقبة كؤودًا في سبيل الحل الإسلامي حقًّا.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

وإما رجل مدخول مضلِّل، يعرف الحقيقة، ولكنَّه يريد أن يشغل دعاة الإسلام بما ليس بمشغله، ويُصَعِّب عليهم الطريق بما ليس بصعب.

وجوابنا عن هذا الصنف وذاك يتمثل في بيان حقيقتين مهمَّتين:

الحل الإسلامي واضح المعالم:

الحقيقة الأولى: أنَّ الاتجاه إلى الحلِّ الإسلامي ليس اتجاهًا إلى مفازةٍ ولا متاهة، بل إلى حلٍّ واضح المعالم، بيِّن الحدود، أصوله العامَّة معروفة، وقواعده الكُلِّيَّة مدروسة، وخطوطه العريضة بارزة، وقد حُكِمت به أمة الإسلام الكبرى ثلاثة عشر قرنًا، فلم يضق بواقعة جديدة، ولم يعجز عن تقديم العلاج لأيِّ مشكلة، وإذا جمد بعض علمائه في بعض العصور، وأغلقوا باب الاجتهاد على أنفسهم، فالذنب ذنبهم، ومَن ضيَّق على نفسه ضيَّق الله عليه.

إنَّه حل له مصادره الثابتة من نصوص القرآن والسُّنَّة الصحيحة الصريحة، وله مصادره المتجدِّدة من القياس، والاستصلاح، والاستحسان، وغيرها من أوجه النظر والاجتهاد.

إنَّ الأصول والخطوط الإسلاميَّة العريضة الَّتي يهدي إليها القرآن والسُّنَّة، وبجوارها الثروة الفِكْرِيَّة والتشريعيَّة الَّتي خلَّفها لنا أئمَّة الإسلام وفقهاؤه من شتَّى المدارس والمذاهب، على مدى الأعصار والقرون، منذ عهد الصحابة ـ أفْقَهِ الناس للإسلام ـ فمَن بعدهم، ستكون هي المصابيح الهادية في طريقنا إلى العودة المنتظرة إلى الإسلام، واستئناف حياة إسلاميَّة صحيحة توجِّهها عقيدة الإسلام، وتحكمها شريعته، وتسودها مُثُله وأخلاقه، وتضبطها آدابه وتقاليده.

QaradawiBooks.com

وقد ذكرنا في الجزء الثاني من هذه السلسلة الحد الأدنى، الَّذي يلزم معرفته من «معالم الحل الإسلامي» المنشود في شتَّى جوانب الحياة، الفِكْرِيَّة والتربوية، والاجتماعيَّة، والاقتصادية، والسياسيَّة، والعسكريَّة، وغيرها[1].

المكتبة الإسلاميَّة غنية بالبحوث:

وقد حفلت المكتبة الإسلاميَّة الحديثة ـ وخاصة في السنين الأخيرة ـ بمجموعة قيِّمة من الكتب والدراسات العلميَّة الناضجة في شتَّى جوانب الحقل الإسلامي، سدَّت فراغًا ملموسًا في هذه الناحية، ولا زالت العقول الإسلاميَّة تبحث وتنتج، وستظل تبحث وتنتج، وسيزداد بحثها وإنتاجها طولًا وعرضًا وعمقًا، يوم تتبنَّى ذلك دولةٌ مسلمة حقًّا، تخطِّط وتوجِّه، وتجنِّد وتشجِّع.

وإذا أخذنا مجالًا كالمجال الاقتصادي الإسلامي مثلًا، نجد أن ثمة عشرات من الرسائل العلميَّة الأكاديميَّة من رسائل الماجستير والدكتوراه: قُدِّمت للجامعات والكليات، والأقسام المعنية بالدراسات الإسلاميَّة، عالجت موضوعات شتَّى تدور حول الاقتصاد الإسلامي بفروعه المختلفة.

وهناك مئات من الكتب والبحوث المتنوعة، منها البسيط والوسيط والوجيز، كتبت بأكثر من لغة حول الاقتصاد الإسلامي.

وفي المؤتمر الإسلامي العالَمي الأوَّل للاقتصاد الإسلامي، الَّذي انعقد بمكة المكرمة منذ نحو عشر سنوات، قدَّم أحد المشاركين فيه

(١) انظر كتابنا: الخصائص العامة للإسلام صـ ١٨٥ ـ ٢١٢، خصيصة الوضوح.

QaradawiBooks.com

ـ الأستاذ الدكتور محمَّد نجاة الله الصديقي ـ دراسة ببليوجرافية، أحصى فيها ما وصل إليه علمه ممَّا كُتِب عن الاقتصاد الإسلامي باللغات العربيَّة والأردية والإنجليزية، فبلغ مجموعها بضع مئات.

وبعد ذلك ظهرت كتب ودراسات أخرى كثيرة، أشارت إليها مجلة «المسلم المعاصر» في أكثر من عدد من أعدادها.

وقامت مؤسسات مالية إسلاميَّة: مصارف وشركات استثمار، وشركات تأمين أو تكافل إسلاميَّة، حتَّى بلغ عدد البنوك الإسلاميَّة أكثر من خمسين[1].

وقد أحيت هذه المصارف الإسلاميَّة كثيرًا من فقه المعاملات، الَّذي كان مهجورًا أو مطمورًا في بطون الكتب، وبدأت تظهر فتاوى ودراسات، وتُعقد ندوات خاصَّة ومؤتمرات عامَّة، حول المصارف الإسلاميَّة، وقد عقد منها الآن خمسة، قُدِّمت لها دراسات، وصدرت عنها توصيات.

كما صدرت فتاوى لهيئات الرقابة الشرعية فيها مثل: فتاوى «بيت التمويل الكويتي»، وفتاوى «بنك فيصل الإسلامي السوداني»، و«بنك فيصل الإسلامي المصري»، ومقرَّرات وتوصيات ندوات «بنوك البركة» السنوية. وكذلك صدر عن بعضها مجلات تعنى بهذا الجانب مثل مجلة «الاقتصاد الإسلامي» عن بنك دبي، ومجلة «النور» عن «بيت التمويل

(١) كان ذلك منذ أكثر من عشرين سنة، حين صدر الكتاب في طبعته الأولى، ١٩٩٢م.
ومنذ خمس سنوات في عام ٢٠٠٨م نشرت جريدة الشرق الأوسط في العدد (١٠٧٧٦)، الجمعة ٢٤ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ ـ ٣٠ مايو ٢٠٠٨م، مقالًا يشير إلى تزايد أعداد البنوك الإسلامية حول العالم إلى حوالي ثلاثمائة (٣٠٠) بنك، أما الآن فالمتوقع أن يصل هذا العدد إلى الضعف أو أكثر.

QaradawiBooks.com

الكويتي»، كما أنشئ المركز العالَمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، وصدرت عنه بحوث وكتب قيِّمة، ومجلة متخصصة.

وأنشئ مركز آخر، تابع لكلية التجارة بجامعة الأزهر.

وأنشئت جمعية الاقتصاد الإسلامي في القاهرة.

وكم عُقِدت ندوات وحلقات متخصصة في أكثر من بلد إسلامي عن الاقتصاد الإسلامي أو عن جانب منه مثل «التنمية»، أو «الزكاة»، أو «الموارد»، أو «البنوك»، في القاهرة، وجدة، والكويت، ودبي، وأبو ظبي، وقطر، وباكستان، وتركيا، والخرطوم، والأردن، وغيرها.

وقام «بيت الزكاة» في دولة الكويت، الَّذي عقد مؤتمرين علميَّين حول الزكاة وأحكامها، وأصدرت اللجنة العلميَّة في المؤتمر الأوَّل عدة فتاوى وتوصيات، ثمَّ تكوَّنت الهيئة العلميَّة العالميَّة لقضايا الزكاة المعاصرة.

كما صدرت عدة قوانين للزكاة في عدد من البلاد الإسلاميَّة.

وممَّا يذكر هنا أنَّ عددًا من المجامع العلميَّة مثل مجمع البحوث الإسلاميَّة بالأزهر، ومجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، والذي يمثل كل الدول الإسلاميَّة المشاركة في المنظمة، والمجمع الفقهي التابع لرابطة العالَم الإسلامي، كلها قد شغلت بموضوعات عدة تتعلق بالاقتصاد الإسلامي وما يتطلبه من اجتهاد، وصدرت عن هذه المجامع فتاوى أو توصيات أو قرارات في بعض الأمور المعروضة، ولا زال بعضها تحت البحث.

QaradawiBooks.com

وممَّا له علاقة بهذا الجانب: الدراسات الَّتي تناولت موضوع التأمين مثل ما كتبه الأساتذة: مصطفى الزرقا، وعلي الخفيف، وحسين حامد حسَّان، وعبد الرحمٰن عيسى، والبهي الخولي، وعيسى عبده، وعبد الله بن زيد المحمود، وداود حمدان، ومحمد الدسوقي، إلى غير ذلك من البحوث الَّتي صدر بعضها في كتب أو نُشِر في المجلات.

وبعضها ألقي في مؤتمرات علميَّة كمجمع البحوث بالأزهر، وأسبوع الفقه الإسلامي الَّذي عقده المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعيَّة بدمشق في عهد الوحدة بين مصر وسوريا، وصدرت بحوثه في مجلد كبير. وكان موضوع التأمين يشغل نصف هذه البحوث إن لم يكن أكثر.

بقي اختيار رأي من هذه الآراء، وذلك موكول إلى «جماعة المجتهدين» أو إلى الدولة المسلمة ممثلة في مجلس تشريعها أو شوراها.

وفي العالَم الإسلامي الآن كفايات متنوِّعة، تستطيع أن تضع الحلول الجزئيَّة، والصور التفصيليَّة لكل مشكلة من مشكلات الحياة المعاصرة، وفي ضوء الإسلام. ومن اليسير أن يتجمع أصحاب هذه الكفايات، ويبدؤوا العمل فورًا عندما يجنِّدهم حاكم مسلم، وتستفزُّهم دولة مسلمة.

المهم أن يصح منَّا العزم، وتصدق النية في العودة إلى الإسلام، وتطبيق شريعته فسرعان ما يتضح الطريق.

ويمكن أن تقوم الآن مجامع الفقه الإسلامي في جدة ومكة، أو البحوث الإسلاميَّة بالأزهر، بدور علمي في بيان ملامح المجتمع المنشود في ضوء اجتهاد معاصر قويم، تحدَّثنا عن معالمه وضوابطه

QaradawiBooks.com

في كتابنا عن «الاجتهاد في الشريعة الإسلاميَّة: نظرات تحليلية في الاجتهاد المعاصر».

الحركات الانقلابية الكبرى لا تُعْنى بالتفصيلات:

والحقيقة الثانية: أنَّ الحركات الكبرى الَّتي غيَّرت وجه الحياة، وحوَّلت مجرى التاريخ، لم تقدِّم للناس إلَّا فلسفة أو هداية كلية، ومفاهيم عامَّة، تندرج تحتها أحكام وتعاليم جزئيَّة كثيرة.

فالأديان حين ظهرت لم تدع إلَّا إلى مبادئ عامَّة، تجدِّد بها وجه الحياة، وتقوِّم بها عوج المجتمع، كالتوحيد، والإيمان بالجزاء، والعمل الصالح، ومكارم الأخلاق. ولم تقدِّم للناس مجموعات قانونية، أو مجلدات في تطوير الآداب والفنون والإصلاح الاجتماعي.

كان مجرَّد نداء الرسل في أقوامهم المشركين: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] يشير إلى وجه المجتمع الجديد، ويرسم تقاطيعه.

فإذا كان في المجتمع رذيلة معيَّنة ندَّد الرسول بها، وحذَّر منها وأنذر، كقول لوط: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقول شعيب: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ [هود: ٨٤].

كان رسول الإسلام يبعث إلى ملوك الأرض، وأباطرة الدول الكبرى بهذه الآية الكريمة: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤] فيفهمون ـ بهذه الآية وحدها ـ أي حياة ينشد، وأي مجتمع

QaradawiBooks.com

يريد. ثمَّ لما قام المجتمع الإسلامي في المدينة، جاء التشريع المفصِّل لكل نواحي الحياة.

وليست الأديان وحدها هي الَّتي اقتصرت على المفاهيم الكُلِّيَّة، والمبادئ العامَّة، فكل الحركات «الأيديولوجيَّة» الكبرى كانت كذلك.

فالثورة الفرنسيَّة الليبرالية، إنَّما جمعت الناس حول مبادئ ثلاثة: الحرية، والإخاء، والمساواة. وفهم أنصارها وخصومها ماذا تعني هذه الكلمات، وعرفوا من خلال هذا الشعار القسمات العامَّة لوجه المجتمع الجديد.

ولهذا أقول: إنَّ مطالبة الدعاة إلى نظام الإسلام ـ وحدهم ـ بالحلول الجزئيَّة، والمناهج التفصيليَّة لكلِّ شيء، ضَرْبٌ من التعسف والتزمت، لا يقبله منطق، ولا يرضاه منصف، ولم تقدِّمه أية أيديولوجيَّة جديدة، فضلًا عن أيديولوجية قديمة أصيلة مرتبطة بعقيدة المجتمع ومشاعره وتراثه.

ولنأخذ «الماركسيَّة» مثلًا، هل كانت أعدَّت لكل أمر عُدَّته، ووضعت لكل جانب من الحياة برنامجه المفصَّل، قبل استيلائها على الحكم في «روسيا» أو غيرها؟

كلَّا، بل كانت ترفض ذلك، وكان كل همِّها موجهًا إلى الجانب السلبي، أي الجانب الَّذي يجب أن تزيله وتهدمه في الحياة القديمة، أما ماذا يجب أن تبنيه، فلم يضع ماركس، ولا لينين، أي تفصيلات للمجتمع الَّذي ينشدانه.

وقد علَّقت على ذلك الكاتبة الماركسيَّة «روزا لوكسمبرج» فقالت: «إنَّنا نعرف ماذا يجب أن نزيل أولًا، كي نحرِّر الطريق، ونعدُّها لاقتصاد

QaradawiBooks.com

اشتراكي. ولكن عندما نتطلع إلى الخطوات الجزئيَّة، والعمليَّة الضروريَّة، لإشـادة المبادئ الاشـتراكيَّة في الاقتصاد والقانون، وجميع العلاقات الاجتماعيَّة، لا نجد مفتاحًا لذلك في أيٍّ من الكتب الاشتراكيَّة. ليس في الأمر نقص، بل ميزة تجعل الاشـتراكيَّة العلميَّة متفوقة على الاشتراكيَّة المثاليَّة. ففي إمكان المجتمع الاشتراكي أن يكون ـ بل يجب أن يكون ـ نتاجًا تاريخيًّا ينـشأ عن تجارب الاشتراكيَّة الخاصَّة، ويظهر أثناء تحققها. فتطور التاريخ تطورًا حيًّا ينطوي دائمًا على إنتاج الحل المناسـب لكل حاجة اجتماعيَّة حقيقيَّة».

ثم تنتهي «لوكسـمبرج» إلى القول: «بأنه من الممكن تخطيط الوجه السلبي، وجه الهدم، وإعلانه بقرار، ولكن ليس بالمستطاع تحقيق البناء ـ أي الناحية الإيجابيَّة ـ عن طريق القرارات»[١].

ومن هنا يقرر «فدلـوب ميلا»: أنَّ «ماركـس» كان «بخيلًا» جدًّا في تحديد المجتمع الجديد، وفي امتناعه عن إعطاء أية صورة واضحة عنه.

أما «سـوريل» فيقول: «إننا لن نتهم بالترديد مهمـا كررنا القول بأن الماركسيَّة تنقض أية فكرة عن المجتمع المقبل، كما تصوره الاشتراكيون المثاليون، لأنَّ رفض أي تحديد له يُشكِّل أحد العناصر الرئيسية الأولى في الماركسيَّة»[٢].

وكتب «ماركس» عام ١٨٦٩م إلى صديقه «بيسلي» ـ الَّذي نشر مقالًا عن مستقبل الطبقة العاملة ـ رسالة يقول فيها: «إنَّه كان يعتبره ـ قبل هذا

(١) الأيديولوجية الانقلابية للدكتور نديم البيطار صـ ٣٩٤، نشر المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٦٤م.

(٢) المصدر السابق صـ ٣٩٥.

QaradawiBooks.com

المقال ـ الثوري الإنجليزي الوحيد، ولكنَّه أخذ يعتبره رجعيًّا بعدئذٍ، لأنَّ أي اشتراكي يرسم خطة للمستقبل يكون رجعيًّا»[١]!

كل ما أكدت عليه الماركسيَّة هو تربية «البروليتاريا» تربية ثورية، حتَّى إذا تولت هي زمام السُّلطة، وتحققت دكتاتوريتها، برز المجتمع الشيوعي آنذاك، دون أي توجيه أو تنظيم أو مشروع، لأنَّ مشاريع من هذا النوع هي من صفات المثاليين!

اعتبر «ماركس» ـ كما يلاحظ «سوريل» وغيره ـ أنَّ «البروليتاريا» لا تحتاج إلى دروس من مخترعي الحلول للمشاكل الاجتماعيَّة، بل تسلم الإنتاج حيث تتركه الرأسماليَّة. فليست هناك أية حاجة لبرامج عن المستقبل؛ لأنَّها تبتدئ تدريجيًّا في المعامل[٢].

وهذا الاتجاه النظري لمؤسس «الاشتراكيَّة العلميَّة» يؤكده الواقع التاريخي لتطور الاشتراكيَّة في روسيا السوفيتية.

يقول مؤلفو «علم الاقتصاد الحديث»: «لقد ركز كلٌّ من «ماركس» و«لينين» اهتمامهما في العقائد الاقتصادية والاجتماعيَّة. ولذلك عندما تسلَّم «البولشفيك» زمام السُّلطة سنة ١٩١٧م لم يكن أمامهم أي مخطط جاهز للنظام الاقتصادي الَّذي ستنشئه ديكتاتوريَّة العمال، وقد حاولوا لفترة قصيرة تطبيق نظريَّة ماركس في «القيمة المنبثقة من العمل» ولكنَّهم تخلَّوا عن هذه المحاولة. وأظهر «البولشفيك» براعة سياسيَّة أمَّنت لهم البقاء في الحكم، وأخذوا يطبقون التجارب على مرِّ السنين حتَّى أنشؤوا النظام الروسي الحالي. وربَّما كان باستطاعة الزعماء

(١) الأيديولوجيا الانقلابية للدكتور نديم البيطار صـ ٣٩٥.

(٢) المصدر السابق صـ ٣٩٦.

QaradawiBooks.com

الروس أن يكشفوا نفس النتائج بطريقة أقصر، وكلفة أقل، لو درسوا علم الاقتصاد دراسة نظامية، ولكن عقيدتهم الماركسيَّة كانت تنكر هذا العلم من أساسه»[١].

وهذا الاتجاه إلى الاهتمام بالعقائد والمفاهيم الرئيسية، الَّذي كان من سمات الماركسيَّة، هو ما تبنَّاه «اليسار العربي» أيضًا. كما يتضح ذلك في اتِّجاه حزب «البعث العربي» قبل أنْ يتسلم السُّلطة، فقد كانت كتاباته ـ كما يقول الدكتور منيف الرزاز ـ قليلة الاهتمام بتصوُّر مجتمع المستقبل، بل إنَّ فيلسوف الحزب ـ ميشيل عفلق ـ يرفض في إحدى مقالاته أن يبحث صورة هذا المجتمع[٢].

والعجب بعد هذا كله أن نجد من الماركسيِّين واليساريين العرب مَن يجادل دعاة الفكرة الإسلاميَّة حول صور تفصيليَّة للمستقبل الَّذي ينشدون، ويورِّطونهم في أسئلة متلاحقة عن الحلول الجزئيَّة، والبرامج المفصَّلة لكل صغيرة وكبيرة من شؤون المجتمع، ومناحي الاقتصاد، والقانون، والتعليم، والآداب، والفنون، وإلخ.

وكثيرًا ما سمعنا منهم هذه الأسئلة: ما موقفكم من البنوك؟ وما رأيكم في مشكلات الإسكان والصحة والمجاري والماء والكهرباء، ورواتب الموظفين، والقطاع العام والخاص، والاستيراد والتصدير، وأزياء النساء، و«التواليت» و«المانوكير» وأزمة المواصلات، وخطف الطائرات، وإلخ؟!

(١) علم الاقتصاد الحديث صـ ٤٤٥.

(٢) انظر: التجربة المرة للدكتور منيف الرزاز صـ ٦٥، نشر دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط١، ١٩٦٧م.

QaradawiBooks.com

إنَّ بحسبنا أن نقول: إنَّنا نحارب الإلحاد والإباحية، والخلاعة والتهتك، ونرفض الربا والاحتكار، والخمر والميسر، والإثم والبغي بغير الحق، وسائر المنكرات الَّتي حرَّمها الإسلام، ولم تعد خافية على أيِّ مسلم.

بحسبنا أن نعلن: إنَّنا نريد مجتمعًا وصفه الله بقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [التوبة: ٧١] وبقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

بحسبنا أن نبيِّن ملامح المجتمع المسلم المنشود، ومعالم نظامه للحياة، من الشورى في الحكم، والعدل في توزيع الثروة، والمساواة في تطبيق قانون الشرع، والإخاء بين أفراد المجتمع وفئاته، وحرية الاجتماع والقول، والنقد في غير فحش ولا عدوان على حقِّ الآخرين، وسيادة القِيَم الإيمانية والمُثُل الأخلاقيَّة على كل قيمة في المجتمع، وإعلاء رابطة الأخوة الإسلاميَّة، والعمل على تحقيق الوحدة الإسلاميَّة الكبرى، بدءًا بالوحدة العربيَّة، الَّتي تعتبر خطوة مهمة في طريق الوحدة الإسلاميَّة، والعرب هم عصبة الإسلام، واللغة العربيَّة هي لسان عبادته، ووعاء ثقافته، وجعل الإيمان بالله وبالآخرة وبرسالة الإسلام الشاملة أساسَ التربية والتعليم، ومحور التثقيف والإعلام، وتطهير الثقافة من السموم الفِكْرِيَّة الغازية، ومن رواسب عصور التخلف، وإحياء التقاليد الإسلاميَّة الأصيلة، ومحاربة العادات والتقاليد الضارَّة الدخيلة، من الميوعة والخلاعة والتحلُّل، وتربية الشباب على معاني الجد والاستقامة، والفتيات على معاني العفاف والحياء، والشعب كله على معاني الحق والخير والطهر والقوَّة، والدعوة إليها والجهاد في سبيلها.

QaradawiBooks.com

وبجوار هذا كله الاستفادة كل الاستفادة بـ «العلم الحديث» ووضع خطة للتفوق فيه، والتبريز في كل ميادينه، واستخدام أقصى ما تقدمه «التكنولوجيا» المعاصرة لتطوير مجتمعنا، واستغلال طاقاته الضخمة كلها المادِّيَّة والبَشريَّة، وبناء اقتصاده، وقواته المسلحة على أحدث الأسس العلميَّة العصرية، إلى غير ذلك من الملامح والمعالم العامَّة.

وبحسبنا أنْ نعمل على تربية الجيل المسلم الجديد الَّذي يقود الاتجاه الجديد، ويبني المجتمع الجديد على تقوى من الله ورضوان، مستهديًا بهَدي الإسلام.

أقول: هذا حسبنا، وهو كافٍ للردِّ على المجادلين والمناورين من خصوم الاتجاه الإسلامي، وبخاصَّة الماركسيُّون واليساريون منهم.

ومع هذا لم نكتف بالملامح والخطوط العريضة، بل قدَّم الإسلاميون ـ كما ذكرت ـ كثيرًا من الحلول والصور الَّتي لا تخلو من تفصيل، قطعًا للألسنة المماراة، وزيادة في البيان والإيضاح، وإقامة للحُجَّة على المرتابين والمتوجِّسين من قدرة الفكر الإسلامي على مواجهة الحياة الحديثة، والعلم المتطور، والمجتمع المتغيِّر، بحلول وعلاجات تواكب تقدُّمه، وتوائم تطوره، وتهديه سبله، وبعد هذا البيان، لا عذر لمتخوِّف ولا مرتاب.

حقائق يجب أن تُعلم:

وأحبُّ أنْ أنبِّه هنا على بعض أشياء قد تغيب عن بعض الناس:

أولها: أنَّ كثيرًا من المشكلات الَّتي نعانيها اليوم، ونشكو منها، ونختلف في وصف علاج إسلامي لها، قد لا تبرز أصلًا في ظل

QaradawiBooks.com

المجتمع الإسلامي الصحيح؛ لأنَّ بروزها الآن ثمرة لأوضاع غير إسلاميَّة، ونتيجة لمجتمع غير ملتزم بمنهج الإسلام، ونظام الإسلام. فإذا تغيَّرت صفة المجتمع، وتغيَّرت أوضاعه بظهور المجتمع المسلم المتوازن المتكامل، بمقوماته وخصائصه وأوضاعه، تلاشت تلك المشكلات أو انكمشت، ولم تعد تكوِّن مشكلة حقيقيَّة.

مثال ذلك: أنَّ غياب نظام التكافل الإسلامي بما فيه فريضة الزكاة، وتخلِّي الدولة عن مسؤوليتها تجاه رعاياها، تلك المسؤوليَّة الَّتي تتمثل في قول الرسول ﷺ: «**أنا أولى بكل مسلم من نفسه، مَن ترك مالًا فلورثته، ومَن ترك ديْنًا أو ضَيَاعًا** ـ أولادًا صغارًا لا مال لهم ـ **فإليَّ وعليَّ**»[(١)]. والتي جعلت عمر بن الخطاب يفرض لكلِّ مولود في الإسلام نصيبًا في بيت المال.

أقول: إنَّ غياب هذا النظام الإسلامي مع تعقُّد الحياة الحديثة، وغلبة الأنانية على الناس، وتفكُّك الروابط الأسرية، جعل الناس يخافون على أنفسهم، وعلى أولادهم من بعدهم، ممَّا جعلهم يرحِّبون بنظام التأمين الغربي على الحياة وغيرها.

وفي اعتقادي أنَّه لو طُبِّق نظام التكافل الإسلامي، وجُمِعت الزكاة كما يريد الإسلام، وصُرِفت كما يريد الإسلام في المصارف الشرعية، ومنها الفقراء والمساكين والغارمون، وقد وضَّحتها بتفصيل في كتابي «فقه الزكاة»[(٢)]؛ لاستغنى الناس عن اللجوء إلى التأمين الغربي، بكفالة الإسلام، وتأمين الإسلام.

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الكفالة (٢٢٩٨)، ومسلم في الفرائض (١٦١٩)، عن أبي هريرة.

(٢) فقه الزكاة (٢/٥٥١ ـ ٧٥٤).

QaradawiBooks.com

ثانيًا: أنَّ من الناس مَن يتصوَّر أنَّ كل ما في مجتمعنا الحالي مخالف للإسلام، وأنَّ كل الأنظمة والقوانين والمؤسسات ستُهدَم وتُبنَى من جديد. وهذا ليس بتصوُّر سليم. فأكثر الأنظمة والقوانين والمؤسسات القائمة ستبقى، ولكن بعد أن تُنقَّى من العناصر الغربيَّة المناوئة للإسلام، وتُطعَّم بالعناصر الإسلاميَّة الخالصة، وبهذا تكتسب الشرعية، وتستحق البقاء باسم الإسلام.

لنأخذ مؤسسة كـ «السينما» مثلًا، فهل يهدم النظام الإسلامي دور «السينما»؟ أو يبقيها مثلًا لغير المسلمين، ويُحرِّمها على المسلمين؟

كلَّا، إنَّ نظام الإسلام لا يمنع قيام دور للسينما، لكن مع بعض القيود، مثل:

١ ـ أن يكون عددها معقولًا وملائمًا لمجتمع جاد، لا مجتمع عابث.

٢ ـ ألَّا تكون أداة لإثارة الشهوات الدنيا، وتحطيم القِيَم العليا، وإفساد أخلاق الشبان والشابات، وإفساد العقول بالأفكار الدخيلة المخالفة لعقائد الأمة ومفاهيمها، ولهذا كان لا بدَّ من انتقاء «الأفلام» الَّتي تعرضها، وتوجيه المؤلفين والمخرجين والمنتجين إلى النافع منها، سواء أكانت توجيهية أم ترفيهية. أما «الأفلام» المخرِّبة والغثَّة، فلا موضع لها في مجتمع صاحب رسالة.

٣ ـ ألَّا تصادم مواقيت الصلوات، فلا يجوز أن يبدأ عرض فيلم قبيل المغرب لينتهي بعد العشاء؛ حتَّى لا يكون المجتمع ممَّن أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات.

QaradawiBooks.com

٤ ـ ألَّا تُتَّخذ أعشاشًا للغرام، وأوكارًا للمتفلِّتين والمتفلِّتات من قيود الفضيلة.

٥ ـ ألَّا تُتَّخذ وسيلة لابتزاز أموال الشعب، نتيجةً لاحتكار طائفة من الناس لها، وبيع تذاكرها بأغلى الأثمان، دون رقيب ولا حسيب.

هذا مثل واحد أذكره هنا، وهو كافٍ للتدليل على ما أريد.

ثالثًا: أنَّ قيام نظام إسلامي في مجتمع، لا يعني تغيير كل ما يُراد تغييره فيه ما بين عشية وضحاها، فمن الناس مَن يتصور أنَّه ـ بمجرد انتصار الاتجاه الإسلامي، والعودة إلى تطبيق شريعة الله ـ لا يطلع صباح اليوم التالي إلَّا وقد صدرت الأوامر بإغلاق المصارف «البنوك» الربوية السائدة، وتسريح موظفيها، وفرض الحراسة على ممتلكاتها، إلخ، وتبعًا لهذا التصور يتوقَّعون زلزلة الاقتصاد، وتعطيل المصالح، واختفاء رؤوس الأموال، وغير ذلك من النتائج والآثار.

وهذا التصور إنَّما جاء نتيجة القصور في فهم المنهج الإسلامي في علاج الواقع الفاسد، وتغيير المنكر القائم، وبناء المجتمع الصالح.

فهناك مبادئ ثلاثة لا بدَّ أن توضع في الاعتبار عند الاتجاه إلى تطبيق النظام الإسلامي، وإقامة المجتمع المسلم المنشود.

رعاية الضرورات:

(أ) هناك مبدأ «الضرورات» الَّتي اعترف بها الشرع، وجعل لها أحكامها، وتقرَّر ذلك في قواعد فقهيَّة عامَّة أصَّلها علماؤنا في كتب «القواعد الفقهيَّة» وفي كتب «الأشباه والنظائر» هي: «الضرورات تبيح المحظورات»، «الضرورة تُقدَّر بقدرها»، «الحاجة قد تنزل منزلة الضرورة».

QaradawiBooks.com

ولهذا المبدأ أدلته الكثيرة من الشرع في باب الأطعمة وغيره. وهو مبدأ مُسَلَّم به مُجْمَع عليه. والضرورات الشرعية ليست كلها فرديَّة، كما قد يُتوهم. فللمجتمع ضروراته، كما للفرد ضروراته، فهناك ضرورات اقتصادية، وسياسيَّة، وعسكريَّة، واجتماعيَّة، لها أحكامها الاستثنائية، الَّتي توجبها الشريعة، مراعاةً لمصالح البَشر، الَّتي هي أساس التشريع الإسلامي كله.

ارتكاب أخف الضررين:

(ب) مبدأ السكوت على المنكر إذا ترتَّب على تغييره منكر أكبر منه، دفعًا لأعظم المفسدتين، وارتكابًا لأخفِّ الضررين، وبناءً على هذا المبدأ يقرِّر الفقهاء طاعة الإمام الفاسق إذا لم يمكن خلعه إلَّا بفتنة وفساد أكبر من فسقه. وممَّا يُستدلُّ به لهذا المبدأ حديث النبي ﷺ لعائشة: «**لولا أنَّ قومك حديث عهدٍ بجاهلية لهدمتُ الكعبة، وبنيتها على قواعد إبراهيم**»[(١)]. ومن ذلك إبقاؤه ﷺ على المنافقين، وترك التعرُّض لهم، مع علمه بنفاق بعضهم على التعيين، وتعليله ذلك بقوله: «**أخشى أنْ يتحدَّث الناس أنَّ محمَّدًا يقتل أصحابه**»[(٢)].

وفي القرآن الكريم يذكر الله تعالى في قصَّة سيدنا موسى عليه السلام: أن سيدنا هارون سكت على عبادة قومه للعجل الَّذي صنعه لهم السامري، وفتنهم به، حتَّى يعود أخوه موسى، ويفصل في الأمر، وكان سكوته حفاظًا على وحدة القوم في هذه المرحلة حتَّى يجيء زعيمهم. وفي هذا

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٥٨٦)، ومسلم (١٣٣٣)، كلاهما في الحج، عن عائشة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩٠٥)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٣)، عن جابر.

QaradawiBooks.com

يذكر القرآن هذا الحوار بين موسى وأخيه هارون: ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۞ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۞ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه: ٩٢ ـ ٩٤].

ولم يعترض موسى على احتجاج أخيه بهذا العذر، ممَّا يدلُّ على إقراره وموافقته، وليس شيء أعظم من السكوت على عبادة عجل ذهبي من دون الله، ولكنَّه سكوت موقوت، لاعتبار مقبول.

مراعاة سُنَّة التدرج:

(ج) المبدأ الثالث: هو مبدأ «التدرج» الحكيم الَّذي نهجه الإسلام عند إنشاء مجتمعه الأول، فقد تدرَّج بهم في فرض الفرائض كالصلاة والصيام والجهاد، كما تدرَّج بهم في تحريم المحرَّمات كالخمر ونحوها.

وعند تجدُّد ظروف مماثلة لظروف قيام المجتمع الأوَّل أو قريبة منها، نستطيع الأخذ بهذه السنَّة الإلٰهيَّة ـ سُنَّة «التدرج» ـ إلى أن يأتي الأوان المناسب للحسم والقطع. وهو تدرج في «التنفيذ»، وليس تدرجًا في «التشريع» فإنَّ التشريع قد تمَّ واكتمل بإكمال الدين، وإتمام النعمة، وانقطاع الوحي.

ومن الشواهد الَّتي تُذكر هنا ما رواه المؤرخون عن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، الَّذي عدَّه كثير من أئمَّة الإسلام خامس الراشدين، أنَّ ابنه عبد الملك قال له يومًا: ما لك لا تنفذ الأمور؟! فوالله ما أبالي لو أنَّ القدور غلت بي وبك في الحق!

يريد الشاب التقي المتحمِّس من أبيه ـ وقد ولَّاه الله إمارة المؤمنين ـ أن يقضي على المظالم وآثار الفساد دفعة واحدة، دون تريُّث ولا أناة،

QaradawiBooks.com

وليكن بعد ذلك ما يكون. فماذا كان جواب الأب الصالح، والخليفة الراشد، والفقيه المجتهد؟

قال عمر: «لا تعجل يا بني، فإنَّ الله ذمَّ الخمر في القرآن مرَّتين، وحرَّمها في الثالثة، وإنِّي أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فيدفعوه جملة، ويكون من ذا فتنة»[1].

وهذا هو اليُسر، وتلك هي الواقعيَّة في منهج الإسلام العظيم.

* * *

(١) الموافقات (٩٤/٢)، تحقيق الشيخ عبد الله دراز، نشر دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الأقليات الدينيَّة والحل الإسلامي

من أبرز الشُّبهات الَّتي يثيرها أعداء الاتجاه الإسلامي كلَّما نادى منادٍ بحتميَّة الحل الإسلامي، وبوجوب العودة إلى نظام الإسلام وأحكام الإسلام: أنَّ في البلاد الإسلاميَّة أقليات لا تدين بالإسلام، ففي البلاد العربيَّة ـ مثلًا ـ توجد أقليات مسيحيَّة أرثوذكسية أو كاثوليكيَّة، وربَّما بروتستانتية، كما يوجد بعض اليهود في بعض الأقطار.

فكيف يقبل هؤلاء «الحل الإسلامي» وهو يستمد أحكامه من دين لا يؤمنون به، ولا يرضونه حَكَمًا في شؤون حياتهم؟ وكيف يُرغم هؤلاء على أمرٍ يخالف دينهم، وهذا ينافي مبدأ «الحرية» الَّذي قرَّره إعلان حقوق الإنسان، كما ينافي مبدأ «عدم الإكراه» الَّذي قرَّره الإسلام نفسه منذ أربعة عشر قرنًا حين قال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؟

لهذا يكون الأولى أن يُحكم المواطنون جميعًا حكمًا قوميًّا عِلمانيًّا، يستوي فيه أهل الأديان جميعًا، ولا مجال فيه لطائفيَّة أو لعصبيَّة دينيَّة، كما هو مفهوم الدولة الحديثة، فالدين لله والوطن للجميع!

هذه هي شُبهة القوم حول الأقليات غير المسلمة في المجتمع الإسلامي، وهي شُبهة واهية، بل باطلة. كما سنبيِّن ذلك فيما يلي:

حق الأكثريَّة في حكم أنفسهم بما يعتقدون صلاحيته لهم:

(أ) أما دعواهم: أنَّ الاتجاه إلى الحل الإسلامي والشرع الإسلامي ينافي مبدأ الحرية لغير المسلمين وهو مبدأ مقرَّر دوليًّا وإسلاميًّا، فقد نسوا أو تناسوا أمرًا أهم وأخطر، وهو أنَّ الإعراض عن الشرع الإسلامي والحل الإسلامي من أجل غير المسلمين ـ وهم أقلية ـ ينافي مبدأ الحرية للمسلمين في العمل بما يوجبه عليهم دينهم، وهم أكثريَّة.

وإذا تعارض حق الأقلية وحقّ الأكثريَّة فأيهما نقدِّم؟

إنَّ منطق الديمقراطيَّة ـ الَّتي يؤمنون بها ويدعون إليها ـ أن يُقدَّم حق الأكثريَّة على حقّ الأقلية.

هذا هو السائد في كل أقطار الدنيا، فليس هناك نظام يرضى عنه كل الناس. فالناس خُلِقوا متفاوتين مختلفين، وإنَّما بِحَسْب نظام ما أن ينال قبول الأكثرين ورضاهم، بشرط ألَّا يحيف على الأقلين ويظلمهم ويعتدي على حرماتهم، وليس على المسيحيِّين ولا غيرهم بأس ولا حَرَج أن يتنازلوا عن حقِّهم لمواطنيهم المسلمين ليحكموا أنفسهم بدينهم، وينفذوا شريعة ربهم حتَّى يرضى الله عنهم، ولا يكونوا من الفاسقين أو الظالمين أو الكافرين، إذا لم يحكموا بما أنزل الله. كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

ولو لم تفعل الأقلية الدينيَّة ذلك، وتمسكت بأن تنبذ الأكثريَّة ما تعتقده دينًا يعاقب الله على تركه بالنار، لكان معنى هذا أن تفرض

QaradawiBooks.com

الأقلية ديكتاتوريَّة على الأكثريَّــة، وأن يتحكَّم مثلًا ثلاثة ملايين أو أقل في أربعين مليونًا أو أكثر. وهذا ما لا يقبله منطق ديني ولا علماني.

غير مرخصة للطباعة

الحكم الإسلامي خير للمسيحي من الحكم العلماني:

(ب) وهذا على تسليمنا بأنَّ هناك تعارضًا بين حق الأكثريَّة المسلمة، وحق الأقلية غير المسلمة.

والواقع أنَّه لا تعارض بينهما.

فالمسيحي الَّذي يقبل أن يُحكم حكمًا علمانيًّا لا دينيًّا، لا يضيره أن يُحكم حكمًا إسلاميًّا.

بل المسيحي الَّذي يفهم دينه ويحرص عليه حقيقة، ينبغي أن يرحِّب بحكم الإســلام؛ لأنَّه حكم يقوم على الإيمان بالله ورســالات السماء، والجزاء فــي الآخرة. كما يقــوم على تثبيــت القِيَم الإيمانيــة، والمُثُل الأخلاقيَّة، الَّتي دعا إليهــا الأنبياء جميعًا. ثمَّ هو يحترم المســيح وأمه والإنجيل، وينظر إلى أهل الكتاب نظرةً خاصَّة، فكيف يكون هذا الحكم ـ بطابعه الربَّاني الأخلاقي الإنســاني ـ مصدر خوف أو إزعاج لصاحب دين يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر؟ على حين لا يزعجه حكم لا ديني علماني يحتقر الأديان جميعًا، ولا يســمح بوجودها ـ إن سمح ـ إلَّا في ركن ضيق من أركان الحياة؟!

من الخير للمسيحي المخلص أن يقبل حكم الإسلام ونظامه للحياة، فيأخذه على أنَّه نظام وقانون ككل القوانين والأنظمة، ويأخذه المســلم على أنَّه دين يرضي به ربَّه، ويتقرَّب به إليه.

ومن الخير للمسيحيين ـ كما قال الأستاذ حسن الهضيبي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أن يأخذه المســلمون على أنَّه دين؛ لأنَّ هذه الفكرة تعصمهم من الزلل في

QaradawiBooks.com

تنفيذه، وعين الله الساهرة ترقبهم، لا رهبة الحاكم، الَّتي يمكن التخلص منها في كثير من الأحيان[١].

ومن هنا رحَّب العقلاء الواسعو الأفق من المسيحيين بالنظام الإسلامي بوصفه السدَّ المنيع في وجه المادِّيَّة الملحدة الَّتي تهدِّد الديانات كلها، على يد الشيوعيَّة العالميَّة كما سنذكر شيئًا من ذلك من كلام العلَّامة فارس الخوري.

وأودُّ أنْ أُصحِّح هنا خطأً يقع فيه كثيرون، وهو الظنُّ بأنَّ القوانين الوضعيَّة المستوردة من الغرب المسيحي قوانين لها رحم موصولة بالمسيحيَّة، فهذا خطأ مؤكد، والدارسون لأصول القوانين ومصادرها التاريخيَّة يعرفون ذلك جيدًا، بل الثابت بلا مراء أنَّ الفقه الإسلامي أقرب إلى المسيحيَّة والمسيحيين في أوطاننا من تلك القوانين، لأصوله الدينيَّة من ناحية، ولتأثره بالبيئة المحيطة الَّتي هم جزء منها.

الحكم الإسلامي لا يرغم المسيحيين على أمر يخالف دينهم:

(ج) الادعاء بأنَّ سيادة النظام الإسلامي فيه إرغام لغير المسلمين على ما يخالف دينهم، ادعاء غير صحيح.

فالإسلام ذو شُعَب أربع: عقيدة، وعبادة، وأخلاق، وشريعة.

فأما العقيدة والعبادة فلا يفرضها الإسلام على أحد.

(١) رسالة دستورنا للأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام السابق للإخوان المسلمين صـ ١٤ ـ ١٥، نشر مكتبة المنار، الكويت.

QaradawiBooks.com

وفي ذلك نزلت آيتان صريحتان حاسمتان من كتاب الله: إحداهما مكية والأخرى مدنية، في الأولى يقول تعالى مخاطبًا رسوله الكريم ﷺ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وفي الثانية يقول سبحانه في أسلوبٍ حازم: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقد نزلت هذه الآية في شأن رجال من الأنصار كان لهم أبناء على الديانة اليهودية أو النصرانية، فأرادوا أن يجبروهم على تغيير دينهم إلى الإسلام، فنزلت الآية قاطعةً مانعة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وجاء عن الصحابة في أهل الذمَّة: «اتركوهم وما يَدِينُون»[1].

وأمَّا العبادة: فمنذ عهد الخلفاء الراشدين، واليهود والنصارى يؤدون عباداتهم، ويقيمون شعائرهم، في حرية وأمان، كما هو منصوص عليه في العهود الَّتي كُتِبت في عهد أبي بكر وعمر، مثل عهد الصلح بين الفاروق وأهل إيلياء (القدس).

ومن شدة حساسية الإسلام أنَّه لم يفرض الزكاة ولا الجهاد على غير المسلمين، لما لهما من صبغة دينيَّة، باعتبارهما من عبادات الإسلام الكبرى، مع أنَّ الزكاة ضريبة مالية، والجهاد خدمة عسكريَّة. وكلَّفهم مقابل ذلك ضريبة أخرى على الرؤوس، أعفى منها النساء والأطفال والفقراء والعاجزين وهي ما سمِّي «الجزية».

ولئن كان بعض الناس يأنف من إطلاق هذا الاسم، فليسمُّوه ما يشاؤون. فإنَّ نصارى بني تغلب من العرب طلبوا من عمر أن يدفعوا

(١) ذكره ابن الهمام في فتح القدير (٣٦٢/٩)، نشر دار الفكر.

QaradawiBooks.com

مثل المسلمين صدقة مضاعفة ولا يدفعوا هذه الجزية، وقبل منهم عمر، وعقد معهم صلحًا على ذلك، وقال في ذلك: «هؤلاء القوم حمقى، رضوا بالمعنى، وأبوا الاسم»[١]!

أما شُعبة الأخلاق: فهي ـ في أصولها ـ لا تختلف بين الأديان السماويَّة بعضها وبعض، فجميعها تدعو إلى العدل والرحمة والإحسان والمحبة والعفاف والشجاعة والسخاء، والتعاون على الخير (إلَّا ما وضعه اليهود في شريعة «التلمود» الخارجة على الأديان والأخلاق جميعًا).

فالزنى ـ مثلًا ـ محرَّم في هذه الديانات كلِّها.

والمسيح يقول: «مَن نظر بعينه فقد زنى». والرسول ﷺ يقول: «**العينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما البطش**»[٢] إلخ.

والظلم والغش، وأكل مال اليتيم، والقسوة على الضعفاء، وغير ذلك من الرذائل، تحرِّمها كل الأديان.

بقيت شُعبة الشريعة بالمعنى الخاص: معنى القانون الَّذي ينظم علائق الناس بعضهم ببعض: علاقة الفرد بأمته وعلاقته بالمجتمع، وعلاقته بالدولة، وعلاقة الدولة بالرعية، وبالدول الأخرى.

فأمَّا العلاقات الأسرية فيما يتعلق بالزواج والطلاق ونحو ذلك، فهم مخيَّرون بين الاحتكام إلى دينهم والاحتكام إلى شرعنا. ولا يُجبرون على شرع الإسلام باعتبار هذه «الأحوال الشخصية» ـ كما تسمَّى ـ ممَّا له علاقة مباشرة بالدين ومساس به، وقد أُمِرنا بتركهم وما يدينون:

---

(١) انظر: المغني لابن قدامة (٣٤٤/٩)، نشر مكتبة القاهرة.

(٢) رواه مسلم في القدر (٢٦٥٧) وأحمد (٨٥٢٦)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ فمَن اختار منهم نظام الإسلام في المواريث مثلًا ـ كما في بعض البلاد العربيَّة ـ فله ذلك، ومَن لم يرد، فهو وما يختار.

وأما ما عدا ذلك من التشريعات المدنيَّة والتجارية والإدارية ونحوها فشأنهم في ذلك كشأنهم في أية تشريعات أخرى تُقتبس من الغرب أو الشرق، وترتضيها الأغلبيَّة.

وفي العقوبات قرَّر الفقهاء: أنَّ الحدود لا تُقام عليهم إلَّا فيما يعتقدون تحريمه كالسرقة والزنى[1]، لا فيما يعتقدون حِلَّه كشرب الخمر.

ومن هنا كان لأهل الذمة محاكمهم الخاصَّة يحتكمون إليها إن شاؤوا وإلَّا لجؤوا إلى القضاء الإسلامي، كما سجَّل ذلك التاريخ.

يقول المؤرخ الغربي «آدم متز» في كتابه عن «الحضارة الإسلاميَّة في القرن الرابع الهجري»: «لما كان الشرع الإسلامي خاصًّا بالمسلمين، فقد خلَّت الدولة الإسلاميَّة بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصَّة بهم. والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنَّها كانت محاكم كنسية، وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضًا، وقد كتبوا كثيرًا من كتب القانون. ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج، بل كانت تشمل ـ إلى جانب ذلك ـ مسائل الميراث وأكثر المنازعات الَّتي تخصُّ المسيحيين وحدهم ممَّا لا شأن للدولة به.

(١) ويرى أبو حنيفة أنَّ عقوبة الذمي والذمية في الزنى هي الجلد أبدًا لا الرجم؛ لأنَّه يُشترط الإسلام في توفر الإحصان الموجب للتغليظ في العقوبة. على أن في إقامة الحدود عامة على أهل الذمة كلامًا وخلافًا بين الفقهاء. انظر: فتح القدير لابن الهمام (٢٣٨/٥)، والمنتقى شرح الموطأ (٣٣١/٣)، نشر مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٣٣٢هـ، وحاشية الدسوقي (٣٢٠/٤)، نشر دار الفكر، والمغني لابن قدامة (٣١٧/١٢).

QaradawiBooks.com

على أنَّه كان يجوز للذمِّيِّ أن يلجأ إلى المحاكم الإسلاميَّة، ولم تكن الكنائس بطبيعة الحال تنظر إلى ذلك بعين الرضا. ولذلك ألَّف الجاثليق تيموتيوس (حوالي عام ٢٠٠هـ ـ ٨٠٠م) كتابًا في الأحكام القضائية المسيحيَّة؛ لكي يقطع كل عذر يتعلَّل به النصارى الَّذين يلجؤون إلى المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحيَّة».

إلى أن يقول: «وفي عام ١٢٠هـ (٧٣٨م) ولي قضاء مصر خير بن نعيم، فكان يقضي في المسجد بين المسلمين، ثمَّ يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج فيقضي بين النصارى، ثمَّ خصَّص القضاة للنصارى يومًا يحضرون فيه إلى منازل القضاة ليحكموا بينهم، حتَّى جاء القاضي محمَّد بن مسروق الَّذي ولي قضاء مصر (عام ١٧٧هـ)، فكان أوَّل مَن أدخل النصارى في المسجد ليحكم بينهم».

ثم قال متز: «أما في الأندلس، فعندنا أكثر من مصدر جدير بالثقة أنَّ النصارى كانوا يفصلون في خصوماتهم بأنفسهم، وأنَّهم لم يكونوا يلجؤون للقاضي إلَّا في مسائل القتل»[1].

وبهذا نرى أنَّ الإسلام لم يجبرهم على ترك أمر يرونه في دينهم واجبًا، ولا على فعل أمر يرونه عندهم حرامًا، ولا على اعتناق أمر ديني لا يرون اعتقاده بمحض اختيارهم.

كل ما في الأمر أنَّ هناك أشياء يحرِّمها الإسلام مثل الخمر والخنزير، وهم يرونها حلالًا، والأمر الحلال للإنسان سعة في تركه، فللمسيحي أن يدع شُرب الخمر ولا حَرَج عليه في دينه، بل لا أظنُّ دينًا يشجِّع شُرب

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز صـ ٩٣ ـ ٩٥، ترجمة د. أبي ريدة، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٥.

QaradawiBooks.com

الخمور ويبارك حياة السُّكر والعربدة. وكل ما في الإنجيل: أنَّ قليلًا من الخمر يُصلح المعدة[١]. ولهذا اختلف المسيحيون أنفسهم في موقفهم من الخمر والسُّكر.

وكذلك بوسع المسيحي أن يعيش عمره كله ولا يأكل لحم الخنزير، فأكله ليس شعيرة في الدين، ولا سُنَّة من سُنَن النبيِّين، بل هو محرَّم في اليهودية قبل الإسلام. ومع هذا نرى جمهرة من فقهاء الإسلام أباحوا لأهل الذمة من النصارى أن يأكلوا الخنزير، ويشربوا الخمر ويتاجروا فيهما فيما بينهم وفي القرى الَّتي تخصُّهم، على ألَّا يظهروا ذلك في البيئات الإسلاميَّة، ولا يتحدوا مشاعر المسلمين.

وهذه قمة في التسامح لا مثيل لها: ألَّا يُضيَّق عليهم حتَّى في شيء أُحلَّ لهم، وحرَّمه الإسلام تحريمًا قطعيًّا، مع أنَّ المباحات لا حَرَج في تركها دينًا ولا خُلُقًا. بل يحبَّذ تركها إذا كان فيه إيذاء للآخرين. فكيف إذا كان هذا المباح عندهم مثل الخمر الَّتي أجمع على أضرارها أهل الدين والدنيا جميعًا؟ وقامت جمعيات لمنع المسكرات ومقاومة الكحوليات في العالَم كله؟ ومنعها بعض الدول بقوانين وضعية، وحاول ذلك آخرون، وإن أخفقوا في النهاية.

الحكم القومي العلماني لا يُرْضِي كل المواطنين:

(د) أما القول بتفضيل الاتجاه القومي العلماني على الاتجاه الإسلامي؛ لأنَّه يجمع المواطنين جميعًا دون تفرقة ولا طائفيَّة ولا عصبيَّة دينيَّة، فهذا القول مردود.

---

(١) وهو من أقوال بولس، وليس من قول المسيح عليه السلام. انظر رسالة بولس إلى تيموثاوس (٢٣/٥).

QaradawiBooks.com

فالاتجاه القومي دائمًا تعارضه ـ من الناحية القوميَّة البحتة ـ أقليَّات ترى أنَّ لنفسها قوميَّة غير قوميَّة الأغلبيَّة.

فإذا نادينا في بلادنا العربيَّة بالقوميَّة العربيَّة طابعًا للسياسة والحكم، قام في العراق قوم يقولون: نحن أكراد أو تركمان. وقام في لبنان مَن يقول: نحن فينيقيون سوريون أو أرمن. وقام في الجزائر أو المغرب مَن يقول: نحن بربر لا عرب، إلخ، وبذلك لم تحلَّ عقدة الأقليات الَّتي هربنا منها. وقد ثبت بالإحصاء والأرقام أنَّ الأقليات العِرقية في الوطن العربي أكبر بكثير من الأقليات الدينيَّة.

فإذا نظرنا إلى القوميَّة العِلمانيَّة من الوجهة الفِكْرِيَّة (الأيديولوجيَّة) وجدنا جماهير الأمة تعارضها بحكم التزامها بالإسلام الَّذي لا يقبل من المسلم أن يحتكم إلى شريعة غير شريعة محمَّد ﷺ، ولا من الحاكم أن يحكم بغير هذه الشريعة الخاتمة، وإلَّا دمغه القرآن بالكفر والظلم والفسوق: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

فإذا كان المسيحي يقبل الحكم العلماني؛ لأنَّه غير ملزم بشريعة، ولأنَّ كتابه يقبل قسمة الحياة بين قيصر والله: «دعْ ما لقيصرَ لقيصرَ وما لله لله»[1]، فالمسلم ما دام مسلمًا لا يقبله؛ لأنَّه مقيَّد بشريعة مفصَّلة تحدد له منهج حياته من أدب المائدة، إلى بناء الدولة، وشؤون الخلافة أو الإمامة العظمى، ولأنَّ الحياة عنده لا تقبل القسمة بين الله وبين أحدٍ سواه، فقيصر وغيره، والناس جميعًا عبادٌ لله، يجب أن يخضعوا لأمر الله وشرع الله.

(١) إنجيل متَّى (٢٢: ٢١).

QaradawiBooks.com

فالحكم العلماني بطبيعته ضد رغبات المسلمين، لأنَّه ضد التزامهم بعقيدتهم وشـــريعة ربهم، فكيف يقال إنَّه يجمع المواطنين جميعًا، وهو يعارض دين الأغلبيَّة واتجاهها؟

غير مرخصة للطباعة

عقوبة المرتدِّ:

بقيت قضية لا أحبُّ أن أهرب من مواجهتهـــا بصراحة، وهي قضية عقوبة المرتدِّ عن الإسلام الَّتي أثارت مواطنينا الأقباط في مصر يومًا ما، حتَّى دعوا إلـــى الصيام احتجاجًا على الاتجاه إلـــى هذا الحكم خاصَّة، وإلى تطبيق الشريعة بصورة عامَّة.

وأود أن أبيِّن هنا أنَّ المرتَّد عن الإسلام نوعان:

إما مسلم جديد، دخل الإســـلام حديثًا، ثمَّ أراد أن يعود مرَّة أخرى إلى دينه القديم.

وإما مســـلم قديم الإســـلام، أصيل فيه، برقت له بارقة ما، فأراد أن يخرج منه ليدخل في دين آخر، أو ليبقى زنديقًا بغير دين.

فأي هذين النوعين هو الَّذي يخاف الأقباط عليه، ويريدون أن يحموه من عقوبة المرتدِّ، وأن يبقى حبله على غاربه، يؤمن متى شـــاء، ويكفر متى شاء؟

فأما الأول، فلا شكَّ أنَّ الجميع يعلمون أنَّ الإسلام لا يُكْرِه أحدًا على الدخول فيه بـــأيِّ حالٍ من الأحوال، وهو فـــي هذا واضح كل الوضوح، حاسم كل الحسم، والقرآن الكريم مكِّيُّه ومَدَنِيُّه ينكر هذا ويمنعه كما أشرنا من قبل. ففي المكي يقول تعالى لرسوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونـــس: ٩٩]، وفـــي المدنـــي يقول:

QaradawiBooks.com

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، كما جاءت آيات شتَّى تلغي اعتبار أيِّ إيمانٍ لا يصدر عن إرادة حرة واختيار كامل.

ولكن الإسلام لا يرضى من الناس أن يجعلوا الدين «أُلْعوبة» يدخل أحدهم فيه اليوم ليخرج منه غدًا. على طريقة اليهود الَّذين قالوا في عهد النبـوَّة: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

ولطالما شكا المسيحيون في مصر من أولئك المتلاعبين بالدين من النصارى، حتَّـى إنَّ أحدهم ليترك دينه رغبـةً في التخلص من زوجته المسيحيَّة، وآخر يدخل الإسلام ليتزوَّج من حبيبته المسلمة. ولا مانع لدى هـذا أو ذاك أن يرجـع لدينه القديم متـى حنَّ إلى زوجته، أو نفر من حبيبته، والإسـلام غنيٌّ عن هـذا الصنف الَّذي لا يعتنقـه إلَّا لغاية دنيويَّة زائلة، والمسـلمون لا يعتـزون بهؤلاء، ولا يُرحِّبون بهم.

والعـلاج الناجع لهؤلاء وأمثالهـم: أن يعلموا مقدَّمًا أنَّ الإسـلام لا يقبل الهزل والتلاعـب والتنقل بيـن الأديان كتنقـل المتفرج بين المسـارح والملاهي، وأنَّ مَن دخل في الإسـلام يجب أن يدخله بعد اقتناع كامل بصحته ويقين تام بأحقيته، وأنَّ مَن دخله بإرادته الحرة لم يجز له الخروج منه، فمَن أراد الإسلام فليؤمن به على هذا الشرط. فإذا آمن بهـذا الوصف أصبـح واحدًا مـن جماعة المسـلمين، ومن حقِّ الجماعة أن تُعاقِب مَن يخونها ويتمـرَّد عليها من أبنائها، بعد أنَّ التزم مختارًا بشـريعتها. فهذا ما يتعلق بمن دخل جديدًا في الإسلام ثمَّ أراد الخروج منه.

QaradawiBooks.com

وأما المسلمون القدماء فلا وجه للاعتراض على عقوبة المرتدِّ منهم، ولم تحدث في تاريخ مصر رِدَّة تكون إشكالًا، فإنَّ ارتداد المسلم إلى النصرانية أمر في غاية الندرة بل الشذوذ، والمجتمع الإسلامي في بلد كمصر لا يقبله ـ ولا يسكت عليه لو حدث ـ وإن لم يكن هناك تشريع بعقوبة المرتد.

وقد حدث منذ سنوات أن حاولت الكنيسة تنصير طالبين في الإسكندرية فقامت الدنيا وقعدت، وهاج الرأي العام في مصر من أقصاها إلى أقصاها، وكادت تحدث فتنة طائفيَّة لا يعلم عواقبها إلَّا الله، فالأولى منع هذا بالتشريع المحكم، بدل أن يُترك لعواطف العامَّة، ومشاعر الجماهير، الَّتي لا أساس لها، ولا قيود تضبطها.

على أنَّ هذه الحالات الشاذة ليست هي المقصودة بالتشريع المذكور «عقوبة المرتد» أولًا بالذات، إنَّما المقصود الأوَّل هو مَن يرتدُّ عن الإسلام إلى غير دين، بل يعتنق مذاهب مادِّيَّة لا تؤمن بالله ولا برسالته، لا بمحمد ولا بالمسيح، وتريد هدم الأديان كلها كالشيوعيَّة الَّتي تزعم أنَّ الدين أفيون الشعوب، وتعمل على اقتلاع المجتمعات الدينيَّة قاطبة لحساب الإلحاد العالمي الأحمر. ولا أحسب الأقباط في مصر ولا المسيحيين في أيِّ بلدٍ يشجِّعون هذا اللون من الرِدَّة؛ لأنَّه خطر علينا وعليهم جميعًا. ولهذا يتنادى المؤمنون بالدين في العالَم كله بالتعاطف والتكاتف لصدِّه، والوقوف في وجهه.

إذن، لا داعي لهذه الضجَّة ولا مبرِّر لها، ولا ثمرة لمثل هذا الموقف إلَّا الاستفزاز وإثارة الحزازات.

QaradawiBooks.com

الحكم العلماني والعصبيَّة الدينيَّة:

(هـ) وأما القول بأنَّ الحكم العلماني لا مجال فيه لطائفيَّة ولا عصبيَّة دينيَّة ممَّا يُفهم أنَّ الحكم الإسلامي يثير التفرقة الطائفيَّة والتعصب الديني، فكِلا الأمرين غير صحيح.

فقد يوجد الحكم العلماني، وتوجد معه التفرقة الطائفيَّة والعصبيَّة الدينيَّة.

وهذا لبنان بلد علماني الحكم، ولا تزال الطائفيَّة فيه على أشدِّها، ولا يزال المسلمون والدروز يشكون من سوء نصيبهم في مناصب الدولة ومغانم الحكم، حتَّى انتهى الوضع إلى الحرب الأهلية الأخيرة، الَّتي جرَّت الخراب على الجميع، والتي يأسف لها كل ذي دين وكل ذي عقل.

وفي بريطانيا مظاهرات الكاثوليك واحتجاجاتهم المتكررة في أيرلندا، وقد تحوَّلت في السنوات الأخيرة إلى ثورة دامية.

وفي الهند تقوم المذابح الرهيبة بين حين وآخر، يذهب ضحيتها عشرات الألوف من المسلمين، الَّذين يكوِّنون أقلية ضخمة تزيد على مائة مليون. مع أنَّ الحزب الَّذي يحكمها كان هو حزب «المؤتمر» المعروف بعلمانيته. وفي الفترة الأخيرة وقعت ـ ولا زالت تقع ـ مصادمات عنيفة بين السيخ والهندوس، ذهبت ضحيَّتها رئيسة الوزراء السيدة «أنديرا غاندي»، والأتون مشتعل بين الطرفين إلى اليوم ووقوده الضحايا البَشريَّة، في ظل حكم الدولة العِلمانيَّة!

وفي البلاد الشيوعيَّة الَّتي يقوم حكمها على الإلحاد وعدم الاعتراف بأي دين يُعامَل المسلمون خاصَّة معاملة شاذة، مصدرها بقايا الحقد

QaradawiBooks.com

القديم من أيام بطرس ودولة الخلافة العثمانيَّة، ويُجْمِع المراقبون على أنَّ المسلمين في الاتحاد السوفييتي يتناقصون ولا يزيدون، كما هو شأن المسلمين في كل أنحاء العالَم حيث تضاعفت أعدادهم في نحو ثلث قرن، بل تدل الوقائع والأخبار أنَّ هناك إبادة منظمة للسكان المسلمين يمارسها ضدهم الشيوعيون الملحدون[1].

وبهذا ـ وأمثاله كثير ـ تسقط الدعوى القائلة بأنَّ الحكم العِلْماني لا يدع مجالًا للتفرقة الطائفيَّة، ولا للعصبيَّة الدينيَّة.

الحكم الإسلامي والتعصُّب الديني:

(و) بقي ما يُلمِّح به فريق، ويُصرِّح به آخرون، من اتهام الحكم الإسلامي بالتعصُّب الديني، والحيف على الفئات الأخرى، الَّتي تعيش في ظل دولته وفي كنف سلطانه.

وهو اتهام ظالم، ليس له أساس من شريعة الإسلام ولا من تاريخه.

دليل العدل والتسامح من شريعة الإسلام:

أما شريعة الإسلام فحسبنا قول الله تعالى:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩]. والخلط يقع دائمًا بين الصنفين المذكورين:

(١) انظر: الإسلام في وجه الزحف الأحمر للغزالي صـ ١٠٣ ـ ١٤٠، فصل: المسلمون في الاتحاد السوفييتي، نشر مكتبة الأمل، الكويت.

QaradawiBooks.com

الَّذين نهى الله عن تولِّيهم؛ لأنَّهم عادوا المسلمين وآذوهم وأعانوا عليهم، والذين رغَّب الله في برِّهم والإقساط إليهم؛ لأنَّه يحبُّ المقسطين.

وإذا كانت هاتان الآيتان نزلتا في شأن المشركين، كما هو مبيَّن في أسباب نزول السورة ـ الممتحنة ـ فإنَّ لأهل الكتاب منزلة خاصَّة في اعتبار الإسلام، فقد أباح القرآن مؤاكلتهم ومصاهرتهم. أي اعتبر ذبيحتهم حلالًا، كذبيحة المسلم على حين حرَّم ذبيحة الملحد والوثني، وأجاز للمسلم أن يتزوَّج كتابية عفيفة كما قرَّرت ذلك سورة المائدة. ومعنى هذا أنَّه أباح للمسلم أن تكون ربَّة بيته وشريكة حياته وأم أولاده كتابية، وأن يكون أصهاره وأخوال أولاده وخالاتهم وأجدادهم وجدَّاتهم من أهل الكتاب. وهذا ذروة التسامح.

أطلق الإسلام على اليهود والنصارى، الَّذين يعيشون في كنف دولته اسمين يوحيان بمعان كريمة سامية:

الأول: اسم «أهل الكتاب» إشارة إلى أنَّهم في الأصل أصحاب كتاب سماوي، وهذه التسمية لسائر اليهود والنصارى وإن لم يعيشوا في دار الإسلام.

والثاني: اسم «أهل الذِّمَّة» إيماءً بأنَّ لهم ذمَّة الله وذمَّة رسوله. أي: عهد الله وعهد رسوله ألا يُؤذوا، ولا تُهدر حقوقهم، أو تُخدش حُرماتهم. وهذا الاسم خاص بالذين يعيشون في ظل سلطان الإسلام.

وفي الحديث الشريف: «**مَن قتل معاهدًا لم يَرِحْ رائحة الجنة، وإنَّ ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا**»[1] والمعاهد يشمل مَن له عهد

(١) رواه البخاري في الجزية (٣١٦٦)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

QaradawiBooks.com

مؤقت بأمان ونحوه، وهو المستأمن. ومَن له عهد مؤبد، وهو الَّذي عهده أوثق وأوكد، وهو الذمي.

وفي حديث آخر: «**ألَا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسه، فأنا حجيجه يوم القيامة**»[١].

وقد كتبتُ بحثًا مستقلًّا وضَّحت فيه حقوق غير المسلمين في المجتمع الإسلامي وضمانات الوفاء بهذه الحقوق، وما عليهم من واجبات بإزاء هذه الحقوق، فليُرجع إليه[٢].

العدل والتسامح في تاريخ المسلمين:

أما تاريخ المسلمين في معاملة غير المسلمين، فلم ترَ البَشريَّة مثله نصاعةً وإشراقًا. إنَّه صحائف رائعة من التسامح الفذِّ المنقطع النظير بين المؤمنين بالأيديولوجيَّات، دينيَّة أو عِلمانيَّة، ممَّا جعل الشعوب المسيحيَّة وغيرها ترحِّب بالحكم الإسلامي منقذًا لها من تعصُّب حكامها الَّذين كانوا في بعض الأحيان على دينها، ولكن يخالفونها في المذهب.

ولن أنقل هنا كلام أحد من المسلمين، وأكتفي بما سجَّله المؤرخون الباحثون من غير المسلمين.

يذكر لنا المؤرخ «لودفيج» في كتابه «النيل حياة نهر» كيف استقبل أقباط مصر الجيش الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص استقبال

(١) رواه أبو داود في الخراج (٣٠٥٢)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٤٤٥)، وجوَّد إسناده العراقي في التبصرة والتذكرة (٧٧/٢)، عن بعض الصحابة.

(٢) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ومؤسسة الرسالة، بيروت.

QaradawiBooks.com

المنقذين، لا استقبال الغزاة الفاتحين، وكيف كان ترحيبهم بالغًا حدَّ الحماسة[١]. ويقول لودفيج: «إنَّه ما عدا فرض الجزية على المسيحي فإنَّ عَمْرًا لم يُفرِّق في المعاملة بين المسلمين والمسيحيِّين، بل إنَّه أعلن حمايته لحرية الأديان جميعًا، ولإقامة شعائرها، وكفل المساواة المطلقة بين المسلمين والمسيحيين على السَّرَّاء، مساواةً شملت كلَّ حقٍّ لهم، وكلَّ واجب عليهم، بما في ذلك وظائف الدولة، بغض النظر عن الجنس أو الدين»[٢].

ويقول «جيروم وجان تارو»: «إنَّ فضيلة التسامح الَّتي كانت أزهى السمات الخُلُقية في العرب، والتي ندر أنْ تتوافر لغيرهم في جميع الأزمان، هذه السجية الكريمة قد أفادت العرب كثيرًا، ولم يكن ليفيدهم ذكاؤهم الفطري وذوقهم الفني ونزعاتهم: لو لم يتميزوا بفضيلة التسامح»[٣].

ويقول المؤرخ والفيلسوف الفرنسي «جوستاف لوبون» في كتابه «حضارة العرب» متحدثًا عن عدل الفاتحين المسلمين وسماحتهم: «كان يمكن أن تُعمِي فتوحُ العرب الأولى أبصارَهم، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين ويكرهوهم على اعتناق دينهم الَّذي كانوا يرغبون في نشره في العالم... ولكنَّ العرب اجتنبوا ذلك فقد أدرك الخلفاء السابقون ـ الَّذين كان عندهم من العبقرية السياسيَّة ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة ـ أنَّ النظم والديانات

(١) الشرق والغرب من الحروب الصليبية إلى حرب السويس (المرحلة الأولى) للأستاذ محمد علي الغتيت صـ ٧٤، ٧٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ليست ممَّا يُفرض قسرًا[١]، فعاملوا ـ كما رأينا ـ أهل سوريا ومصر وأسبانيا، وكل قُطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في الغالب، إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقًا، في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحقُّ أنَّ الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا سمحًا مثل دينهم»[٢].

وينقل عن «جوتييه» في كتابه «أخلاق المسلمين وعاداتهم»: «لقد ثبت أنَّ الفاتحين من العرب كانوا على غاية فضيلة المسامحة، لم تكن تُتوقَّع من أناس يحملون دينًا جديدًا. وما فكَّرَ العربيُّ قط في أشد أدوار تحمُّسه لدينه الجديد أن يطفئ بالدماء دينًا منافسًا لدينه.

وقد جاءنا العالم «متز» في باب التسامح الإسلامي بتفاصيل أشد غرابة من هذه. قال: إنَّ من أعظم بواعث الاستغراب كثرةُ عددِ غير المسلمين من رجال الأسر في الدول الإسلاميَّة، وقد شوهد المسلم في بلاده يحكم عليه النصارى، وحدث مرتين في القرن الثالث للهجرة أن كان من النصارى وزراء حرب، وكان على القوَّاد ـ حماة الدين ـ أن يُقبِّلوا أيدي الوزير وينفِّذوا أمره هذا، والدواوين غاصة بالكتَّاب من النصارى».

ولم يكن التسامح مقصورًا على عهد الراشدين أو المسلمين الأولين، أو جنس العرب كما يظنُّ ذلك بعض الناس، بل بقي هذا

(١) الواقع أنَّ هذا الإدراك من الخلفاء الأولين ليس راجعًا إلى مجرد عبقرية سياسية، كما ذكر الكاتب، بل إلى تعاليم الإسلام التي كانت هي الموجِّه الأول لهؤلاء الخلفاء، والتي علَّمتهم أن: لا إكراه في الدين. وغرست فيهم روح العدل والسماحة منقطعة النظير.

(٢) حضارة العرب صـ ٦٠٥.

QaradawiBooks.com

التسامح صفة أصيلة ملازمة للمجتمع المسلم، وللحكم الإسلامي في كل عصر وفي كل مكان، أيًّا كان الحاكمون وكان المحكومون، حتَّى في أشدِّ العصور اشتهارًا بالعصبيَّة الدينيَّة، بل كانت الدولة الإسلاميَّة هي الملاذ الَّذي يلجأ إليه المضطهَدون من أيِّ دين، فيجدون فيها التسامح والأمان والاطمئنان.

يقول «توماس أرنولد» في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»: «وحدث أن هرب اليهود الأسبانيون المضطهَدون في جموع هائلة، فلم يلجؤوا إلَّا إلى تركيا في نهاية القرن الخامس عشر»[١].

ويقول أيضًا: «حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلَّعون بشوق عظيم إلى التركي، لعلهم يحظون كما حظي رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما في ظل أي حكومة مسيحيَّة»[٢].

ويقول «ريتشارد ستيبز» من أبناء القرن السادس عشر: «على الرغم من أنَّ الأتراك بوجهٍ عامٍّ شعب من أشرس الشعوب، فقد سمحوا للمسيحيين جميعًا: للإغريق منهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على دينهم، وأن يصرِّفوا ضمائرهم كيف شاؤوا، بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة في القسطنطينية وفي أماكن أخرى كثيرة جدًّا، على حين أستطيع أن أؤكِّد بحق ـ بدليل اثني عشر عامًا قضيتها في إسبانيا ـ إنَّنا لا نُرغَم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب، بل إنَّنا في خطر على حياتنا وأحفادنا. وهذا ما جعل بطريرك أنطاكية واسمه

(١) انظر: الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد صـ ١٨٢، ترجمة د. إبراهيم حسن وزميليه، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٠م.

(٢) المصدر السابق صـ ١٨٣.

QaradawiBooks.com

«مكاريوس» يقول: أدام الله دولة التـــرك خالدةً إلى الأبد فهم يأخذون ما فرضوه مـــن جزية، ولا شـــأن لهم بالأديـــان ســـواء أكان رعاياهم مسيحيين أو يهودًا أو سامرة»[١].

والعجيب أن يتم هذا التسامح في الوقت الَّذي كان المسلمون يُبَادون من الأندلس بعد أن أقاموا فيها ثمانية قرون ينشـــرون العلم والحضارة، ويهدون أوربا إلى طريق النور، في زمن لم تكن ترى فيه الضوء إلَّا من مثل سمِّ الخياط، وظل هذا التسامح ساريًا في كل الديار الإسلاميَّة، ومع كل الطوائف والأقليات، ما دام الشرع الإسلامي هو الَّذي يحكم ويسود.

حتى اليهود الَّذين يتصرَّفون كثيرًا تصرفـــات تثير مواطنيهم عليهم، وتوقد شـــعلة الكراهية لهم، وخاصـــة حين يدبِّرون المكايـــد خفية، أو ينشرون الفساد جهرة، حتَّى هؤلاء اليهود عاشوا في المجتمع الإسلامي آمن ما يكونون على أنفســـهم ومعابدهم وأعراضهم وأموالهم، الَّتي لم يتورَّعوا عن استخدامها في الربا المحرَّم عند المسلمين.

وأكتفي هنا بذكـــر وثيقـــة تاريخيَّة تبيِّـــن لنا كيف يعامـــل الحكم الإسلامي الأقليات ولو كانت يهودية.

وهذه هـــي الوثيقة: نـــص الفرمان «الظهير» الَّذي نشـــره الســـلطان محمَّد بن عبد الله ســـلطان المغرب في (٥ فبراير سنة ١٨٦٤م): «بسم الله الرحمٰن الرحيم. ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العلي العظيم. نأمر مَن يقف على كتابنا هذا، من سائر خدَّامنا وعمَّالنا والقائمين بوظائف أعمالنا: أن يعاملوا اليهود الَّذين بســـائر إيالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان

(١) الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد صـ١٨٣، فهو يحوي مئات الوقائع والأمثلة على سماحة المسلمين.

QaradawiBooks.com

الحق، والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام، حتَّى لا يلحق أحدًا منهم مثقالُ ذَرَّةٍ من الظلم ولا يُضام، ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام، وألَّا يعتدوا هم ولا غيرهم على أحدٍ منهم، لا في أنفسهم ولا في أموالهم، وألَّا يستعملوا أهل الحِرَف منهم إلَّا عن طيب أنفسهم، وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم، لأنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة، ونحن لا نوافق عليه، لا في حقهم، ولا في حق غيرهم، ولا نرضاه، لأنَّ الناس كلهم عندنا في الحق سواء. ومَن ظلم أحدًا منهم أو تعدَّى عليه، فإنَّا نعاقبه بحول الله.

وهذا الأمر الَّذي قرَّرناه وأوضحناه وبيَّنَّاه كان مقررًا، ومعروفًا محررًا، لكن زدنا هذا المسطور تقريرًا وتأكيدًا ووعيدًا في حق مَن يريد ظلمهم وتشديدًا؛ ليزيد اليهود أمنًا إلى أمنهم، ومَن يريد التعدي عليهم خوفًا إلى خوفهم.

صدر به أمرنا المعتز بالله في السادس والعشرين من شعبان المبارك عام ١٢٨٠هـ (ثمانين ومائتين وألف)»[1].

وكفى بهذه الوثيقة وحدها ردًّا على الأفَّاكين، الَّذين يثيرون العجاج، ويفتعلون الضجيج، بغير مسوِّغ ولا برهان.

ما سر هذه الضجة حول الأقليات؟

(ز) وليت شِعري إذا كان هذا هو موقف الإسلام الواضح المبين في شريعته وفي تاريخه، وهو البر والإقساط والتسامح مع غير المسلمين،

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٣/١١٣، ١١٤)، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، نشر دار الكتاب، الدار البيضاء، وخطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية للأستاذ عبد الله التل رَحِمَهُ اللَّهُ صـ ٢٢٧، ٢٢٨، نشر دار القلم، ١٩٦٤م.

QaradawiBooks.com

فما ســرُّ هذه الضجَّة حول «الأقليات»؟ وما معنى هذا التوجس والقلق الَّذي يبديه جماعة من غير المسلمين كلَّما ذُكِر الحكم الإسلامي، وكلَّما دعا الداعون بضرورة العودة إلى نهج الإسلام وشرع الإسلام؟

والجواب: إنَّ هذا التوتر لم ينبع من الداخل، وإنَّما جاء من الخارج، جاء من الغرب الَّذي شنَّ على المنطقة حملات صليبية وحشية متكرِّرة، ولم يرفع يده عنها بعد. والعجب أنَّه شنَّها باسم المسيح، رسول المحبة والسلام، والمسيح منها ومن أهلها براء.

ولا زال الغرب يكيد للمنطقة وأهلها، متذرعًا إلى ذلك بشتَّى الذرائع المختلفة، ومنها مسألة الأقليات.

إنَّ السياســة الَّتي اتبعها الغرب خلال ثمانية قرون هي استخدام مسألة الأقليات المسيحيَّة في الشــرق؛ لإثارة الفتن والقلاقل الَّتي تخدم أغراضه دائمًا، وذلك بخلق جوٍّ من الريبة والعداء الدائم بين المسلمين والمسيحيين.

ويصف المؤرخ «ليدوفيك دي كونتش» هذه السياســة فيقول: «كان الغرب يعمل جاهدًا على تأصيل بذور الكراهية والحقد ضد المســلمين في نفوس المســيحيين يتلقَّونها خَلَفًا عن سَــلَف، ويرضعها الطفل من شــعور أمه كما يرضع اللبن من ثديها، فتسري في كيانه مسرى الدم في عروقه وينشأ على عقيدة تقضي على العلاقة بين المسيحي وبين المسلم إلى الأبد»[1].

وفي ســبيل هذه الغاية الشــريرة حاول الغربيون أن يشوِّهوا تاريخ التسامح الإسلامي، الَّذي لم تعرف الإنسانيَّة له نظيرًا، متذرعين بحوادث

(١) الغرب والشرق، مرجع سابق صـ ٩٧.

QaradawiBooks.com

جزئيَّة قام بها بعض العوام والرعاع في بعض البلاد وبعض الأزمان، نتيجة لظروف خاصَّة تحدث في كل بلاد الدنيا إلى يومنا هذا.

من هذه الظروف أنَّ التسامح الإسلامي هيَّأ للكثير من أهل الذمة مراكز قوية في النواحي المالية والإدارية، فلم يحسنوا معاملة المسلمين، بل أظهروا التسلط والتعنت والجبروت.

وفي هذا يقول «متز»: «وكانت الحركات الَّتي يُقصد بها مقاومة النصارى موجهة أولًا إلى محاربة تسلط أهل الذمة على المسلمين»[١].

ويقول أيضًا: «إنَّ أكثر الفتن الَّتي وقعت بين النصارى والمسلمين بمصر ـ يعني في القرون الأولى ـ نشأت عن تجبُّر المتصرِّفين الأقباط»[٢].

ومن هذه الظروف أنَّ بعض النصارى كانوا يبدون ارتياحًا إذا انتصر الروم النصارى على المسلمين فيؤدي ذلك إلى هياج العوام عليهم.

ولا ننكر أنَّ هناك حكَّامًا ظلموا أهل الذمة أو تشدَّدوا عليهم، ولكن مثل هذا يعتبر شذوذًا عن القاعدة العامَّة في التسامح الإسلامي مع غير المسلمين.

وفي الغالب أنَّ هذا النوع من الحكَّام يظلم المسلمين قبل اليهود والنصارى، فإنَّ الظالم لا يقف ظلمه عند حد.

بل إنَّ كثيرًا من ظُلام الحكام كان يرفق بأهل الذمة، رعايةً لذمَّتهم، على حين يقسو على أهل مِلَّته من المسلمين ويحيف عليهم، حتَّى

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري صـ ١٠٦.

(٢) المصدر نفسه صـ ١١٢.

QaradawiBooks.com

وجدنا الشـــيخ الدردير علَّامة المالكية، وشـــيخ علماء عصره في مصر، يذكر عن أمراء زمانه: أنَّهم أعزُّوا أهل الذِّمة ورفعوهم على المســـلمين. حتَّى يقول: «ويا ليت المســـلمين عندهم كمعشـــار أهـــل الذمة! وترى المسلمين كثيرًا ما يقولون: ليت الأمراء يضربون علينا الجزية كالنصارى واليهود، ويتركونا بعد ذلك كما تركوهم! ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]»[1].

ولكنَّ الرجاء معقود بعقلاء المســـيحيين الَّذين يدركون كيد الغرب ونواياه الشريرة، الَّتي لم تشرب روح المسيحيَّة قط، حتَّى يوم غزت هذا الشرق باسم المسيح، وتحت عنوان الصليب.

فإن كان المســـيحيون وغيرهم من الأقليات يخافون سيادة الإسلام، فلا محل لهذا الخوف، وقد أمنوا في ظله قرونًـــا طوالًا. وإن كان بينهم مَن يحقدون على الإسلام، ويكرهون ســـيادته، فهذا ما لا حيلة لنا فيه، ونسأل الله أن يطهِّر قلوبهم وقلوبنا من الضغن والسخيمة.

ويســـرُّني أن أنقل هنا كلمات نيِّرة للمفكر المسلم المستشار طارق البشـــري من مقال له حول «الفتنة الطائفيَّة» في مصـــر، يقول حفظه الله: «من نقاط التَّماس في العلاقة بين المسلمين والأقباط: موضوع المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلاميَّة، وفي هذه المسألة هناك أمور يجب أن تجلى بدقة ووضوح، فإنَّ تطبيق الشـــريعة الإسلاميَّة هدف يطمح إليه كثير من المواطنين، وهو هدف تســـعى إليه الحركات السياسيَّة الإسلاميَّة، وهو حكم في الدستور، حكْمٌ نصَّ أولًا على أنَّ دين الدولة هو الإسلام، ثمَّ ارتقى بالنصِّ إلى اعتبار الشريعة الإســـلاميَّة مصدرًا للتشريع، ثمَّ ارتقى

(١) الشرح الصغير للدردير المطبوع مع حاشيته للعلامة الصاوي (٣١٥/٢)، نشر دار المعارف.

QaradawiBooks.com

إلى اعتبارها المصدر الرئيسي، وحتَّى الآن لم يجد هذا الحكم مجالًا له في التطبيق.

وأنَّ ما يشيع من قلق لدى الأقباط في هذه النقطة يتعين مواجهته من زاويتين، فمن الزاوية الأولى، من حق الأقباط كمواطنين أن يؤمنوا على مركزهم القانوني وحقوقهم ومستقبلهم، وأن تُبسط وجهة النظر الإسلاميَّة في ذلك، وأن تجري التفرقة الدقيقة بين أحكام الشـريعة الإسلاميَّة من حيث هي أحكام ثابتة بالقرآن والسُّنَّة الصحيحة، وتمثل وضعًا إلهيًّا ثابتًا على مدى الزمـان، وبين الآراء الفقهيَّـة الاجتهاديَّة، الَّتـي يُؤخذ منها ويُترك، ويمكن أن تتعـدَّل بمراعاة تغير الزمان والمـكان. وهذه النقطة مجال سـعي فكري وفقهي دؤوب ومخلص ومثمـر. ومن حقِّ الجميع بموجب المواطنة أن يتحاوروا في هذه الأحـكام التطبيقية، لنصل إلى الصيغة الَّتي تسـتوعب كل إيجابيات تاريخنا ومنجزاته، ومن أهم هذه المنجزات إقرار المساواة بين المصريين جميعًا.

وبعد الإقرار بهذا الجانب وضمانـه، لا تقوم «حُجَّة قبطية» في وجه تطبيق الشريعة الإسـلاميَّة، إلَّا أن تقوم على أسـاس طائفي ضيِّق يُعلي المصلحة الخاصَّة على غيرها، وأي دعـوة لأية جماعة تتقلص في إطار مصلحة خاصَّة لها لا تراعي الأوضـاع العامَّة، يتعيَّن أن تواجه بما يمليه الصالح العام، وحق الأغلبيَّة في التقرير مع ضمان المسـاواة والمشاركة في كل الأحوال.

ويتعين هنا الإشارة إلى أمرين أساسيين:

الأول: أنَّ مواطنًـا لا يضمـن لمواطن آخـر إلَّا حقه في المسـاواة والمشـاركة، وأن أي مواطن لا يحقُّ له أن يطالب بأكثر من المسـاواة

QaradawiBooks.com

والمشـــاركة، أما ما دون ذلـــك من الأمـــور الَّتي تتعلق بنظـــم الحكم والاقتصاد والسياسات فهي أمور شائعة بين المواطنين.

الأمر الثاني: أنَّ المطالبة بالنظام الإسلامي كانت دائمًا وما تزال تقوم في مواجهة حركة التغريب في المجتمـــع، وهي لم تقم قط في مواجهة الأقباط، ومبلغ علمي أنَّ الأقباط كمواطنين مصريِّين وككنيسة ومذهب، عانوا من التغريب مثـــل ما عانى إخوانهم المســـلمون، وأنَّ مَن يرفض النظام القانوني الإســـلامي لا يرفضه ترجيحًا لنظام قانوني أكثر اتصالًا بالبيئة المصريَّة، وأكثر ارتباطًا بتاريخ الشـــعب المصري وتراثه، ولكنَّه يجري ترجيحًا لنظـــم قانونية وافدة مـــن الغرب، ومع تقرير المســـاواة وضمانهـــا، لا وجه لترجيح نظـــام وافد بالنســـبة للجميـــع، على نظام موروث، عـــاش في البيئـــة قرونًا، وتفاعـــل مع مكوناتها، واســـتوعب ما استطاع من أعرافها، وله اتصال ديني بعقيدة الأغلبيَّة.

وينبغي الحذر من مقولة: إنَّ أمن القبطي وضمان وجوده السياســـي والاجتماعي، مرتبط بإضعاف إسلاميَّة المسلم! لأنَّ وضع المسألة على هذا النحو ـ حســـبما تُؤْثِر بعض الأقلام العِلمانيَّة أن تضعها ـ لن يفضي إلَّا إلى خداع عقائدي. ثمَّ إنَّ إضعاف الإسلام في مصر لن يتم لحساب الأقباط، إنَّما هو يتم في الماضي والحاضر والمستقبل لحساب الحضارة الغربيَّة، الَّتي تكتسح قبطية القبطي، فيما تكتسح من ثوابت هذا البلد.

إنَّ للمسلمين والقبط معًا هدفًا كبيرًا في الدفاع عن ثوابت عقائدهم وجذورها في هذا البلد، ضـــد غوائل الحضارات الوافدة، وهم يواجهون مخاطر واحدة وعدوًّا مشتركًا واحدًا، واجَهُوهُ معًا في السياسة والاقتصاد، ويواجهونه معًا في الفكر والحضارة.

QaradawiBooks.com

وفي ظنِّـــي أنَّ بعض العِلمانيِّين ينحون نحوًا ضـــارًّا عندما يعملون على استغلال وضع غير المسلمين، ويســـتثمرون قلقهم ليواجهوا بهم الحركات الإسلاميَّة، بدل أن يواجهوا معركتهم الفِكْرِيَّة بأنفسهم، وبدل أن يعملوا من موقع المســـؤوليَّة إزاء التكوين الشامل للجماعة الوطنيَّة على تنمية أواصر التفاهم بين الفِكْرِيَّة الإسلاميَّة وغير المسلمين. فنحن جميعًا في مركب واحد، ولن يســـتطيع فريق منَّـــا أن ينفي الآخر. وإنَّ دَعْمَ أواصر الجامعة الوطنيَّة مهمة كفاحية يتعيَّن علينا جميعًا أن نشارك فيها، وأن يُيسِّر كل فريق على غيره إمكانات توثيقها، بدلًا من استغلال سلبيات كل فريق للتشـــنيع عليه وإفساد طريقه لمعالجتها والوقيعة بين الجماعات الوطنيَّة.

وإنَّ استخراج مبدأ المســـاواة من الشريعة الإسلاميَّة يكفل ضمانةً لا يوفرها ولم يوفرها الفكر العلماني الوافـــد؛ بدليل التقلصات الَّتي ما تزال تعاني منها. ومن جهة أخرى فإنَّ لأقباط مصر خاصَّة أن يروا في فقه الشريعة الإســـلاميَّة معنى من معاني قوميتهم. وقد استوعب هذا الفقـــه عـــادات وأعرافًـــا، وضمَّها إلـــى رحابه فـــي المعاملات والعلاقات، وتأثر مثقفو الكنيسة القبطية بصياغات فقه الشريعة على نحو ما نرى في كتابات «ابن العسَّال» الفقيه القبطي في القرن الثالث عشر الميلادي. وليس أضمن للمساواة وأفعل من أن يرى المسلم في تحقيقها إيفاءً منـــه بواجبٍ لدينه عليه، بـــدل أن توضع كما لو كانتْ منافية له»[1].

(١) مجلة الشراع اللبنانية، العدد (٢٨٧) بتاريخ ٢١ سبتمبر ١٩٨٧م.

QaradawiBooks.com

الإسلام تراث حضاري للمسلمين وغير المسلمين في دار الإسلام:

(ح) على أنَّ هنا أمرًا له أهميته، ويجب التنبيه عليه، وهو أنَّ الإسلام بالنظر للمسيحيين ـ العرب بالذات ـ يعتبر تراثًا قوميًّا وحضاريًّا لهم، فهم وإن لم يؤمنوا به دينًا، يؤمنون به ثقافة وحضارة، يعتزون بها، ويفخرون بأمجادها وآثارها.

وهذا ما جعل بعض المنصفين من المسيحيين في مصر وفي سوريا وغيرها يقول: «أنا مسيحي دينًا، مسلم وطنًا وثقافة»!

ولا عجب أنْ رأينا كثيرًا من أدباء النصارى يحفظون القرآن كلَّه أو جلَّه، باعتباره كتاب العربيَّة الأكبر.

كما كان السياسي المصري المسيحي الشهير «مكرم عبيد»، وكما حكى عن نفسه الكاتب الأديب الدكتور «نظمي لوقا» في مقدمة كتابه القيم «محمد: الرسالة والرسول»[1].

ووجدنا كثيرًا من هؤلاء الأدباء يكتبون عن محمَّد ﷺ رسول المسلمين مقالات وقصائد جيدة بوصفه عندهم أعظم شخصية عربيَّة.

يقول الشاعر الماروني «رشيد الخوري»:

شَغَلْتُ قَلْبِي بِحُبِّ الْمُصْطَفَى، وَغَدَتْ عُرُوبَتِي مَثَلِي الْأَعْلَى وَإِيمَانِي

ويقول «أمين نخلة»: «الإسلام إسلامان: واحد بالديانة، وواحد بالقوميَّة واللغة، ومَن لا يمتُّ إلى محمَّد بعصبيَّة، ولا إلى لغة محمد، وقوميَّة محمد، فهو ضيف ثقيل علينا، غريب الوجه بيننا.

(١) انظر: محمد الرسالة والرسول صـ ٣٤ وما بعدها، نشر دار الكتاب العربي بمصر، ط٢، ١٩٥٩م.

QaradawiBooks.com

ويا محمد: يمينًا بديني ودين ابن مريم، إنَّنا في هذا الحي من العرب نتطلع إليك من شبابيك البيعة، فعقولنا في الإنجيل، وعيوننا في القرآن»[1]!

ولا غرو أن وجدنا أيضًا بعض القانونيين المسيحيين يدرسون الفقه الإسلامي ويدافعون عنه، ويعتبرونه تراثًا تشريعيًّا للأمة كلها، مسلمين وغير مسلمين.

بل وجدنا من زعماء المسيحيين المعدودين مَن يدعو إلى تبنِّي النظام الإسلامي في السياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع.

من أقوال فارس الخوري عن الإسلام:

وأبرز مثل لذلك هو الزعيم السوري الشهير «فارس بك الخوري»، الَّذي شغل منصب مندوب سوريا في هيئة الأمم، كما شغل منصب رئيس الوزراء مدة من الزمن.

فهذا الأستاذ «محمد الفرحاني» تلميذه وملازمه وراويته يحكي عنه فيقول: قال لي «فارس الخوري» ذات يوم في مجلسه بحضور عدد من زواره ومن بينهم القسيس البروتستانتي «داود متري»: «أنا مسيحي ولكنَّني أجاهر بصراحة: إنَّ عندنا النظام الإسلامي، وبما أنَّ الدول العربيَّة المتحدة ـ كان ذلك في عهد الوحدة المصريَّة السورية واتحادهما مع اليمن ـ بأكثريتها الساحقة مسلمة، فليس هناك ما يمنعها من تطبيق المبادئ الإسلاميَّة في السياسة والحكم والاجتماع.

(١) راجع: مقدمة الشيخ محمد الغزالي للطبعة الثانية من كتابه: الإسلام والمناهج الاشتراكية صـ ١٨، نشر دار نهضة مصر، ١٩٩٨م.

QaradawiBooks.com

عقيدتي ويقيني أنَّه لا يمكننا محاربة النظريَّات الهدامة الَّتي تهدد كُلًّا من المسيحيَّة والإسلام إلَّا بالإسلام، وأن هذا هو الَّذي يحدُّ من نشاط الشيوعيَّة ويقضي عليها القضاء المبرم؛ لأنَّ حقائقه تهزم أباطيلها وتدمِّرها»[١].

«فالإسلام هو الدرع الحصينة ضد الشيوعيَّة، وهذا ما صرحتُ به مرارًا وتكرارًا سواء في المحافل الدولية أو في مجالسي الخاصَّة، فلا حياة للعرب ولا قوَّة بغير الإسلام، هذا أمر أنا أؤمن به. ولقد كنت في هيئة الأمم المتحدة منسجمًا كل الانسجام مع وفد الباكستان وغيره من الوفود الإسلاميَّة، وكان الباكستانيون يدافعون عن قضايانا بأشد من الروح الَّتي يدافعون بها عن قضاياهم، إنَّهم يحبُّون العربي حبًّا عظيمًا بل يقدِّسونه تقديسًا»[٢].

ويقول الأستاذ الفرحاني: «قال لي فارس الخوري: هذا هو إيماني. أنا مؤمن بالإسلام وبصلاحه لتنظيم أحوال المجتمع العربي، وقوته في الوقوف بوجه كل المبادئ والنظريَّات الأجنبية مهما بلغ من اعتداد القائمين عليها. لقد قلت ولا زلت أقول: لا يمكن مكافحة الشيوعيَّة والاشتراكيَّة مكافحة جدية إلَّا بالإسلام، والإسلام وحده هو القادر على هدمها ودحرها.

ولقد نقلت هذا الكلام في حينه إلى الأستاذ محمَّد المبارك عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق فقال لي: من الغريب حقًّا أن يُستهان بأمر الإسلام من قِبَل بعض أبنائه، ويعمل على إبعاده عن واقع الحياة، في

(١) فارس الخوري وأيام لا تنسى للأستاذ محمد الفرحاني صـ ٢٦٧.
(٢) المصدر السابق صـ ٢٧٠، ٢٧١.

QaradawiBooks.com

حين يقف أعظم مسيحي في الشرق يجهر بضرورة الأخذ بأحكام الإسلام والعمل بشريعته»[١].

والأعجب من ذلك أنَّنا نراه يؤيِّد قيام حكومة إسلاميَّة قوية حازمة، بل ديكتاتوريَّة لتضرب بشدَّة على أيدي مروجي الإلحاد والفساد والانحلال فيقول: «نحن بحاجة إلى حكومة حازمة تؤمن بالإسلام كدين ونظام متكامل، وتعمل لتطبيقه، فكما أنَّ الشيوعيَّة تحتاج لديكتاتوريَّة حازمة تشقُّ لها طريق الانتشار والازدهار والثبات، فالإسلام أشد حاجة لمثل ذلك.

ومَن ذا الَّذي يرضى ضميره، ويطمئن قلبه إلى سلامة أمته وكيان بلده، وهو يعلم أنَّ التحلُّل والفساد منتشران لدرجة يصعب معها صدهما وإيقاف تيارهما؟ ومَن ذا الَّذي ينكر على المسؤولين فيه مكافحة ذلك التحلل وذلك الفساد بشريعة هي من تلك الأمة وفيها»[٢]؟

وفي مناسبة أخرى يبيِّن الأستاذ الخوري فضل التشريع الجنائي الإسلامي في تحقيق الأمن والاستقرار للمجتمع، والقضاء على الجريمة والمجرمين فيقول: «تذكرون ولا شك عندما تضعون الموازنة العامَّة للدولة المبالغ الطائلة الَّتي تُخصَّص للأمن العام، والشرطة والدرك والمحاكم كرواتب ونفقات.

فلو طُبِّق الشرع الإسلامي وقُطِعت يد في حلب مثلًا، وجُلِد آخر في دير الزور، ورُجِم ثالث في دمشق، وكذلك في بقية المحافظات، لانقطع دابر هذه الجرائم، ولتوفر على الدولة ثلاثة أرباع هذه الموازنة».

(١) فارس الخوري وأيام لا تنسى صـ ٢٧٢، ٢٧٣.

(٢) المصدر نفسه صـ ٢٦٩.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

واستدرك الأستاذ فارس الخوري يقول: «في العهد العثماني كان في دمشق ثلاث محاكم شرعية وصُلحية تنظر في الدعاوي الجزائية والبدائية، وكان قضاة هذه المحاكم يقضون أغلب أوقاتهم في مراكز عملهم بدون عمل، فإذا قسنا ذلك الظرف وقارنَّاه بظرفنا الحالي، وجدنا أنَّ السبب في كثرة المحاكم اليوم يعود إلى تدني الأخلاق، وانتشار الفساد، وعدم الاكتراث بما تفرضه الدولة من عقوبات غير رادعة ولا زاجرة، لعدم تطبيق التشريع الإسلامي في الحكم»[١].

ولقد انتبه هذا السياسي الكبير إلى علاقة العرب بالعالَم الإسلامي وما لهم من رصيد كبير لدى الشعوب المسلمة ينبغي الحرص عليه، والاستزادة منه، فكان يقول: «إننا نستطيع أنْ نثير بهذا الإسلام، قوًى خطيرة جبارة، ليس في العالم الإسلامي فحسب، وإنَّما في جميع أقطار الدنيا. فالمسلمون بروابطهم الدينيَّة الوثيقة، واتجاههم نحو قِبْلة واحدة، وإيمانهم بكتاب واحد، وعملهم بسُنَّة نبيٍّ واحد، إنَّما هم يشكلون أمة واحدة متماسكة مفروض بها أنَّها تتعاون على البرِّ والتقوى، والعدل والإحسان، وإن لم تكن كذلك تختفي عنها صفة الإسلام، هذه الأمة الإسلاميَّة إذا ما أثيرت بأفرادها العاطفة الدينيَّة بشكل جيد، وأحسن تسييرها، فباستطاعتها أن تغير مجرى التاريخ»[٢].

وممَّا لفته إلى هذا الأمر ما لمسه من حماس المندوبين الإسلاميين في هيئة الأمم للقضايا العربيَّة ـ كما ذكر ذلك من قبل ـ كما أنَّه شهد مرَّة حفلًا أقيم لتكريم رئيس إندونيسيا ورفقائه، فلمَّا وصل ضيف الشرف

(١) فارس الخوري وأيام لا تنسى صـ ٢٧٢.

(٢) المصدر نفسه صـ ٢٧٢.

QaradawiBooks.com

الرئيس الإندونيسي ومَن معه من وزراء وسفراء إندونيسيين، فوجئ المرحوم فارس بك بأنَّهم يحدِّثونه باللغة العربيَّة الفصحى فعجب، وسألهم أين تعلموا اللغة العربيَّة؟ فأجابوه بأنهم تعلَّموها في إندونيسيا، حيث تقوم ألوف من المدارس العربيَّة المختصة بتعليم اللغة العربيَّة، حيث جُعِلت اللغة العربيَّة لغة التدريس الأساسيَّة لجميع العلوم.

فأعجب فارس بك جدًّا بما سمع، وخاطب الحاضرين من المدعوين العرب قائلًا: «ما أعظم رصيد الأمة العربيَّة الثقافي في البلاد الإسلاميَّة، وما أجدرنا، نحن العرب المسيحيِّين منا والمسلمين أن نَعَضَّ بالنواجذ على صِلاتنا بالأقطار الإسلاميَّة، وأن نوثق علاقاتنا بمئات الملايين من سكانها، الَّذين يكنُّون لنا أصدق مشاعر الحب والولاء، فإنَّ لنا بذلك فوائد عظيمة ثقافية وسياسيَّة واقتصادية، وإنَّ من واجب الأمة العربيَّة أن تسعى إلى هذه الحقيقة، وتعرف كيف تفيد من هذه الكنوز الثمينة المدَّخرة لنا في أقطار العالَم الإسلامي»[1].

وبعد هذه النقول الناصعة من زعيم مسيحي منصف، لم يبقَ هناك مجال لمتوجِّس أو متعنِّت، فقد حصحص الحق، ووضح الصبح لذي عينين.

ومع هذا ـ زيادة في البيان وقطعًا لكلِّ تعلَّة ـ نسجل هنا ما كتبته مجلة «الدعوة» القاهرية في عددها الصادر في ربيع الأوَّل سنة ١٣٩٧هـ تحت عنوان: «المسيحيون في مصر والحكم بشرع الله» فقد وجِّهت بعض الأسئلة إلى بعض أهل الفكر من ممثلي الطوائف المسيحيَّة في مصر، فكانت إجاباتهم امتدادًا لما نقلناه عن الزعيم السوري فارس الخوري.

(١) فارس الخوري وأيام لا تنسى صـ ٢٧٢.

QaradawiBooks.com

قالت «الدعوة»: «وربما انبعثت أصوات هنا أو هناك تتساءل: وماذا عن الأقليات في مجتمع يطبق شرع الله؟ وربَّما كان السؤال ليس له ما يستدعيه، فشرعة الله لكل خلق الله: عدل وإنصاف وصون للمال والعِرض والحياة، ومع ذلك توجَّهت الدعوة بأسئلة محددة إلى إخواننا أهل الرأي الممثلين للطوائف المسيحيَّة في هذا البلد، تستطلع رأيهم في تحكيم شرع الله، وهجر كل القِيَم والقوانين والنظريَّات الوضعيَّة».

وقد وجَّهت «الدعوة» سؤالين محدَّدين:

١ ـ إذا كان الإسلام والمسيحيَّة ملتقيين في تحريم الزنى ـ مثلًا ـ ومحاربته، فهل عندكم مانع في تطبيق حدِّ الزنى وبقية الحدود الإسلاميَّة الأخرى على مَن استوجب إقامتها عليه في المجتمع المصري، وهل ترى في تطبيقها ما يمسُّ حقوق المسيحيين أو يضايقهم؟

٢ ـ من خلال دراستكم للتاريخ، ماذا ترون في حكم الإسلام بالنسبة للأقليات من ناحية العبادة، والأموال، والأعراض؟

• **عن السؤال الأوَّل يجيب الكاردينال اسطفانوس بطريرك الأقباط الكاثوليك:**

«الأديان السماويَّة تشير إلى تجريم القتل أو الزنى، وإلى المحبة. والمعروف أنَّ مَن يحبُّ الله يجب أن يحبَّ أخاه، ومَن يدَّعي أنَّه يحب الله، ولا يحب أخاه، فهو كاذب، فالقتل والزنى والسرقة إلى آخر المنكرات ضد المحبة؛ لأنَّ الله خلق الإنسان ليكون مستقيمًا غير منحرف، ويستفيد من التعاليم الإلٰهيَّة، ولذلك فالذي يشذ عن نظام الله وتعاليمه بعد أن تُكْفَل له أسباب العيش ومستلزماته يجب أن تُطبَّق عليه

QaradawiBooks.com

حدود شريعة الله ليرتدع ويكون عبرة لغيره، وحتَّى لا تعم الفوضى عندما يقتل أحدٌ أخاه ولا يُقتل، أو يسرق ولا تُقطع يده، أو يزني ولا يُقام عليه حدُّ الزنى. وهـذا ما وجدناه في القوانين الوضعيَّـة الَّتي تجامل الناس، وتلتمس لهم مختلف الأعذار، ممَّا جعل المجتمع غير آمن على نفسه أو ماله أو عِرضه.

وأعود فأكـرِّر: إنَّ تطبيق حدود الشـريعة الإسـلاميَّة ضروري على الشـخص، وعلى المجتمع حتَّى تسـتقيم الأمور وينصلح حال الناس، وليس في تطبيقها أبدًا ما يمس حقوق المسيحيين أو يضايقهم».

كما يجيب غبطة الكاردينال عن السؤال الثاني فيقول:

«إنَّ الَّذي يحترم الشريعة الإسلاميَّة يحترم جميع الأديان، وكل دين يدعو إلى المحبة والإخاء، وأي إنسـان يسير على تعالـيم دينه لا يمكن أن يبغض أحدًا، أو يلقى بغضًا من أحد. ولقد وجدت الديانات الأخرى ـ والمسـيحيَّة بالذات ـ في كل العصور الَّتي كان الحكم الإسلامي فيها قائمًا بصورته الصادقة، ما لم تلقه في ظل أي نظام آخر، من حيث الأمان والاطمئنان في دينها ومالها، وعِرضها وحريتها».

• **أما الأنبا غريغوريوس أسـقف البحث العلمي والدراسـات العليا اللاهوتية بالكنيسـة القبطية، وممثل الأقبـاط الأرثوذكس، فيجيب على السؤال الأوَّل السابق قائلًا:**

«إنَّ تطبيـق أحكام الشـريعة الإسـلاميَّة في مصر أمر لا شـك فيه ولا اعتراض عليه، فالشرائع السماويَّة نور وهداية للبَشر، ونحن نؤمن أنَّ الدين لم يُعطَ للناس إلَّا ليكـون عونًا لهم، لتصير حياتهم به أفضل ممَّا

QaradawiBooks.com

تكون بغيره، والهدف من الوحي الإلٰهي تحديد الطريق الَّذي يساعد الإنسان على أن يعيش بمبادئ الدين سعيدًا كريمًا».

وقال: «إنَّ موضوع تطبيق الحدود السماويَّة في نظري يجب أن نتناوله من شقَّين:

الأول: شق التوجيه والحض على الفضيلة والتمسك بالقِيَم الروحيَّة الدينيَّة. ولكي يجدي هذا لا بدَّ من إصلاح الأسرة حتَّى تستقيم العلاقة بين أفرادها، والاهتمام بتعليم الدين بجميع مراحل التعليم عن طريق المدرسين الأكفاء المنتقين لهذه الرسالة علمًا وقدرة، فالدرس هو المدرس! كما يجب صرف مكافآت للمدرسين الَّذين يؤدون واجبهم في هذا المجال بأمانة، وكذلك للطلاب الَّذين ينبغون في مادة الدين. ولكي تثمر هذه المادَّة في تقويم النشء والشباب يجب ألَّا ننسى دور وسائل الإعلام من إذاعة وتليفزيون وسينما، حيث يجب أن تتضمَّن بث الدعوة الروحيَّة بين الشباب وتقديم الأمثلة والنماذج الحية من الماضي والحاضر، وتبغيض الناس في الشر، وتنفيرهم من الرذيلة عن طريق التلميح من غير عرض لصور الخطيئة الفاضحة، الَّتي تستثير الشباب وتغريهم على الخطيئة.

أما الشق الثاني: وهو جانب الردع والعقاب والمنع لما يتعارض مع مبادئ الدين والفضيلة والقِيَم الروحيَّة، وهذا ما تتولَّاه الحدود السماويَّة، الَّتي شرعت لردع المستهترين ومعاقبتهم؛ ليكونوا عظة لأنفسهم، وعبرة لغيرهم».

وأضاف الأنبا غريغوريوس قائلًا: «رغم أنَّ الديانة المسيحيَّة ليس في نصوصها قطع يد السارق أو قتل القاتل، إلخ.

إلَّا أنَّنا كمسيحيين لا نعارض في تطبيق حدود الشريعة الإسلاميَّة في مصر إذا كانت هذه رغبة إخواننا المسلمين. وفي نظري أنَّ هذا لن يتحقق كما يجب إلَّا إذا ضمنَّا للقضاء سيادته الكاملة، الَّتي تعطي له حرية التحقيق الشامل، والتقصي للجريمة وأسبابها».

أما السؤال الثاني فيجيب عنه أسقف البحث قائلًا: «لقد لقيت الأقليات غير المسلمة ـ والمسيحيون بالذات ـ في ظل الحكم الإسلامي الَّذي كانت تتجلى فيه رُوح الإسلام السمحة كل حرية وسلام وأمن في دينها، ومالها، وعِرضها».

• **أما القس برسوم شحاتة وكيل الطائفة الإنجيلية في مصر فكان رده على السؤال الأول:**

«إنَّ الأديان كافة تحرِّم الجريمة، والنفس الإنسانيَّة يجب أن تعالج من الوقوع في الجريمة وقبل الوقوع بكل وسائل الإصلاح والتربية الجادة، القائمة على إحياء القيم الروحيَّة وسريانها في النفوس، والارتباط بالشرائع السماويَّة في إرشادها وهديها، أما النفوس المتحجِّرة، والقلوب القاسية، الَّتي لا يجدي معها النصح والإرشاد والتوجيه، فهذه تعتبر شاذة وجرثومة في جسم المجتمع يجب إنقاذه منها، وهنا لا بد من تطبيق حدود الشريعة الإسلاميَّة؛ لتحقيق العدالة والسلام والحب في المجتمع. ويُطالَب في نظري بدقة التنفيذ الجاد لهذه الحدود وزير الداخليَّة الَّذي يمثل سُلطة الأمن شخصيًّا. مع ضرورة أن تعود للقضاء سيادته وحرمته الَّتي تعطيه الحرية الكاملة في البحث والتقصي عن كل حادثة أو جريمة».

ويضيف وكيل الطائفة الإنجيلية مجيبًا على السؤال الثاني بقوله: «في كل عهد أو حكم إسلامي التزم المسلمون فيه بمبادئ الدين الإسلامي

QaradawiBooks.com

كانوا يشـــملون رعاياهم من غير المســـلمين ـ والمســـيحيين على وجه الخصوص ـ بكل أسباب الحرية والأمن والسلام، وكلَّما قامت الشرائع الدينيَّة في النفوس بصدق بعيدة عن شوائب التعصُّب الممقوت والرياء الدخيلين على الدين، كلما ســـطعت شـــمس الحريات الدينيَّة، والتقى المسلم والمسيحي في العمل الإيجابي، والوحدة الخلَّاقة».

نضيف إلى هذه الأجوبـــة الواضحة مـــن رؤوس الأقباط في مصر، ما دلت عليه الأرقام في «اســـتطلاع الرأي» الَّذي نظمه كدراسة ميدانية «المركز القومـــي للبحوث الاجتماعيَّة والجنائيـــة» بمصر، حول «تطبيق الشـــريعة الإســـلاميَّة» في مصر، والذي شـــارك في الإجابة على أسئلته مسلمون ومسيحيون.

فكانت هذه الأرقام ذات الدلالة الحاكمة:

- مع «التطبيق الفوري» للشريعة الإســـلاميَّة زادت نسبة المسيحيين عن المسلمين (٣٢ إلى ٣١٪)؟!
- ومـــع تطبيق أحكام الشـــريعة علـــى الجميع، بصـــرف النظر عن اختلاف الدين زادت نسبة المسيحيين عن المسلمين (٧١ إلى ٦٩٪)؟!

وكان تعليل الإجابات: «إننا مجتمع واحد، وهذه الجرائم حرَّمها الله على كل الناس، ولا فرق بين المسلم والمســـيحي أمام القانون، ولأننا دولة إسلاميَّة»[1]؟!

ثم ها هو رأس الكنيســـة القبطيـــة وبابا الأقبـــاط الأرثوذكس الأنبا شنودة، يقول: «إنَّ الأقباط في ظل حكم الشـــريعة، يكونون أسعد حالًا

(١) جريدة الأهرام، ٢٠ مارس ١٩٨٥م، نقلًا عن: العلمانية ونهضتنا الحديثة للدكتور محمد عمارة صـ ٢٠١، نشر دار الشروق، ط ١، ١٩٨٦م.

QaradawiBooks.com

وأكثر أمنًا، ولقد كانوا كذلك في الماضي، حينما كان حكم الشريعة هو السائد، نحن نتوق إلى أن نعيش في ظل: «**لهم ما لنا، وعليهم ما علينا**». إنَّ مصر تجلب القوانين من الخارج حتَّى الآن، وتطبقها علينا، ونحن ليس عندنا ما في الإسلام من قوانين مفصَّلة، فكيف نرضى بالقوانين المجلوبة، ولا نرضى بقوانين الإسلام»[1]؟!

من أسباب تحريك الفتنة الطائفيَّة:

وفي رأيي أنَّ من الأسباب العميقة للفتنة الطائفيَّة، الَّتي تبرز بين حين وآخر: عدم تحكيم الشريعة الإسلاميَّة الَّتي تؤمن الأغلبيَّة بأنَّها ملتزمة بها دينًا، وأنَّ ذلك جزء من إيمانها الَّذي لا خيار لها فيه.

وعدم هذا التحكيم أو التطبيق يخلق شعورًا بالتوتر لدى الإنسان المسلم الغيور على دينه، الحريص على إرضاء ربه، وهذا التوتر يظل ينمو ويقوى كلما شعر المسلم باتساع المسافة، وعمق الهوة بين عقيدته وواقعه، حتَّى ينفجر في صورة اضطرابات، أو فتن طائفيَّة.

وقد يذكي هذا التوتر ويؤججه: اعتقاد بعض المسلمين أنَّ الأقلية غير المسلمة وراء هذا الإعراض عن الشريعة.

وربما أكَّد هذا كتابات بعض هؤلاء، وتصريحات آخرين منهم، من شأنها أن تصبَّ الزيت على النار.

إنَّ من غير المقبول ولا الممكن أنْ نطالب المسلمين أن يتنازلوا عن دينهم ويتخلَّوا عن عقيدتهم، حتَّى يطمئن مواطنوهم من غير المسلمين.

(١) العلمانية ونهضتنا الحديثة صـ ٢٠١، ٢٠٢.

QaradawiBooks.com

كما أنَّه ـ في المقابل ـ لا يجوز أن يُطلب من غير المسلمين أن يلغوا شخصيتهم الدينيَّة، ويفنوا في الأكثريَّة.

إذنْ يجب أن يظل المسلمون مسلمين، والنصارى نصارى، واليهود يهودًا، ما دام هذا هو اختيارهم، إذ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ومن الخير لغير المسلمين أن يكون المسلمون مستمسكين بإسلامهم، مؤتمرين بأمره، منتهين عن نواهيه، وبهذا يعتبرون برَّهم والإقساط إليهم دينًا يدينون الله به، ويلقون الله عليه، ولا يجيزون لأنفسهم في ظلِّ الدِّين ظلمهم أو الإساءة إليهم بوجهٍ من الوجوه، حتَّى الجدال يجب أن يكون بالتي هي أحسن.

ولأن يتعامل المسيحيُّ ـ مثلًا ـ مع مسلم يراقب الله في كل أعماله وعلاقاته، خير له بمراحل من التعامل مع ملحد أو فاسق، لا يرجو لله وقارًا، ولا يحسب للآخرة حسابًا.

وأيضًا من الخير للمسلمين أن يكون مواطنوهم من أهل الكتاب، مستمسكين بتعاليم دينهم الَّتي تحث على السماحة والمحبة، والزهد والإيثار، وتربط الإنسان المسيحي بملكوت السماوات، لا بشهوات الأرض.

ولهذا نحن نُرحِّب ونفسح صدورنا للتديُّن الخالص، لا للطائفيَّة البغيضة.

التديُّن تعلُّق بالحقِّ، والطائفيَّة تعصُّب للباطل.

التديُّن يجمع ويبني، والطائفيَّة تُفَرِّق وتهدم.

التديُّن همُّه النجاة بالنفس من الغرق، والطائفيَّة همُّها إغراق الآخرين.

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الفهارس العامة

- فهـــرس الآيات القرآنيـــة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـــريفة.
- فهرس الموضوعات.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

غير مرخصة للطباعة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البقرة		
﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾	٤٥	١٧٩
﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾	٧٩	١٩٥
﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾	١٤٠	٢٣١
﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾	١٦٤	١٧
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾	١٧٠	١٤٨
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾	١٨٣	١٨٠
﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾	١٩٥	١٧٥
﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾	١٩٨	١٧٧
﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾	٢٥٦	١١، ١٣٢، ١٧٣، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٩٧
﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾	٢٧٥	٢٢٥
﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾	٢٧٦	٢٢٥

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾	٢٨٢	٩٨
﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾	٢٨٥	٢٣١
سورة آل عمران		
﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾	٢٦	٢٠٣
﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾	٣٠	٥١
﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾	٦٤	٢٤٤
﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾	٧٢	٢٦٨
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ﴾	١٩٠	١٧، ٥٠
سورة النساء		
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾	٥٨	٨٩
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾	٦٥	١٣٤، ٢٦٦
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾	٧١	١٧٤، ١٨١
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ﴾	٩٧	٧١
﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾	١٠٢	١٧٤
﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾	١١٩	١٠٦
سورة المائدة		
﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾	٣٣	٢٢٥
﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾	٣٨	٢١٨، ٢٢٥، ٢٣٦
﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ﴾	٣٩	٢١٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾	٤٤	٢٥٨
﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾	٤٥	٢٥٨
﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾	٤٧	٢٥٨
﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ﴾	٤٩	٤، ٨، ١٢٢
﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾	٥٠	٤، ١٢٢
﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾	٥٨	١٨
سورة الأنعام		
﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾	٩٩	١٧١
﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾	١٠٣	١٥٩
﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾	١٥٣	١١٢
﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾	١٦٤	١٥٦
سورة الأعراف		
﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾	٣٢	١٧٦
﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	١٢٩	٢٠٧
﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾	١٥٧	١٧٦
﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾	١٨٥	١٦٩
سورة الأنفال		
﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ﴾	٢٥	٦٩
﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾	٢٦	١٧٥

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾	٤١	٩٥
﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾	٦٠	١٧٤
سورة التوبة		
﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾	٣١	١٩٧
﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾	٧١	٢٤٩
﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾	١٠٣	١٨٠
سورة يونس		
﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾	٣٩	١٣١
﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾	٨١، ٨٢	١١
﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾	٩٩	٢٦١، ٢٦٧
سورة هود		
﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾	٨٤	٢٤٤
﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾	٨٨	١٤
﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾	١١٣	٦٩، ١٨١
سورة يوسف		
﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾	٤٠	١٩٠
سورة الحجر		
﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾	١٦	١٧١
سورة النحل		
﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾	٦	١٧١

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾	٣٦	١٠٣، ٢٤٤
﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾	٦٧	١٧٨
﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾	٨٠	١٧٨
﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾	٩٧	١٧٥
سورة الإسراء		
﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾	٧٠	٧١، ١٣٢
﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا﴾	٧٧	١٠٦
سورة الكهف		
﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾	٩٦، ٩٧	١٧٨
سورة مريم		
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾	٦٤	٥، ٨٨
سورة طه		
﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۞ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾	٩٢ ـ ٩٤	٢٥٥
سورة الأنبياء		
﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾	٨٠	١٧٨
سورة الحج		
﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾	٥	١٧١
﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾	٢٨	١٧٧
سورة النور		
﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾	٢	٢١٦

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾	١٩	٢١٦
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ ﴾	٢٧	٢١٦
﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ﴾	٣٠، ٣١	٢١٦، ٢١٧
﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾	٣٢	٢١٧
﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾	٣٧	١٧٧
﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾	٥١	١٣٤
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾	٥٨	٢١٦
سورة الفرقان		
﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾	٤٣، ٤٤	١٦٠
سورة الشعراء		
﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾	٤٤	١١
﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾	١٤٣، ١٤٤	١٠٤
﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾	١٥٠ ـ ١٥٢	١٠٤
﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ﴾	١٦٥، ١٦٦	٢٤٤
﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾	٢٢٧	٢٨١
سورة النمل		
﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾	٦٠	١٧١
﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾	٦٦	٥١
﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾	٨٨	١٧٠

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة العنكبوت		
﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾	٤١	٨٠
سورة الروم		
﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾	٢٨	١٨
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾	٣٠	٥٤، ١٠٦، ١٥٢
﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾	٥٢، ٥٣	١٨٣
سورة السجدة		
﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾	٧	١٧٠
سورة الأحزاب		
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾	٣٦	٤، ٧، ١٣٤، ٢٢١، ٢٣١
﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾	٦٢	١٠٦
سورة سبأ		
﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾	١٢	١٧٨
﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾	٤٦	١٦٩
سورة فاطر		
﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ﴾	٤٣	١٠٦، ١١٤
سورة الزمر		
﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾	٩	٣١

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة غافر		
﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾	٦٤	١٧١
سورة فصلت		
﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾	٥	١٤
﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾	٤٢	١٣٤
﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾	٥٣	٣٠
سورة الشورى		
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾	١١	١٠٣
﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾	١٣	١٠٤
﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾	٣٨	٨٩، ٢٤٩
سورة الزخرف		
﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾	٤٣	١٠٣
سورة الجاثية		
﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾	١٨	٤، ٨، ١٢٢
﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾	١٩	١٢٢
سورة ق		
﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾	٦	١٧١
سورة الذاريات		
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾	٥٦	١٧٩

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الحديد		
﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾	٣	١٠٣
﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾	٢٥	١٧٨
سورة الممتحنة		
﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾	٨، ٩	٢٧١
﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾	١٢	١٨٨
سورة المنافقون		
﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾	٨	٧١
سورة الطلاق		
﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾	٢	٩٨
سورة الملك		
﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ﴾	٣ ـ ٥	١٧٠، ١٧١
﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾	١٤	٢٣٧
سورة نوح		
﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾	١٤	١١٢
سورة المرسلات		
﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾	٢٠ ـ ٢٣	٥٠
سورة الانفطار		
﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾	٧، ٨	١٧١

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة المطففين		
﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	٦	١٠٤
سورة الأعلى		
﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾	٢، ٣	٥٠
سورة التين		
﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾	٤	١٧١
سورة الزلزلة		
﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾	٦ ـ ٨	٥٠
سورة العصر		
﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾	١ ـ ٣	١٨٠
سورة قريش		
﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۞ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾	٣، ٤	٢٢٠
سورة الإخلاص		
﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾	٣، ٤	١٠٣

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

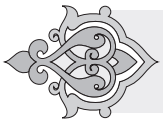

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
أخذ الرسول ﷺ برأي سلمان في حفر الخندق حول المدينة	١٩، ١٢٣
أخشى أنْ يتحدَّث الناس أنَّ محمَّدًا يقتل أصحابه	٢٥٤
ادرؤوا الحدود ما استطعتم، ومَن وجدتم له مخرجًا، فخلُّوا سبيله	٢١٤
إذا قامت الساعةُ وفي يدِ أحدِكم فَسِيلَةٌ	١٧٧
أشيروا عليَّ أيُّها الناس	١٠٠
أصدقُ كلمةٍ قالها شاعرٌ، كلمةُ لَبِيد: أَلَا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ بَاطِلُ	١٣٩
اعقِلْها وتوكَّلْ	١٨١
اكتُبوا لي من تَلَفَّظَ بالإسلام من الناس	٥، ١٩
أَلَا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلَّفه فوق طاقته	٢٧٣
اللهمَّ إنَّا نستعينُك ونستهديك ونستغفرُك ونتوبُ إليك	٧٢
اللهم إنِّي أعوذ بك من الكفر والفقر	١٨٢
اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من الهمِّ والحَزَن، وأعوذُ بك من العَجْز والكسل	٧٢، ١٨١
اللَّهم وَسِّع لي في داري	١٦٧
إنَّ الله لعلَّه يُقَمِّصُكَ قميصًا، فإنْ أرادك أحدٌ على خلعه، فلا تخلعْه	٢٠٠

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إنَّ اللهَ يلومُ على العَجْز، ولكن عليك بالكَيْس، فإذا غلبك أمرٌ	٧١
إنَّ لبدنك عليك حقًّا	١٧٥
أنا أولى بكل مسلم من نفسه، مَن ترك مالًا فلورثته، ومَن ترك ديْنًا	٢٥١
أنتم أعلمُ بأمرِ دُنْياكم	١٩
انظري غلامك النجار، يعملْ لي أعوادًا أُكلِّم الناس عليها	٢٠، ١٢٣
إنَّما الطاعةُ في المعروف	١٨٨
إنَّ النَّاس إذا رأوا الظالمَ ولم يأخذوا على يدَيْه	٦٩
ت	
التاجرُ الصَّدوقُ الأمينُ مع النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء	١٧٧
ح	
الحكمة ضالَّة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحقُّ بها	٢٠، ٩٧، ١٢٣
س	
السمعُ والطاعةُ حقٌّ على المرء المسلم فيما أحبَّ وكره	١٨٨
سيِّد الشهداء حمزة، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائر، فأمره ونهاه، فقتله	٧٠
ش	
الشيخ يملك إربه، والشابُّ يفسد صومه	٩٠
ص	
صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس: الأمراء والفقهاء	١٢٨
ع	
عليكم بالسوادِ الأعظم	١٠١
العينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما البطش	٢٦٢

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ف	
فِـرَّ من المجذوم فرارك من الأسد	١٧٥
فراشٌ للرجل، وفراشٌ للمرأة، وفراشٌ للضيف، والرابع للشيطان	١٦٧
فضل العالِم على العابد كفضلي على أدنى رجلٍ من أصحابي	٢٨
فما أنزل اللهُ داءً إلَّا أنزل له دواء	١٧٥
ك	
كلمةُ حقٍّ عند سلطانٍ جائر	٧٠
ل	
لا ضَررَ ولا ضِرَار	٨٩، ٢٢٥
لأنْ يأخذَ أحدُكم حَبْلَه على ظهره فيحتطبَ، خيرٌ له من أن يسأل الناس	١٧٩
لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود	١٧٢
لهم ما لنا، وعليهم ما علينا	٢٩٦
لولا أنَّ قومك حديث عهدٍ بجاهلية لهدمتُ الكعبة، وبنيتها على قواعد إبراهيم	٢٥٤
ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض، إنَّما الغِنَى غنى النَّفس	١٨٢
م	
ما أحلَّ اللهُ في كتابه فهو حلال، وما حرَّم فهو حرام	٥، ٨٨، ١٩٧
ما تصنعون؟ قالوا: كنَّا نصنعه. قال: لعلَّكم لو لم تفعلوا كان خيرًا	٥
مثل أمتي كالمطر، لا يُدرى أوله خير أو آخره	١٣٨
مَنْ بدَّل دينه فاقتلوه	٢٢٥
مَن رأى منكم منكرًا فليُغَيِّره بيده، فإن لم يستطعْ فبلسانِه، فإن لم يستطعْ فبِقَلْبِه	٧٠

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
مَن عَلِمَ الرميَ، ثمَّ تركه، فليس منَّا	١٧٤
مَن قتل معاهدًا لم يَرِحْ رائحة الجنة، وإنَّ ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا	٢٧٢
من مات ولم يَغْزُ، ولم يُحدِّث به نفسه، مات على شُعْبةٍ من النفاق	١٧٤
مَن نصب شجرةً، فصبر على حفظها والقيام عليها حتَّى تُثْمِرَ	١٧٦
المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف	٧٢، ١٨١
و	
وترك أشياءَ رحمةً بكم غيرَ نسيان، فلا تبحثوا عنها	٨٨
وفَرِّقوا بينهم في المضاجع	١٦٦
ومَن أحيا أرضًا ميتةً فهي له	١٧٧
ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فأمسكوا ما بدا لكم	٩٠
ي	
يا بلال، قمْ فنادِ بالصلاة	١٢٢

❊ ❊ ❊

نسخة مجانية
غير مرخص للبيع

غير مرخصة للطباعة

فهرس الموضوعات

❖ **من الدستور الإلهي للبشرية** ٤

❖ **من مشكاة النبوَّة الخاتمة** ٥

❖ **مـقـدمـــة** ٧

❖ **الدِّين في عصر العلم** **١٥**

حُجَّة هؤلاء ١٥

الحضارة والعلم ١٦

موقف الإسلام من العلم ١٦

أثر العلم الإسلامي في الحضارة ٢١

الإسلام يوحِّد بين الدين والعلم ٢٧

مشكلة التعارض بين الدِّين والعلم وأين نشأت؟ ٢٨

العلوم لا تعارض الدين، بل تخدمه من جهتين ٣٠

تفسير المصادمات الَّتي وقعت بين العلم والدين ٣٢

دور الدين لم ينتهِ ولن ينتهي ٣٥

مناقشة نظريَّة (أوجست كونت) ٣٥

ملاحظة جديرة بالتنبيه ٤٣

رفض تخرُّصات الفلسفة الميتافيزيقيَّة ٤٣

المراد بالدِّين (دين الكنيسة الغربيَّة) ٤٥

QaradawiBooks.com

حاجة الإنسان إلى الدِّين ٤٨
حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى في الوجود ٤٨
حاجة الفِطرة البَشريَّة ٥٢
حاجة الإنسان إلى الصحة النفسيَّة والقوَّة الروحيَّة ٥٤
حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط أخلاقيَّة ٥٧
شهادة التاريخ والواقع ٥٨
لا بديل عن الدِّين ٦٠
العلم ليس بديلًا عن الدِّين ٦٠
الأيديولوجيَّات الحديثة لا تُغني عن الدين ٦٥
الردُّ على دعوى الماركسيِّين ٦٨
الوجه الأوَّل ٦٨
أثر الإسلام في حركات المقاومة والتحرُّر من الاستعمار ٧٥
والوجه الثاني في الردِّ على الماركسيِّين ٧٦

❖ **إسلامٌ متطوِّر.. أم تطوُّرٌ مُسْلِم؟!** **٨٠**
نموذج لتبرير العِلمانيَّة بتهمة جمود الشريعة ٨١
ادِّعاء مردود ٨٣

❖ **الثابت والمتغير من أحكام الدين** **٨٥**
مجال الثبات والتطوُّر في الفقه ٨٧
أسباب المرونة في الشريعة الإسلاميَّة ٨٨
تُهمة «الجمود» ومعارضة «التطور» ٩١
تحديد المفاهيم أوَّلًا ٩١
الجمود الَّذي نرفضه ٩١
الدعوة إلى العلم ٩٢

QaradawiBooks.com

الدعوة إلى الاجتهاد ٩٤
مشروعيَّة الاقتباس ممَّا عند غيرنا وحدوده ٩٧
الجمود الَّذي نُصِرُّ عليه ١٠٣
مفهوم التطور ١١٢
حقيقتان يجب أنْ نتَّفق عليهما ١١٤
جوهر الإنسان والحياة لا يتطوَّر ١١٤
التطوُّر ليس دائمًا إلى الأفضل ١١٦
الإسلام والتطوُّر ١١٧
المجتمع الثابت المتحرِّك ١١٧
متى يتعرض مجتمعنا للخطر؟ ١١٩
مجتمع متميز عن المجتمعات الأخرى ١٢١
العصور الذهبية ١٢٤
كلمة أخيرة ١٢٥

❖ **أصالة لا رجعيَّة.. وتحديث لا تغريب ١٢٧**
ما مفهوم الرجعيَّة؟ ١٢٧
الرجعيَّة والتراث ١٢٩
أهميَّة التراث لأُمَّتِنا ١٢٩
خصائص تراثنا ١٣١
نحن والتراث ١٣٣
المستوى المعصوم من التراث ١٣٤
المستوى البَشري من التراث ١٣٥
ضرورة الانتقاء ١٣٥
عبقريات في عصور التخلف ١٣٨

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحكمة ضالة المؤمن ١٣٩
الاستفادة من كلِّ المدارس الفِكْرِيَّة ١٤٠
إحياء التراث ١٤٢
بين القديم والحديث ١٤٣
تعظيم السابقين للقديم ١٤٣
ظاهرة التعظيم للحديث ١٤٦
القِدَم والحداثة لا علاقة لهما بقيمة الأشياء ١٤٨
القِدَم والحداثة نسبيَّان ١٥٠
الغلوُّ في التحديث مرفوض ١٥٠
حقيقتان لا بدَّ من التنبيه عليهما ١٥٥
المفاضلة بين القديم والحديث ١٦١
بين التغريب والتحديث ١٦١
الإسلام يفي بكل حاجات المجتمع التقدُّمي ١٦٩
العلم ١٦٩
الفنُّ ١٧٠
الحُرِّيَّة ١٧٢
المال ١٧٤
القوَّة العسكريَّة ١٧٤
الصحة العامَّة ١٧٥
الحياة الطيِّبة ١٧٥
الزراعة ١٧٦
التجارة ١٧٧
الصناعة ١٧٨
بناء الإنسان الصالح ١٧٩

QaradawiBooks.com

❖ **دولة إسلاميَّة.. لا دولة دينيَّة** **١٨٤**
دولة الإسلام دولة مدنية ١٨٦
شُبهات العِلمانيِّين في دعوى الدولة الدينيَّة ١٨٩
❖ **فكرة الحاكميَّة ومدى صلتها بالدولة الدينيَّة** **١٩٢**
❖ **مقولة عثمان** **٢٠٠**
❖ **مقولة المنصور** **٢٠٥**
❖ **تجربة الثورة الإيرانيَّة** **٢٠٩**
❖ **ليس الإسلام هو الحدُود** **٢١٣**
الصحوة وتطبيق الشريعة ٢١٣
مكانة الحدود في التشريع الإسلامي ٢١٣
ليس الإسلام تشريعًا فقط ٢١٥
مكانة الحد في جريمة الزنى ٢١٦
مكانة الحد في جريمة السرقة ٢١٨
العودة إلى التشريع الإسلامي تحقيق لوجودنا الديني والقومي ٢٢٠
شُبهات العِلمانيِّين حول تشريع الحدود ٢٢٣
❖ **الحل الإسلامي.. والبرامج التفصيليَّة** **٢٣٨**
تصوير الشُّبهة ٢٣٨
الرد عليها ٢٣٨
الحل الإسلامي واضح المعالم ٢٣٩
المكتبة الإسلاميَّة غنية بالبحوث ٢٤٠
الحركات الانقلابية الكبرى لا تُعْنى بالتفصيلات ٢٤٤

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

حقائق يجب أن تُعلم ٢٥٠
رعاية الضرورات ٢٥٣
ارتكاب أخف الضررين ٢٥٤
مراعاة سُنَّة التدرج ٢٥٥

❖ **الأقليات الدينيَّة والحل الإسلامي ٢٥٧**
حق الأكثريَّة في حكم أنفسهم بما يعتقدون صلاحيته لهم ٢٥٨
الحكم الإسلامي خير للمسيحي من الحكم العلماني ٢٥٩
الحكم الإسلامي لا يرغم المسيحيين على أمر يخالف دينهم ٢٦٠
الحكم القومي العلماني لا يُرْضِي كل المواطنين ٢٦٥
عقوبة المرتدِّ ٢٦٧
الحكم العلماني والعصبيَّة الدينيَّة ٢٧٠
الحكم الإسلامي والتعصُّب الديني ٢٧١
دليل العدل والتسامح من شريعة الإسلام ٢٧١
العدل والتسامح في تاريخ المسلمين ٢٧٣
ما سر هذه الضجة حول الأقليات؟ ٢٧٨
الإسلام تراث حضاري للمسلمين وغير المسلمين في دار الإسلام ٢٨٥
من أقوال فارس الخوري عن الإسلام ٢٨٦
من أسباب تحريك الفتنة الطائفيَّة ٢٩٦

❖ **فهرس الآيات القرآنية الكريمة ٣٠١**

❖ **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٣١١**

❖ **فهرس الموضوعات ٣١٥**

❊ ❊ ❊

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية